سلسلة الدراسات التاريخية 3

كسلا

التاريخ والحضارة

أ. د. السر سيد أحمد العراقي

الطبعة الثانية 2023م

كسلا .. التاريخ والحضارة - أ. د. السر سيد أحمد العراقي

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مجلة القلزم للدراسات التوثيقية.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات و البحوث التوثيقية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع،ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

كسلا
التاريخ والحضارة

بروفيسور

السر سيد أحمد العراقي

الطبعة الأولى - 1444هـ - 2023م

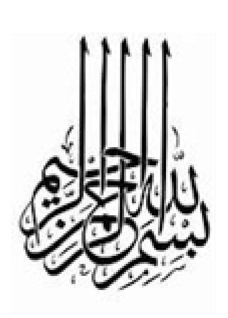
الكتاب : كسلا التاريخ والحضارة

تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2023م

التصميم والإخراج: علي عبد الحليم كابتود



جوال : 00249910785855 - 00249121566207
arithriaforpublishing@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾

[الرعد: 3]

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾

[المرسلات: 27]

الإهداء

إلى إنسان الشرق العملاق...
إلى أهلي وأخواني وآبائي وأجدادي في شرقنا الحبيب...
إلى أبناء مدينة كسلا الأوفياء...
إلى كل من أسهم وشجع على المضي قدماً في الكتابة...
إلى زملاء الصبا والشباب وكل العمر إن شاء الله...
إلى من قاسمني الجهد، وسهر الليالي وصبر وصابر
ورابط معي، وتحمل الصعاب وتكبد المشاق (أبنائي وبناتي)
وحفيدي وقرة عيني «يوسف»...
وأخيراً إلى تلك التي أعطتني الأمل - ضحت وأعطت وآزرت - وكانت وراء الصمود
والنجاح، زوجتي الحنون
«إحسان عبدالرحمن مصطفى».

فيض ووفاء

في نهاية النصف الأول من القرن الماضي تفتحت عيناي على قرية الختمية بمدينة كسلا، حيث شهدت طفولتي الجمال والإبداع والجبال الشامخة والحدائق الغناء والجداول تترقرق بين أشجار النخيل والمانقو والموالح الأخرى من برتقال وليمون وباباي ويوسفي ، وانبهرت بطبيعة تفردت بها كسلا دون سواها من المدن – حباها به الله تعالى جلت قدرته – وهي ترقد كالطفل في أحضان جبال التاكا وتوتيل ومكرام وجبل اللوز وتوليس وماء الخميرة. وجبال التاكا تحرس المدينة كحرز طبيعي يصعب إجتيازه، ونهر القاش ينزل منحدراً في إنسيابه ليعانق ضفافه في شوق بعد طول غياب ليروي بمياهه العذبة أراضيها وسواقيها التي تسقي حدائقها التي تعتبر جنات وروح وريحاناً، فتجود بالخيرات الوفيرة من الفواكه وما تنتجه من خضار وغلات فيها الغذاء الكامل والوفير لإنسانها وحيوانها.

شهدت طفولتي هذه الطبيعة الخلابة، وكنا أقراناً من جيل سعداء بهذا الفيض الرباني.... نلهو ونلعب ونستمتع بسمر وأنس جميل وبرئ.... سليمان جوهر – عثمان السمحوني - عبدالله باترة - إسماعيل بخيت - إسحق الحلنقي - فرح خريف - محجوب عثمان مختار - محجوب أحمد أوشيخ - فيصل يوسف - كمال عروة - أحمد وعبدالمجيد بطران، وكوكبة أخرى من الشباب تتزين بها قائمة تطول. وإلى المدرسةالوسطى من الختمية إلى كسلا المدينة نزحف عبر طريق دوم ود الرتالي التاريخي – ذهاباً وإياباً – بالعجلات، رحلة فيها المتعة رغم ما يكتنف رحلة العودة من المدرسة إلى منازلنا بقرية الختمية من مخاطر، فكان لابد أن نسلك أحد طريقين لا ثالث لهما : طريق ود الرتالي عبر طريق مليء بأشجار الدوم مع ظلام دامس وطريق مقابر الحسن والحسين، وهو طريق أطول بعض الشيء وتحفه أيضاً بعض المخاطر. وكنا نسمع بوجود شياطين في طريق ود الرتالي وقطاع للطرق يعترضون المارة ليلاً هنا وهناك. لذلك كا نتوجس خيفة من العودة التي لا مفر منها، والمذاكرة التي كانت تنظمها المدرسة الوسطى ليلاً إجبارية والغائب عنها يتعرض لأقصى العقوبات وبالطبع كان الجلد على رأسها. ولكن كانت الجماعة في رحلة العودة وروح الفكاهة والدعابة لدى البعض منا تخفف من وعثاء الرحلة وتطوي عنا بعدها. وكان من أبطال الفكاهة والنكتة هاشم الحسن السنجكابي وبابكر عبود، وأذكر من جماعة رحلة العودة من

المذاكرة عبدالله باترة وحسن وعلي الناظر، وفي جانب آخر أذكر كمال عروة وحسين العمدة ومحجوب عثمان مختار وآخرين كثر لا يسع المجال لذكرهم. وهذه العوامل التي أشرت إليها كانت تبث الشجاعة وتشجع على المثابرة والمواظبة على المذاكرة المدرسية الليلية الإجبارية ليلاً، وكلها ذكريات نبثها لأبنائنا والأجيال المقبلة إن شاء الله ليفقوا على السعي وراء العلم والمعرفة ويأخذوا من العظات والعبر والاعتماد على النفس وأن يعرفوا أن التعليم وطلب العلم أمر أساسي لا مفر منه.

والنقلة إلى المرحلة الوسطى، نقلة حضارية مهمة، ففيها تجوالنا بين حدائق المدينة الجميلة وأسواقها العامرة، والوقوف على المستوى والرقي الحضاري، وما تتمتع به كسلا – حينها – من رخاء أدبي ومادي، الشوارع الجميلة، والمطاعم الفاخرة، والمحلات والأسواق الراقية والغنية بمنتجاتها ومكتباتها العامة والخاصة، مع دواوين الحكومة في أطرافها القريبة من وسط المدينة. وظهرت في حياتنا خلال هذه المرحلة كوكبة ونخبة جديدة أضافت بُعداً في الصداقة المميزة.... مدني محمد مدني - عثمان أحمد الشايقي - أبصار السيد – سعيد إسحق القدال - علي أحمد حترة - عبدالله حسن شمس - الخير وشوقي وقِدور وسيد أحمد كمبر وكمال كيلا.... وكلهم اجتمعوا وكأنهم تعاهدوا على حب هذه البلدة الجميلة.

وكجيلنا بدأنا بالخلوة نتلو الآيات القرآنية الكريمة ونحفظ ما تيسر من سور في خلوة الشيخ الخليفة الحسن الباترة - الرجل الصالح طيّب الله ثراه - ونتعلم الكتابة في اللوح الخشبي بقلم البوص وحبر العمار والزعفران. ثم ندلف بعد ذلك إلى مراتع الصبا نلهو ونلعب وسط أغصان الدندور وأشجار الدوم والكركور، نقتطف ثمارها بما فيها من ماء حلو المذاق (البعو)، ثم نعرج إلى السواقي ننعم بصوتها الحاني وألحانها الشجية، ونقطف من فواكه المانقو والبرتقال والقريب فروت – بإذنٍ أو بدون إذنٍ – فترومنا المتعة الروحية. وكان لنا مع القاش تأملات في هدوئه وجريانه وعنفوانه وعربدته، ولعب الكرة بين الأزقة والأحياء أمر ضروري وحيوي في حياتنا، بدأناه بالدافوري وكرة الشرّاب ثم كرة الكَفَر الصغيرة والكبيرة من بعد ذلك، بعضنا كان يعشق فريق التاكا – وأنا منهم – وآخرون يميلون ويشجعون فريق الميرغني أو الشباب، ولما ظهرت توتيل مرة أخرى أنحزنا لهذا الفريق وبذلنا الغالي والنفيس في سبيل تطور هذا الفريق العريق، حتى كللت الجهود بالنجاح وتبوأت توتيل مكانتها الطبيعية، وعودتها إلى الساحة بالقوة.

هـذا الجـمال الـذي ازدانـت بـه كسـلا وتزينـت، وأثـرت تلـك الطبيعـة الخلابـة فينـا، وتأثرنـا بهـا، كانـت مصـدر الوحـي والإلهـام والإبـداع – والإنسـان ابـن بيئتـه – فخرّجـت أجيـالاً مـن المبدعـين في مجـالات الشـعر والأدب والغنـاء، وحمـل جيـل المؤرخـين والعلـماء والشـعراء، والفنانـين مـن أبنائـه لـواء الأمانـة العلميـة والأدبيـة والتاريخيـة وتبـاروا في تمجيدهـا، وتسـابقوا في الـذود عنهـا وتفانـوا في الإيفـاء بالإلتزامـات نحـو تطورهـا وتقدمهـا وازدهارهـا. وآل كل واحـد منهـم أن يمنـح تلـك المدينـة الشـامخة والآيـة التـي تـسر الناظريـن حقهـا بتسـجيل تاريخهـا الناصـع، وبهـاء المدينةالسـاحرة والأخّـاذ، وجـمال الإنسـان فيهـا، عـبر إسـهامات مـن الكتابـة بالشـعر والنـثر، بالتوثيـق والتأصيـل والتسـجيل، وبالغنـاء والدراسـات والفنـون الشـعبية، وديدنهـم المنهـج الوصفـي لهـذا السـفر، يمثـل تاريخـاً إجتماعيـاً حضاريـاً عملاقـاً، فإننـا نعـد القـارئ الكريـم بمتابعـة الكتابـة عـن هـذه الأم الـرؤوم كسـلا، قـول الشـاعر:

وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب فضاها الشباب هنالكا

وتحياتي للقارئ الكريم، وإلى اللقاء

المؤلف

تقديم

لمحة عامة:

تحدوني الرغبة الأكيدة عن الكتابة عن مدينة كسلا منذ زمن بعيد، هذه المدينة ذات التاريخ الناصع الوضاء التي عشنا فيها أجمل أيام حياتنا، وقضينا فيها كل مراحل صبانا، فاستمتعنا بجمالها وألقها وبهائها... وهي لذلك كله تستحق التقدير والتبجيل لأنها وعدت وأوفت وأعطت، وجاء الوقت الذي تستحق فيه حفظ الجميل والوفاء والعرفان – ولأن تقديرنا ومحبتنا واهتمامنا بهذه المدينة الجميلة ذات التارخي المجيد والعظيم – لازمنا منذ الصبا والشباب وسيلازمنا كل العمر إن شاء الله.

لذلك آليت على نفسي كتابة صفحات عن كسلا في كل مراحلها التاريخية من النشأة والتكوين إلى التطور والازدهار، وإعطاء لمحة عن ملامحها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مختلف عصور التاريخ: القديم والوسيط والحديث والمعاصر – وسأركز على الجوانب المهمة التي تعكس تطورها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي مع شيوخها وفقهائها وعلمائها ونظارها وعُمدها، وروّاد التعليم والثقافة والأدب والعلوم والفنون، مع الإشارة إلى أبرز أركان جيوشها ورجال الحركة التجارية والاقتصادية وتطور الحركة الرياضية فيها وقيام الأندية منذ الربع الأول من القرن الماضي.

وإلى أن يبدأ تاريخ مدينة كسلا الحديث في الظهور في القرن التاسع عشر سأبدأ كتابة الموضوعات الأولى بعرض تاريخي للمنطقة بوجه عام منذ تاريخها القديم إلى ظهور الإسلام وتطور مراحل ا لدعوة الإسلامية في أرض البجا وبلاد التاكا بوجهٍ خاصٍ، وازدهار الدعوة الإسلامية في منطقة البحر الأحمر، ومن ثم إلى الداخل حتى وصل أرض التاكا بقبائلها الخالدة من الحلنقة والهدندوة والبني عامر وغيرها، إذ أن الثابت أن تاريخ هذه المنطقة كان على صلة وثيقة بموطن أرقى الحضارات الإنسانية وهي الحضارة الإسلامية.

وإذ أنني أحاول اقتحام هذا المجال المهم والصعب، فإنني أطلب يد العون والمساعدة من كل من له باع في هذا المجال وذلك بالنقد أو إبداء الرأي أو الملاحظة أو الحذف أو الإضافة. حيث أن هناك مراحل كثيرة وحقباً تاريخية عديدة مر بها تاريخ هذه المدينة ذات التاريخ المجيد والعظيم – الكتابة فيه قد تعتريه صعوبات جمة يدرك ذلك الباحثون الذين يحاولون إلقاء بعض الضوء على ناحية أو أخرى من هذا التاريخ الطويل في مقالٍ خاصٍ أو بحثٍ موجزٍ. ومنشأ هذه الصعوبات ضياع معظم

المصـادر التـي خلفتهـا مراحـل وعصـور بائـدة أو اندثـرت معالمهـا، فمـن دراسـة مراحـل تاريـخ كسـلا تتضـح المعـالم البـارزة لأوجـه حضارتهـا وتطـور ثقافتهـا وازدهـار فنونهـا وبـروز مواهبهـا، ونحـن نتمنـى لكسـلا التقـدم والازدهـار.

وكسـلا تسـتحق البحـث والدراسـة، لأنهـا وبـكل المعـاني ذات تاريـخ يتمنـى الإنسـان أن يخـوض في أعماقـه ليكتشـف بواطـن العظمـة في أهلهـا وأصالتهـم وحُسـن معشرهـم، وهـي عاصمـة الـشرق بـكل جمالهـا وبهائهـا... يتـوق إليهـا أبناؤهـا دومـاً لأنهـا محببـة إليهـم بلـداً وأهـلاً وعظمـةً وعـزةً، وهـي عزيـزة عـلى أهلهـا وأبنائهـا وزوارهـا وضيوفهـا لجمالهـا الـذي يفـوق حـد الوصـف والعراقـة وأصالـة شـعبها.

فلكسـلا التحيـة والتقديـر مـن عـلى البعـد... لأنهـا تسـتحق حسـن الذكـرى وحفـظ الجميـل وثنايـا الـشرك والتبجيـل والتمجيـد، فهـي قبلـة الـزوار ومنـارة العلـم وكعبـة المعرفـة بشـيوخها وعلمائهـا وفقهائهـا...

مقدمة تاريخية وجغرافية

شرق السودان:

لعل أهم ما يؤكد أهمية شرق السودان في تاريخه القديم والوسيط والحديث ما كتبه المؤرخون والجغرافيون والباحثون والدارسون في هذه المنطقة المهمة والحيوية على مر الأزمان والأجيال، ولدينا الكثير من المصنفات المهمة التي اهتمت بتسجيل المعلومات المهمة عن تاريخ وجغرافية شرق السودان بصفة عامة، يُضاف إلى ذلك ما كتبه الرحالة وغيرهم من كتاب العصور الوسطى والحديثة، وترجع أهمية كل هذه الجهود التي كتبها الرواد العرب وغيرهم من مؤرخين وجغرافيين ورحالة، إلى أنها كتبت في عصور كانت المنطقة فيها بعيدة عن مجال المعرفة الأوروبية، ولذلك اعتبرت المعلومات التي وردت فيها عن شرق السودان بقبائله المختلفة وعادات هؤلاء السكان وتقاليدهم، اعتبرها مادة فريدة وأصيلة من نوعها، خاصة تلك التي وردت عن تاريخ الإسلام والعرب، خاصةً وأن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين شرق السودان وبلاد العرب في كل العصور تمثل جزءاً مهماً من تاريخ السودان بصفة عامة، فعن طريق هذه العلاقات تمت السيادة الإسلامية المبكرة على شرق السودان، وصبغت قبائله بالصبغة الإسلامية، وترجع هذه الأهمية أيضاً إلى أن شرق السودان كان معبراً للقبائل العربية التي تدفقت نحو أواسط السودان، حيث لعبت دوراً كبيراً في إسقاط مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا، ومملكة علوة وعاصمتها سوبا، وفي تعريب السودان الأوسط، كما أشار بروفيسور عبدالرحمن حسب الله في كتابه: (العلاقات بين بلاد العرب وشرق السودان منذ ظهور الإسلام وحتى ظهور الفونج ((911هـ - 1505م))، وما ذكره من قبله بروفيسور يوسف فضل حسن في كتابه: ((The Arabs & The Sudan))، والأستاذ الدكتور مصطفى محمد مسعد في كتابه: (الإسلام والنوبة في العصور الوسطى).

والمصنفات التي اهتمت بتسجيل معلومات مهمة عن تاريخية وجغرافية بلاد شرق السودان سلسلة تكاد تكون متصلة الحلقات، تبدأ من القرن التاسع الميلادي وتنتهي في القرن الخامس عشر.

ولا بد من إيجاز وذكر بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة من الرواد العرب ومصنفاتهم المهمة، فمنهم: البكري في كتابه: (ممالك السودان)، وابن فضل الله

العمـري: (مسـالك الأبصـار في ممالـك الأمصـار)، والغريـزي في كتابـه: (السـلوك في معرفـة الملـوك)، والنويـري في مصنفـه: (نهايـة الأرب في فنـون الأدب)، والإدريـس في تحفتـه الخالـدة: (نزهـة المشـتاق في اخـتراق الآفـاق)، وابن الأثـير: (الكامـل في التاريخ)، والاصطخري: (المسـالك والممالـك)، وابـن حوقـل الـذي اشـتهر كتابـه باسـم: (صـورة الأرض)، ومـن بعـده المقـدسي وكتابـه: (أحسـن التقاسـيم في معرفـة الأقاليـم). ويعـد المقـدسي مـن أعظـم الجغرافيـين العـرب في القـرن العـاشر الميـلادي. اقتـصر في كتاباتـه عـلى وصـف الأقاليـم الإسـلامية ولم يتعـرض لوصـف الأقاليـم التـي يسـكنها غـير المسـلمين. كـما يعتـبر كتـاب أبي حفـص عمـر بن الـوردي الـذي جـاء تحـت عنـوان: (خريـدة العجائـب وفريـدة العجائـب)، مـن المصنفـات المهمـة التـي اهتمـت بهـذه المناطـق، وبـلاد أفريقيـا بوجـهٍ عـام.

وفي السـنوات الأولى مـن النصـف الثـاني مـن القـرن الرابـع عـشر يسـترعي انتباهنـا كتـاب رحالـة عـربي يدعـى ابـن بطوطـة، سـجل فيـه رحلاتـه الكثـيرة وأسـماه: (تحفـة النظـار في غرائـب الأمصـار وعجائـب الأسـفار) – بـدأ رحلاتـه العـام 775هــ قاصـداً الحـج إلى مكـة، ولـه ثـلاث رحـلات واسـعة النطـاق جـاب فيهـا أكـثر مـا عـرف في زمانـه مـن بـلاد، وقـضى في رحلاتـه هيـه مـا يقـرب مـن الثلاثـين عامـاً.

وفي نهايـة القـرن الرابـع عـشر نجـد المؤلـف أبـو المحاسـن بـن تغـري بـردي، المنهـل الصـافي والمسـتوفي بعـد الـوافي، وكتابـه: (النجـوم الزاهـرة في ملـوك مـصر والقاهـرة).

يضـاف إلى جهـود هـؤلاء الكتـاب والرحالـة مـا كتبـه المسـعودي في كتابـه: (مـروج الذهـب ومعـادن الجوهـر) – في الجـزء الأول، وكتابـه الآخـر: (التنبيـه والإشراف)، وأبـو الفـداء في كتابيـه: (المختـصر في تاريـخ البـشر، وتقويـم البلـدان). كـما يعتـبر مـا كتبـه إبـن عبدالحكـم في كتابـه: (كتـاب فتـوح مـصر وأخبارهـا) مهـماً مـع مـا سـجله الطـبري في مصنفـه (تاريـخ الأمـم والملـوك). ومـن المصـادر المهمـة (كتـاب تحفـة الزمـان) أو (فتـوح الحبشـة) لشـهاب الديـن إبـن أحمـد، المشـهور باسـم (عـرب فقيـه). وهنـاك كتـب كثـيرة اعتبرهـا مصـادر أصليـة في تاريـخ بـلاد شرقـي أفريقيـا منهـا: (الطبقـات الكـبرى) لمحمـد بـن سـعد، وابـن الفقيـه: (مختـصر كتـاب البلـدان)، والغريـزي: (المواعـظ والاعتبـار بذكـر الخطـط والآثـار)، وابـن مسـكويه في (تجـارب الأمـم)، وابـن المجـاور في كتابـه: (صفـة بـلاد اليمـن ومكـة وبعـض مـدن الحجـاز) والمعـروف باسـم (المسـتبصر)، يضـاف إلى هـؤلاء مـا كتبـه عبدالرحمـن بـن خلـدون في كتـاب (العـبر وديـوان المبتـدأ والخـبر)، والدمشـقي في كتابـه

(كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)، وابن سعيد وكتابه (كتاب بسط الأرض في الطول والعرض)، وأبوشامة في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، وابن إياس في (بدائع الزهور في وقائع الدهور).

وتجدر الإشارة إلى ما كتبه فريق المحدثين من أمثال: يوسف فضل حسن في كتابه: The Arabs and The Sudan، وكتابه(مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي)، وبول Paulفي كتابه:

A history of the Beja Tribes of the Sudan،وماكمايل فيكتابهA History of the Arabs in the Sudan،وBudgeفي كتابه:

(A History of Ethiopia, Nubia and Abassinia) وكراوفورد في كتابه: (The Fung Kingdom of Sennar)، وبرمنجهام (Islam in Sudan). وأوين Owenفي كتابه (The Hadendawa)، وبول Paulأيضاً (Notes on Bene Amer)،وسليمان وبرندSulaiman And Brendaفي كتاب(Notes on the History And Present Condition of the Beni Amer –Beja)وساندرزSanders في كتابيه(The Bisharin)،(The Amarar).

وبالطبع لا يمكن أن نهمل أو نغفل عن جهود بعض العلماء في هذا المجال من أمثال الشيخ الأستاذ محمد الأمين الذي كتب كثيراً عن كسلا وشرقي السودان بصفة عامة في كتابات وبحوث كثيرة، والأستاذ الدكتور/ مصطفى محمد مسعد في كتابه (الإسلام والنوبة في العصور الوسطى) وكتابه (المكتبة السودانية). أما الأخ العالم الدكتور الناصر أبوكروق فقد كانت أطروحته التي حصل فيها على درجة الماجستير في التاريخ فكانت تحت عنوان: (تاريخ مدينة كسلا 1883-1898م). ومحمد صالح ضرار (تاريخ السودان، البحر الأحمر، إقليم البجا). والدكتور محمد عوض محمد (السودان الشمالي وسكانه وقبائله)، والدكتور عبدالمجيد عابدين (تاريخ الثقافة العربية في السودان)، والدكتور صلاح الدين الشامي (الموانئ السوداني)، والدكتور شوقي الجمل في كتابه (تاريخ السودان والنيل)، والأستاذ الشاطر البصيلي عبدالجليل في كتابه (معالم سودان وادي النيل)، وكتابه الثاني (تاريخ وحضارة السودان الشرقي والأوسط)، والدكتور مكي شبيكة (السودان عبر القرون)، ونعوم شقير وكتابه (جغرافية تاريخ السودان)، والأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه (معجم قبائل العرب)، وسجلمان (السلالات البشرية في أفريقيا).

وأود أن أضيف إلى هذه الجهود عملاً عظيماً ومقدراً قام به الأستاذ أحمد المصطفى أحمد ضقيل لنيل درجة الماجستير في التارخي في جامعة النيلين، وموضوع أطروحته بعنوان:- (تاريخ مدينة كسلا 1840-1956).

وفي الآونة الأخيرة نشط الباحثون والدارسون كما نشطت الجمعيات والمعاهد بالدراسات السودانية – خاصة في شرقي البلاد وغربها – وأصبحت الجامعات السودانية في الوقت الحاضر تهتم بجمع التراث السوداني، حيث تنهض جامعة أم درمان الإسلامية وجامعة الخرطوم وجامعة النيلين وغيرها بجمع وتصنيف ما في حوزتها من مخطوطات عربي. وليس من شك أن تاريخ العرب والإسلام في السودان يعد من الصفحات المجيدة في التاريخ السوداني. ونرجو أن تتاح الظروف أيضاً للدارسين السودانيين، دراسة الرواد والرعيل الأول من بناة النهضة السودانية، وأسهموا إسهاماً إيجابياً في التاريخ الوطني، وقاموا بنقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى داخل البلاد، هذا بالإضافة إلى الدور الذي قام به الأجداد والآباء في السودان في تاريخ المنطقة الاقتصادي والسياسي ولاجتماعي.

والصفحات التالية محاولة لدراسة أحوال شرق السودان منذ القدم، على أن العصور التاريخية الزاهرة في شرقي السودان هي تلك التي تقترن بالإسلام، فبالإسلام يبدأ العصر التاريخي لبلاد شرقي السودان. ومن ناحية حدود شرقي السودان، فتمتد المنطقة من عيذاب عند ساحل البحر الأحمر حتى منطقة وادي العلاقي ونهر النيل عند حدود مصر شمالاً، وتمتد جنوباً حتى منطقة مصوع، ويحدها ساحل البحر الأحمر شرقاً، كما تمتد الحدود الغربية حتى القضارف وقلع النحل مروراً بالبطانة، بالإضافة إلى جزر عديدة في داخل البحر الأحمر منها جزيرة سواكن وجزيرة عيري باضع ثم جزيرة بهدور ومجموعة جزر الدهلك التي تقع قبالة مصوع.

أما مدينة كسلا التي ظهرت في العصر الحديث، وبالتحديد في العام 1841/1841م، فتقع على دائرة العرض 28-15 درجة شمالاً، وخط الطول 24-26 درجة، وارتفاع 495 متراً فوق سطح البحر، وتحتل مدينة كسلام حوضاً ضحلاً يرتفع تدريجياً في اتجاه الجانب الشرقي، وتقع المدينة تحت جبل كسلا الذي يرتفع إلى نحو 851 متراً فوق مستوى السهول المحيطة بهم وهو كتلة ضخمة من الصخور الجرانيتية الملساء التي تبرز كعامل دفاعي مهم، ويقع إلى الغرب من هذا الجبل نهر القاش وهو مجرى موسمي يفيض بالمياه بين شهري يوليو وأكتوبر (كما سيجيء تفصيل ذلك لاحقاً).

والمدينة ذات طقس حار، إذ ترتفع درجات الحرارة في أشهر أوائل الصيف بين شهري مارس ويونيو، بينما تنخفض بين شهري ديسمبر وفبراير. كما تقدر كمية الأمطار التي تسقط في المدينة سنوياً بحوالي 13,5 بوصة، التي تهطل بين شهري يونيو وسبتمبر، وتتعرض المدينة لهبوب الرياح والعواصف الرملية (الهبباي) التي تهب عليها من تربة دلتا القاش في أشهر الصيف. (أنظر رسالة ماجستير غير منشورة للأستاذ أ؛مد المصطفى أحمد ضقيل) بعنوان (تاريخ مدينة كسلا 1840-1956م)، وانظر أيضاً كتاب الدكتور/ عبدالله حامد العبادي (أنماط ونماذج المدن الكبرى في السودان).

هذه الرقعة الفسيحة - بلاد شرق السودان، وفي داخلها أرض التاكا التي قامت فيها مدينة كسلا - فيما بعد - يسكنها البجا، ويتضح مما رواه المؤرخون والجغرافيون - الذين سبقت الإشارة إلى معظمهم - أن حدود البجا الشمالية والجنوبية غير واضحة المعالم، لأن هؤلاء يتوغلون في أراضي مصر في الشمال، والحبشة في الجنوب. وقد اتصل العرب بشرقي السودان قبل الإسلام بقرون عديدة عن طريق البحر الأحمر، وعن طريق مصر عبر الصحراء الشرقية.

وقد أشار الدكتور عبدالرحمن حسب الله إلى الهجرات العربية (بلاد شرقي السودان)، وذكر بأنه على الرغم من عدم وجود دليل واضح على هجرات جماعية إلى شرق السودان عبر البحر الأحمر، إلا أن هناك دلائل كثيرة تؤكد دخول جماعات عربية إسلامية لشرق السودان عبر طريق البحر الأحمر. ومن أبرز هذه الدلائل اتخاذ المسلمين منطقة جزر الدهلك وباضع منفىً للمغضوب عليهم، مثل نفي الخليفة عمر بن الخطاب لأبي محجن الثقفي إلى باضع، ونفي هشام بن عبدالملك لعمر بن شرحبيل إلى الدهلك. كذلك فإن القاعدة التي أقامها المسلمون في وقت مبكر في جزر الدهلك ساعدت على حماية التجار والجماعات العربية، وسهلت لهم العبور إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر، وقد اكتشفت بهذه الجزر نقوش عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الميلادي (الثالث البحري).

ثم ميناء باضع - الذي يرجح أن العرب هم الذين أسسوه مليىء بالجاليات الإسلامية. كما أن اكتشاف كثير من شواهد القبور في جزيرة عيري (باضع) وفي الجزر القريبة منها، دليل على أن العرب وصلوا هذه المناطق عن طريق البحر الأحمر مباشرةً. ويؤكد دخول العرب هذه المنطقة عبر البحر الأحمر قيام مملكة دجن على

خـور القـاش، حيـث كانـت تقـدم خدماتهـا للموانـئ العربيـة في سـاحل البحـر الأحمـر، وكان يحكـم هـذه المملكـة عـربي مسـلم يعينـه ملـك علـوة.

والمرجـح أن هالـك جماعـات مـن عـرب هـوازن عـبرت البحـر الأحمـر واسـتقرت في أرض البجـا، عرفـت باسـم الحلنقـة (أو الحلانقـة)، ويعتـبر بـول Paulهـذه الجماعـات أو مـن اسـتقر مـن العـرب في أرض البجـا. مـن الأدلـة أيضـاً خـروج زعيـم قفـط إبراهيـم القفطـي إلى الحـج عـن طريـق بـلاد البجـا في جماعـة مـن أهلـه وأنصـاره سـنة 204هــ-819م، ورغـم أن زغيـم قفـط لم ينجـح في عبـور البحـر الأحمـر لاعتـداء البجـا عليـه، إلا أن محاولتـه تـدل عـلى أن العبـور مـن أراضي البجـا إلى السـاحل الشرقـي كان ممكنـاً. ثـم هـروب الصـوفي العلـوي وهـو إبراهيـم بـن يحيـى بـن عبدالله إبـن محمـد بـن عـلي بـن أبي طالـب بعـد هزيمتـه وأنصـاره عـلى يـد العمـري إلى الحجـاز عـن طريـق عيـذاب في حـوالي سـنة 260هــ -873م. وكل ذلـك دليـل عـلى إمكانيـة عبـور القبائـل مـن شرق السـودان إلى غـرب بـلاد العـرب. ومـن الأدلـة أيضـاً رجـوع قبيلـة بنـي يونـس إلى الحجـاز عـبر البحـر الأحمـر مـن عيـذاب بعـد النـزاع الـذي نشـب بينهـا وبـين بنـي بـشر. ومـن أقـوى الأدلـة عـلى إمكانيـة عبـور السـاحل الغـربي للبحـر الأحمـر ازدهـار مينـاء عيـذاب ونشـاطه الواسـع في القرنـين الحـادي عـشر والثـاني عـشر.

أمـا الطريـق الثـاني الـذي سـلكته الجماعـات العربيـة إلى شرقـي السـودان فهـو طريـق مـصر عـبر الصحـراء الشرقيـة. فقـد سـلكته الهجـرات العربيـة منـذ الفتـح العـربي لمـصر. وقـد اهتمـت الدولـة الإسـلامية منـذ البدايـة بشرقـي السـودان (أراضي البجـا) لأهميـة المنطقـة بالنسـبة للتجـارة بـين مـصر والحبشـة وعـدن والهنـد. فلذلـك حرصـت عـلى تأمـين سـواحله لضـمان وصـول السـفن إلى الموانـئ المصريـة، ومعاهـدة عبيـد اللـه بـن الحبحـاب سـنة 725م، والمعاهـدات الأخـرى قـد اسـتهدفت تحقيـق هـذه الغايـة.

وقـد ظلـت موجـات مـن هجـرات القبائـل العربيـة التـي وفـدت إلى مـصر منـذ الفتـح الإسـلامي تتجـه نحـو شرق السـودان، وكان وراء هجـرات هـؤلاء البحـث عـن المعـادن لاسـتغلالها والاسـفادة منهـا، ومـن هـذه القبائـل ربيعـة وجهينـة اللتـين اسـتقرتا في أرض المعـدن، ثـم انتشرتـا في شرقـي السـودان، وأمـا قبيلـة بنـي يونـس فقـد تولـت الإشراف عـلى مينـاء عيـذاب. ومـن أبـرز القبائـل العربيـة التـي وفـدت إلى شرقـي السـودان أيضـاً بطـون مـن قيـس التـي جـاءت عـن طريـق مـصر، حيـث اسـتقرت في منطقـة الحـوض الشرقـي،

ومنها هاجرت إلى الصعيد الأعلى. وقد أشار اليعقوبي (كتاب البلدان) إلى عدة أماكن تقطنها بطون قيس في أرض المعدن. وقد كان الدافع لهجرة هؤلاء الأعراب إلى أرض المعدن ما نما إلى علمهم من أنباء عن المعادن التي تكثر في وادي العلاقي وسهولة الحصول عليها، خاصة بعد أن وجدوا الحماية من الدولة الإسلامية.

ومن العرب الذين وفدوا إلى شرقي السودان بني هلال – وهؤلاء كما يقول المقريزي بطن من بني عامر وكان أهل بلاد الصعيد كلها إلى عيذاب (كتاب البيان)، واشار ماكمايكل إلى أن الآراء تتفق على أن بنو هلال وفدوا إلى السودان عن طريق الشرق من بلاد العرب إلى كسلا، ثم عبروا النيل الأبيض واتجهوا إلى غرب السودان، ولكن يرجح أنهم كانوا في منطقة أسوان أولاً ومنها دخلوا منطقة المعادن، وذلك يوضح بجلاء أنهم دخلوا السودان عن طريق مصر. وعن طريق مصر دخلت السودان قريش واستقرت في شرقي السودان، وكذلك وفدت منها جماعات عن طريق البحر الأحمر مباشرةً، ومن أشهر بطون قريش الذين وفدوا إلى شرقي السودان بنو طلحة وبنو الزبير وبنو شيبة وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو سهم. كما أشار المسعودي في مروج الذهب إلى أن القبسية والمضربة وخلق من قريش دخلوا بلاد شرقي السودان من الحجاز. وتعتبر قبائل هوازن من أهم القبائل العربية التي انتشرت في مساحة واسعة من البحر الأحمر في منطقة التاكا، وعُرفت تلك الجماعة باسم الحلانقة. وكما سبقت الإشارة إلى أن بول Paulأشار إلى أن هؤلاء الحلنقة أو الحلانقة كانوا أول من استقر من العرب المسلمين في أرض البجا. ويُضاف إلى هذه القبائل العربية مجموعات عربية أخرى وصلت شرق السودان نذكر منها على سبيل المثال الكواهلة وبلي، والأخيرة من القبائل القحطانية التي وفدت شرقي السودان واختلطت بالبجا، ويرجح قدومها إلى شرق السودان بعد ظهور الإسلام عن طريق مصر والصحراء الشرقية، نضيف إلى هذه الجماعات قبائل جهينة وقبيلة رفاعة وهي من جهينة، وذكر المقريزي في (البيان) أن رفاعة بطن من سليم.

يشير المؤرخون إلى أن منطقة شرق السودان عند دخول المسلمين إليها كانت مقسمة إلى عدة إمارات وممالك صغيرة مستقلة وهي : مملكة البجا ومملكة بقلين ومملكة بازين ومملكة جارين ومملكة قطعة. وأشار اليعقوبي في (البلدان) إلى مملكة نفيس التي تمتد من حدود أسوان إلى خور بركات (بركة) وعاصمتها هجر.

وقد ذكر كثير من المؤرخين من أمثال اليعقوبي والمسعودي والدمشقي إلى قبائل بجاوية كثيرة مثل الحداربة التي اختلطت وتصاهرت مع قبيلة ربيعة العربية، وحذق هؤلاء التجارة والملاحة. ومن القبائل البجاوية أيضاً أشار المؤرخون إلى الزنافج والبلو.

أما أهم التكوينات القبلية التي انتهت إليها قبائل البجا، فلابد أن نشير إلى أنه نشأ عن انتشار العرب في أوطان البجا آثار عديدة - كما أشار الأخ الدكتور عبدالرحمن حسب الله - في النواحي البشرية - كان لها الأثر الكبير في تكوين المجموعات البجاوية اليوم - فهناك قبائل بجاوية تدعي الانتساب إلى بني كاهل مثل البشاريين والأمرأر والبني عامر.

كما يعتبر الهدندوة من أكبر القبائل البجاوية حجماً ومن أقوالها. وتحتل هذه القبيلة منطقة واسعة من الأرض تمتد من شمال خط عرض التاسع عشر إلى جنوب الخط الخامس عشر، ويفتخر الهدندوة بانتمائهم إلى الأصول العربية، وأن شريفاً عربياً يدعى محمد هداب قدم من الحجاز وتزوج أميرة عربية من أحفاد ملك البجا شكاتيل. ويبدو أن هذه المصاهرة بين أم عربية وجد عربي جعلت الأثر العربي واضحاً في قبيلة الهدندوة، وأكسبتها المكانة ورفعت من شأنها.

وهناك الأمراء الذين تتداول الروايات بأنهم ينتسبون إلى قبيلة الكواهلة التي يرجع نسبها إلى الزبير بن العوام مثل البشاريين.

أما البنو عامر، فهم يحتلون الجزء الجنوبي م إقليم البجا وأوطانهم موزعة بين السودان وأرتريا. والجزء الذي يحتلونه في السودان يمتد من جنوب سواكن بنحو عشرين كيلومتراً حتى حدود أريتريا، وتشمل هذه المنطقة خور بركة ودلتا طوكر، ويمكن اعتبار خور بركة المحور الذي يلتف حوله البنو عامر في السودان وأريتريا. والبنو عامر كغيرهم من قبائل البجة ترجع بنسبها إلى الأصول العربية، فتذكر رواياتهم أنهم ينتسبون إلى عامر بن كاهل الذي نزح من الجزيرة العربية وتزوج من البجا فأنجب (أمار) جد الأمرأر والبني عامر. ومن الروايات المتداولة أيضاً ما يدل على أن للبني عامر دولة أو شبه دولة ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنها لم تكن تسمى دولة البني عامر بل كانت تسمى (مملكة البلو)، وخلف النابتاب البلو في حكم المملكة واستمرت المملكة تحت إدارتهم إلى أن أخضعها الفونج لسلطانهم. وقد سمح الفونج للدقلل من النابتاب بلبس الطاقية أم قرنين وأنابهم في حكم البني عامر.

ويعتبر النابتاب المحور الرئيسي لقبائل البني عامر، التي تنقسم إلى عدة قبائل تختلف في أصولها وليس بينها أي ترابط رحمي وثيق مثل قبائل البجا الأخرى. وتنقسم القبيلة من حيث اللغة إلى مجموعتين : مجموعة تتحدث لغة التقري السامية، ومنها قبائل بيت معلا والخماسين في أريتريا، وقبائل العجيلات والأفلندا والبهدود في السودان وأريتريا. أما الذين يتحدثون البتداوية فمجموعة السنكانكتاب واللبد والبجا أبدوا، وهي قبائل أغلبها في السودان. ونجد أن العديد من قبائل البني عامر في السودان تتكلم اللغة العربية بجانب هاتين اللغتين. والحرفة الرئيسية للقبيلة الرعي والزراعة.

الحباب من القبائل البجاوية، وكانت هذه القبيلة تضم اتحاداً قبلياً كبيراً مثل البني عامر، وقد توزع أفراد القبيلة بين أريتريا والسودان، والجزء الأكبر يعيش في أريتريا اليوم، أما الجزء الذي يعيش في السودان، فيعيشون في منطقة طوكر وبورتسودان وكسلا، ويطلق على رئيس القبيلة اسم (كنتباي). ويرجع أصل الحباب كما يعتقدون إلى قبيلة بني مخزوم العربية. وتذكر الروايات المتبادلة بينهم فرعاً من بني مخزوم قدم من اليمن عن طريق باب المندب ونزل الحبشة عند منطقة كرن (في أريتريا اليوم)، وتبع بعضهم ساحل البحر الأحمر حتى وصل إلى منطقة البلو بالقرب من طوكر.

أما الحلنقة فهم من القبائل البجاوية القديمة، بل ويعتبرون من أقدم القبائل التي سكنت أرض التاكا. وترجع قبائل الحلنقة أصلهم إلى هوازن العربية. ويقال أن هوازن هاجرت من الجزيرة العربية نتيجة لاضطهاد الحجاج بن يوسف لهم، فعبرت البحر الأحمر إلى منطقة الدهلك، حيث استقرت هناك قرنين من الزمان، ولكن لمضايقة الأحباش لهم فرت مجموعة منهم إلى منطقة التاكا (كسلا)، حيث عرفوا باسم الحلنقة أو الحلانقة.

قد ذكرت قبيلة الحلنقة منذ زمن السلطان المملوكي في مصر ا لناصر محمد بن قلاوون (1299-1340م) الذي أرسل حملة لمطاردة الأعراب، وقد وصلت الحملة حتى أرض التاكا، ودارت موقعة بينها وبين الحلنقة أسفرت عن هزيمة الحلنقة. ويتحدث الحلنقة لغة بجاوية مليئة بالكلمات الأمهرية والتقرية، كما يتحدث أغلبهم اللغة العربية، ويحترفون الزراعة ورعي الماشية.

ومن القبائل البجاوية قيلة الأرتيقا، وتنتمي إلى محمد جمال الدين أحد أبناء باصفار الذي يقال أنه هاجر من حضرموت إلى سواكن فاعترفوا للأرتيقا بالإمارة وتولوا

الشـؤون الإداريـة في المدينـة، ولم يكـن للمنـدوب العثـماني سـوى تحصيـل العوائـد عـلى الـواردات. واسـتمر الأرتيقـا حكامـاً للسـودان ردحـاً مـن الزمـن في زمـن العثمانيـين، وهـم يحترفـون التجـارة والزراعـة، وهـم أكـثر قبائـل البجـا انتشـاراً في أنحـاء السـودان. وأهـم الأماكـن التـي يقطنونهـا سـواكن وطوكـر وبورتسـودان وسـنكات وكسـلا. ويتكلـم الأرتيقـا اللغتـين البجاويـة والعربيـة.

يعتـبر الأشراف في شرقـي السـودان مـن القبائـل البجاويـة، وهـم ينتسـبون للشريـف محمـد بـن الحسـين الـذي وفـد مـن مكـة إلى سـواكن في القـرن العـاشر الهجـري، واسـتوطن بجانـب الأرتيقـا وتـزوج مـن إحـدى حفيـدان محمـد جـمال الديـن باصفـار وأنجبـت زوجتـه عـدداً مـن الأولاد كانـوا نـواة القبيلـة التـي انتـشرت في قـرى ومـدن شرق السـودان مثـل سـواكن وسـنكات وكسـلا وطوكـر وبورتسـودان. وتحـترف هـذه القبيلـة التجـارة والزراعـة والرعـي، ويتحدثـون اللغـة البجاويـة إلى جانـب العربيـة. الجديـر بالذكـر أن مجموعـة الأشراف محافظـة عـلى نسـبها، ولهـا نقيـب في سـواكن مهمتـه تسـجيل المواليـد الجـدد للقبيلـة ولذلـك لديهـم أقـدم وثيقـة نسـب في شرق السـودان حسـب اللـه – (ص100-137).

تعتـبر مدينـة كسـلا جـزءاً مـن منطقـة البجـا الذيـن تمتـد أوطانهـم في باديـة الصحـراء الشرقيـة مـا بـين النيـل والبحـر الأحمـر، وهـي المنطقـة التـي تكونـت فيهـا ممالـك البجـا الخمـس، التـي سـبقت الإشـارة إليهـا – والحلنقـة كـما سـبق القـول أول قبائـل البجـا وصـولاً لمنطقـة التـاكا، التـي أعطـى بـول Paulتاريخـاً لاسـتقرارها بمنطقـة القـاش في حـوالي 690م... ويعتقـد هـذا المـؤرخ أن الحلنقـة أول قبيلـة مسـلمة دخلـت السـودان بعد الإسـلام، وتنسـب القبيلـة نفسـها إلى ذريـة أحمـد الحـلاق مـن بنـي سـعد، وهـي بطـن مـن بطـون قبيلـة هـوازن التـي سـبقت الإشـارة إليهـا، وهـؤلاء نزحـوا مـن الجزيـرة العربيـة في زمـن خلافـة عبدالملـك بـن مـروان، ووصلـوا إلى أرض الحبشـة حيـث اسـتقروا بمرتفعـات التقـراي، وكانـوا أهـل خيـل يحملـون السـياط، فلـذا أطلـق عليهـم الأحبـاش لقـب (هلنكـة). إلا أن وجـود أقليـة مسـلمة كـما ذكـر الأسـتاذ ضقيـل (تاريـخ مدينـة كسـلا) وسـط أغلبيـة مسـيحية لم يكـن أمـراً مقبـولاً، فأمـام تغـول القبائـل عليهـم فـروا بمحـاذاة وادي مـأرب (القـاش)، إلى أن وصلـوا إلى سـفح جبـل التـاكا، حيـث خاضـوا معـارك ضـد قبيلـة البـازة التـي انتهـت بسـيطرتهم عـلى ضفـاف نهـر القـاش، حيـث اسـتقروا بمنطقـة (فاكنـدا) جنـوب شرقـي مدينـة كسـلا، ومـن ثـم امتـدت قراهـم حتـى قريـة مـكلي بدلتـا القـاش، ومـن ثـم تعاظـم

نفـوذ الحلنقـة، خاصـة في فـترة دولـة الفونـج (1504-1821م)، حيـث كانـت لهـم إمـارة عُرفـت باسـم مملكـة الحلنقـة. وفي أيـام تفـكك دولـة الفونـج كان للحلنقـة مـن القـوة التـي مكنتهـم مـن هزيمـة حملـة أرسـلها سـلطان الفونـج عـدلان الثـاني، الأمـر الـذي أقنـع الفونـج بمصاهرتهـم حيـث تـزوج زعيمهـم عـوض مسـمار إحـدى أمـيرات الفونـج، وظـل حليفهـم إلى وقعـت المنطقـة تحـت النفـوذ الـتركي المـصري.

غـير أن الحلنقـة لم يكونـوا الوحيديـن الذيـن اسـتقروا في كسـلا أو أرض التـاكا بوجـهٍ عـام، إذ نزحـت قبائـل الهدنـدوة الرعويـة في حركتهـا جنوبـاً وكانـوا أكـبر عـدداً وأكـثر قـوة، ونسـبة لطبيعتهـم الحربيـة المقاتلـة – كـما ذكـر الضقيـل – أجـبروا الحلنقـة عـلى التراجـع إلى منطقتهـم الأولى (فاكنـدا)، حيـث بسـط الهدنـدوة سـيطرتهم عـلى دلتـا القـاش وجـزء مـن أطـراف نهـر عطـبرة في العـام 1800م (القـرن التاسـع عـشر)، حيـث أصبحـوا القـوة الرئيسـية بالمنطقـة، ومـن ثـم أصبـح مقـر زعامـة قبيلـة الهدنـدوة في (فلـك) بشرقـي نهـر القـاش قبالـة قريـة وقـر الحاليـة.

كـما أصبـح لقبيلـة البنـي عـام وجـود في كسـلا وحـول أطرافهـا وشرق خـور القـاش الأمـر الـذي جعـل الهدنـدوة ينظـرون إليهـم مـع قبيلـة الحلنقـة بأنهـم دخـلاء عـلى منطقـة التـاكا، مـما جعلهـم يكنـون لهـم العـداء.

ومـن القبائـل التـي جـاورت البجـا في أرض التـاكا قبيلـة الشـكرية التـي تنسـب إلى قبيلـة جهينـة العربيـة، وقبيلـة الضباينـة الرعويـة التـي تنسـب أيضـاً إلى جهينـة، وتسـيطر بطونهـا عـلى ضفـاف نهـر سـيتيت، التـي تجاورهـا قبيلـة الحمـران التـي تميـز رجالهـا بالفروسـية واشـتهرت نسـاؤها بالجـمال، وقـد اشـتهرت منهـن تاجـوج صاحبـة الملحمـة الأدبيـة الخالـدة. وينسـب الحمـران أنفسـهم إلى بنـي حـرب مـن هـوازن إضافـةً إلى قبيلتـي السـبدرات والقديـن اللتـين اسـتقرتا بـشرق نهـر القـاش عـلى سـفوح جبـال سـبدرات.

كـما اسـتقرت بالمنطقـة مجموعـات مـن قبائـل الفـلاتي والهوسـا والبرنـو (ونطلـق عليهم جميعـاً اسـم الفلاتـة)، وقـد اسـتقر هـؤلاء في منطقـة قلـو سـبت غـربي دلتـا القـاش في رحـلات عودتهـم مـن الحـج وأصبحـوا جـزءاً مـن قبائـل المنطقـة بتحولهـم إلى قبائـل شـبه رعويـة، وأخذهـم عـادات المنطقـة إلى حـد مـا. ومـن القبائـل التـي وصلـت المنطقـة في وقـت متأخـر الرشـايدة الرعويـة، التـي تُعـرف باسـم الزبيديـة، وينقسـم هـؤلاء إلى ثلاثـة فـروع رئيسـية هـي (الزينميـات والراطيـخ والبراعصـة)، وذلـك حسـب مـا أورده الأسـتاذ الضقيـل في أطروحتـه.

كما نجد أن أهم الهجرات التي استقبلتها منطقة التاكا في الربع الأول من القرن التاسع عشر هجرة الأستاذ الختم السيد محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية في السودان قادماً من مكة، وقد استقبله وبايعه الزعيم الروحي لقبيلة الحلنقة الشيخ يعقوب بن مالك، وكان أن صلى مع الأستاذ الختم صلاة الفجر على سفح جبل كسلا في قرية الختمية الحالية، وفي نفس المكان الذي شيدت فيه قبة السيد جعفر الميرغني حفيد السيد محمد عثمان الميرغني (لختم)، وبعد الفراغ من صلاة الفجر قام الشيخ يعقوب بمبايعة الختم إماماً وشيخاً للطريقة الختمية بعد أن علم بصلاحه وتقواه، وفي تلك اللحظة قام الأستاذ الختم بتعيين الشيخ يعقوب شيخ الحلنقة خليفة للطريقة الختمية في كسلا، فأصبح بذلك ثالث خلفاء الطريقة الختمية في السودان. ومنذ ذلك الوقت أصبح الحلنقة جزءاً مهماً من الطريقة الختمية، والتفوا حول ابنه السيد الحسن أبو جلابية شيخ الطريقة الختمية بعد وفاة أبيه السيد محمد عثمان الميرغني.

مصطلح كسلا :-

اجتهد كثير من الباحثين وتعدد آراؤهم حول اسم مدينة كسلا - أشير على سبيل المثال لبعض الأساتذة الأجلاء الذين أفاضوا كثيراً وبذلوا جهداص مقدراً حول هذا الموضوع، مثل الأستاذ الدكتور ناصر عبدالله أبوكروق (الأستاذ بجامعة أفريقيا حالياً)، وذلك في أطروحته التي أعدها لنيل درجة الماجستير في التاريخ بعنوان (تاريخ مدينة كسلا 1883-1898م) وهي رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة 1976م - واذكر أيضاً الأستاذ أحمد مصطفى ضقيل، في رسالته التي حصل فيها على درجة الماجستير في التاريخ الحديث في جامعة النيلين (1428هـ-2007م)، وقد كرّمتني جامعة النيلين باختياري ممتحناً خارجياً لمناقشة هذه الرسالة وهي بعنوان (تاريخ كسلا 1840-1956)، وهناك الكثير ممن كتبوا عن كسلا وتاريخها وحضارتها، وبحثوا كثيراً في أصل التسمية - وتضارب الآراء - وعلى راس هؤلاء الشيخ الجليل العالم محمد الأمين الشريف، الذي له نفائس كثيرة وبحوث قيّمة في تاريخ الشرق بصفة عامة، ومدينة كسلا بوجهٍ خاص، وقد أشار إلى ذلك الأخ الأستاذ أحمد طه محمد الحسن في بحوثه المتعددة، ومنها موضوعاته الأخيرة التي تستحق الإشارة تحت عنوان (عبقرية المكان.... في درة شرق السودان).

أما الآراء التي تضاربت حول اسم كسلا – وهي كثيرة أذكر منها ما يلي:-

الرأي الأول:-

يقول مصدره من أن التسمية جاءت من المهمة العسكرية التي قامت بها المدينة، إذ أن الاسم مشتق من كلمة كاسل Castleومعناها الحصن، ومنها المنطقة الحصينة. والثابت أن مدينة كسلا لم تعرف بناء الحصون إلا بعد إحتلال قوات الحكمدار أحمد باشا شركس أبو ودان للمنطقة في العام 1841/1840م. إلا أن هذا القول يشير إلى الموقع الدفاعي الذي تتميز به المدينة ما بين جبل التاكا ونهر القاش، كما أن اسم المدينة سابق لهذا التاريخ. وتشير الروايات بأن اسم كسلا ظهر لأول مرة في نقش عثر عليه في أكسوم، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع الميلادي، ويتحدث عن مجموعات جداءت من كسلا إلى أكسوم، وهذا الدليل يضعف الرأي القائل بأن التسمية مأخوذة من كلمة (كاسلCastle).

الرأي الثاني : -

يشير هذا الرأي بأن المدينة تنسب إلى الجبل الواقع بها، ويدلل على ذلك إشارة بروفيسور/ مكي شبيكة عند تتبعه لحملة الناصر محمد قلاوون (أحد سلاطين المماليك) (1290-1340) التي وصلت إلى جبل كسلان وجبل السوس، وهي منطقة جبال ممتدة في الإقليم وتمثل حدود بلاد التاكا مع الحبشة، وعلى ذلك حث التحريف في الكلمة - ربما بمرور الزمن – من كلمة كسلان إلى كسلا. ويؤيد هذا الرأي نعوم شقير في كتابه (جغرافية وتاريخ السودان) في إشارته لمملكة الحلنقة، وبأن الحلنقة أحدى قبائل البجا (كما أشرت في مقدمة هذا الكتاب) – ومركز الحلنقة جبل كسلا على نهر القاش. وهذا يؤكد بأن تسمية الجبل سابق للمدينة، وبالتالي فإن المدينة أخذت اسمها من الجبل الذي قامت عليه[1].

الرأي الثالث : -

أشارت إليه كوكبة من العلماء على رأسهم الشيخ محمد الأمين شريف، وأشار إليه أخيراً الأستاذ أحمد طه [2]، أن أصل التسمية يعود إلى اسم جارية سكنت تحت

(1) أحمد مصطفى ضقيل، ص 10.

(2) عبقرة المكان في درة شرق السودان (السوداني الإسبوعي، مجلة في جريدة – العدد 1197- الجمعة 13 مارس 2009م الموافق 16 ربيع الأول 1430هـ.

سفح الجبل (كسلا)، يغشاها المسافرون ويجدون عندها ما يسد رمقهم من زاد لهم ولرواحلهم...إلخ، فارتبط اسم الجارية بالمكان....إلخ.

الرأي الرابع : -

وأصحابه كثيرون.... في القول بأن اسم كسلا جاء من الكسل الذي لازم سكانها في ذلك الحين.... ولكن في رأي أن هذا الزعم لا يؤكده دليل ولا يدعمه سند، فلا يمكن أن توصف شعباً عُرف بالشهامة والشجاعة وقوة الشكيمة بالكسل، فقبائل تلك المنطقة عرفت منذ فجر تاريخها بالشجاعة، واشتهرت بالشجاعة والإقدام وعرفوا بكثرة التجوال في إقليم واسع مترامي الأطراف. وقبائل البجا بصفة عامة لهم حروب مشهورة سجلوا فيها أروع أنواع البطولات والمواقف البطولية المشهورة الفذة التي خلدها التاريخ. بل ويسجل لهم التاريخ صولاتهم وجولاتهم في ميادين الحرب والقتال والدفاع عن الشرف والكرامة، فإذن لا يمكن أن تسف شعباً يتمتع بهذه الصفات بحياة الخمول والكسل. فأصحاب هذا الراي، دليلهم على ذلك أن مناخ كسلا وخيم يبعث على الكسل والتعب، ولذا سميت باسم كسلا، وأعتقد أن هذا الرأي ينافي الحقيقة ويبتعد عن الواقع، لأن الاسم أصلاً موجود للجبل قبل وصول هذه القوافل، كما أن هذه القوافل جاءت بعد قيام المدينة إبان الحكم التركي المصري في السودان، لأنهم وصفوها ببلاد كسلان في حين أنها كانت تعرف قبل ذلك ببلاد التاكا.

الرأي الخامس : -

يميل هذا الرأي إلى القول بحدوث شقاق في الأسرة المالكة الأمهرية في الحبشة، مما اضطر الفرع المهزوم بقيادة الأمير (كاسا) أن يهاجر من الحبشة بمحاذاة نهر القاش، إلى أن وصل إلى موقع المدينة الحالي، الذي يمتاز بالتربة الخصبة، والتربة الخصبة بالأمهرية تسمى (لا)، فأضيف اسم الأمير (كاسا) إلى كلمة (لا) ومعناها بالأمهرية (الأرض الخصبة)، فاندمجت الكلمتان كاسا + لا، فظهر المصطلح (كاسا لا)، ويصبح المعنى بالتالي (أرض كاسا الخصيبة). وهذا يعني أن كسلا مدينة سودانية باسم أمهري (حبش) فلا غرابة في ذلك إذ أن مدناً تاريخية كثيرة لها شهرتها في التاريخ حملت أسماء مؤسسيها وفاتحيها مثل مدينة روما ومؤسسها (روميلوس). كما تنسب الإسكندرية إلى فاتحها ومؤسسها الإسكندر الأكبر، كما حملت القسطنطينية اسم الإمبراطور الروماني قسطنتين العام 330م.

الرأي السادس : -

ورد عند بروفيسور يوسف فضل حسن رأيه بأن كلمتي التاكا وكسلا مترادفتان، وذلك عند تحقيقه لمخطوط الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله، وفيه إشارة إلى أن منطقة التاكا تقع جوار جبل كسلا [(3)].

يجمع الباحثون بأن كلمة (تاكا) كلمة في لغات البجا، وتعني أشجار الدوم، ولها مترادفات أخرى أطلقت على اسم الجبل ومها كلمة تولوس، وتعني بلغة البجا الصخرة الملساء، أو الشيء الأملس. وتولوس تعرف اليوم باسم (توليس)، وهي فعلاً صخرة ملساء وفي حافتها الغربية منبع يوجد فيه الماء معظم أيام السنة، وهي تقع إلى الشرق من مسجد وضريح السيد الحسن الميرغني (23 نوفمبر 1869م) تم بناؤه بصورته الحالية كما تشير الروايات في مطلع القرن العشرين، وقد أشارت روايات إلى أنه بني العام 1912، وأقوال كثيرة تتحدث عن بناء هذا الضريح، وتتحدث عن الفتحة التي تركت بدون غطاء حتى يومنا هذا، ولا تدخل منها مياه الأمطار إلى داخله مهما كانت غزارتها. ويدفن مع السيد الحسن الميرغني (أبوجلابية) أربعة من أبناء المراغنة هم : السيد أحمد الأعزب (العزب)، والسيد أحمد بن السيد محمد عثمان بن السيد الحسن أبوجلابية، والسيد أحمد هو الأخ الأكبر للسيد علي الميرغني، كما دفن في هذا الضريح السيد محمد عثمان (شمبات) وشقيقه السيد الحسن، وهما أبناء السيد أحمد الميرغني بن السيد محمد عثمان بن السيد الحسن الميرغني (أبوجلابية)، أما خلفاء المراغنة ومحبوهم ومريدوهم فأصبحت لهم مقبرة خاصة هي مقبرة (سيدي محمد صالح)، التي لا تبعد كثيراً عن ضريح السيد الحسن الميرغني، فهي في الشمال له، وأصبحت مقبرة كبيرة يدفن فيها أبناء كسلا وحتى أبناء غرب القاش يدفنون موتاهم في هذه المقبرة، وهناك مقبرة كسلا المعروفة اسم (حسن وحسين) وهم من المراغنة أيضاً والراجح أن السيد محمد صالح والحسن والحسين من أحفاد الختم (شيخ الطريقة الختمية)، وقد أشرت في هذا الموضوع إلى الأستاذ محمد عثمان الختم (شيخ الطريقة الختمية) الذي طاف بلاداً كثيرة قادماً إليها من الحجاز، منها مصر وأريتريا والسودان، وفي السودان زار الأستاذ الختم مدناص كثيرة في شمال

---

(3) انظر الطبقات (تحقيق)، ص 281، الخرطوم 1992 (ط4)، دار التأليف والترجمة والنشر، وانظر رسالة د. الناصر أبو كروق، تاريخ مدينة كسلا (1883-1898م) وأطروحة أحمد مصطفى ضقيل، تاريخ مدينة كسلا (1840-1956م).

السودا وشرقه وغربه ووسطه، حيث زار سنار عاصمة سلطنة الفونج الإسلامية (1504-1821م)، ووصل به المقام إلى بارا، حيث تحققت الرؤية بأن يتزوج المرأة الصالحة التي تنجب له الإبن الصالح، وهو السيد الحسن أبوجلابية، ويرجح أن ذلك كان في العام 1816م، وكان الشيخ عثمان بن فودي (الفقيه) ومؤسس الدولة والخلافة الصكتية في نيجيريا (1804-1903م) قد اتجه هو الآخر إلى بارا لنفس الغرض، وكان الأقرب إلى بارا، إلا أن أمطاراً كثيرة عطلت دخوله بارا، فوصل الأستاذ الختم إلى بارا قبل وصول ابن فودي بقليل وتزوج من المرأة الصالحة (رقية بنت جلاب) (السيدة رقية)، التي أنجبت له الإبن الصالح السيد الحسن الميرغني (صاحب كسلا). وكان الشيخ عثمان بن فودي قد وصل مشارف بارا وعلم أن غريباً قد دخل بارا وتزوج المرأة الصالحة، فغفل عائداً إلى عاصمة بلاده صكت، حيث وافته المنية العام 1817م.

وفي تجوال الأستاذ الختم، لابد أن نشير هنا إلى وصوله إلى أرض التاكا التي كان معظم سكانها من الحلنقة، وزار الشيخ يعقوب (شيخ الحلنقة) وهو حفيد شيخهم الكبير (عبدالله أبورايات)، وعند وصول الأستاذ الختم قرية الختمية الحالية، وبالقرب من قبة السيد جعفر الميرغني بن السيد بكري التي لا تبعد كثيراً عن نبع ماء توتيل، أشارت الروايات إلى أن الختم صلى بالناس إماماً في صلاة الفجر، حيث قدمه الشيخ يعقوب ليصلي إماماً بالناس، وكان قد علم بكراماته، وفي تلك الصلاة تلى الأستاذ الختم آيات من سور قرآنية معينة، فتأكد للشيخ يعقوب من تلاوة هذه الآيات والسور بالأستاذ الختم من أولياء الله الصالحين، فبعد الفراغ من صلاة الفجر مباشرةً، قام الشيخ يعقوب من مكانه وبايع الأستاذ الختم على السمع والطاعة، واعترف به شيخاً للطريقة الختمية، وقام الأستاذ الختم في تلك اللحظة بتعيين الشيخ يعقوب خليفةً للطريقة الختمية في شرق السودان، وأصبح ثالث خلفاء الطريقة الختمية في السودان، والآخران هما : الخليفة بادي ود جلاب (خال السيد الحسن الميرغني) وهو شقيق والدته السيدة رقية بنت جلاب، الذي أصبح خليفة للطريقة الختمية في غرب السودان، أما في شمال السودان فعين الأستاذ الختم الشيخ محمد خير بن الشيخ محمد صالح العراقي، خليفةً للطريقة الختمية في شمال السودان، وكان الأستاذ الختم والشيخ محمد خير العراقي التقيا في الحجاز (بمكة المكرمة والمدينة المنورة) قبل ذلك، وتعاهدا على نشر الطريقة الختمية في السودان، وطلب الأستاذ الختم من

الشـيخ محمـد خـير العراقـي أن يقـوم بنـشر الطريقـة الختميـة في شـمال السـودان، كـما أصبـح ابنـه محمـد عثـمان العراقـي مـن كبـار خلفـاء وشـيوخ الطريقـة في شرق السـودان، والخليفـة محمـد عثـمان هـذا هـو الـذي نفـاه الأتـراك إلى مصـوع مـع عـددٍ آخـر مـن مشـايخ السـودان لاعتراضهـم عـلى السياسـة التركيـة وابتعادهـا عـن الـشرع وتعاليـم الديـن الحنيـف، أمـا الخليفـة عبدالحميـد العراقـي فقـد خلـف أخـاه الخليفـة محمـد خـير العراقـي في شـمال السـودان.

وأخلـص إلى القـول في موضـوع التـاكا والحلنقـة، أن قبيلـة الحلنقـة منـذ ذلـك الوقـت أصبحـت جـزءاً مهـماً مـن طائفـة الختميـة والتفـوا مـن بعـد ذلـك أيضـاً حـول الأسـتاذ الحسـن أبوجلابيـة شـيخ الطريقـة الختميـة بعـد وفـاة والـده الأسـتاذ ا لختـم – طيّـب اللـه ثراهـم جميعـاً -.

وجبـل التـاكا الـذي تأسسـت حولـه منطقـة كسـلا، يتوسـط سلسـلة الجبـال الممتـدة في الـشرق، وعـلى طـول المدينـة مـن شـمالها إلى جنوبهـا، ويقـع معظمهـا في قريـة الختميـة الحاليـة، وتنسـج الروايـات وتحـكى الأقاصيـص عنـه كثـيراً، منهـا روايـة شـجرة الأكسـير في أعـلى قمتـه، وهـي قصـة رواهـا الأسـتاذ هاشـم سر الختـم في كتابـه (شـجرة الأكسـير)، ومنهـا روايـات عـن الفواكـه المثمـرة مثـل التـين والبرتقـال وغيرهـا في ذلـك الزمـن البعيـد.

ومـن فـروع جبـل كسـلا، جبـال أخـرى كثـيرة منهـا جبـل اللـوز، وهـو أطـول هـذه الجبـال، يقـع في الجنـوب الشرقـي للمدينـة، وجنـوب جبـل التـاكا مبـاشرةً. وفي الشـمال لجبـال التـاكا يقـع جبـل مكـرام المسـمى عـلى المنطقـة أو القريـة (مكـرام)، وقـد زادت أهميـة هـذا الجبـل أخـيراً ووجـد إهتمامـاً زائـداً بفضـل قيمتـه الاقتصاديـة ومنهـا ثرواتـه المعدنيـة، والحجـارة الثمينـة الموجـودة في صخـور هـذا الجبـل، ومنهـا حجـارة الجرانيـت ذات القيمـة الاقتصاديـة، وثـروات معدنيـة أخـرى مدفونـة تحـت هـذا الجبـل – وللدكتـور عبدالعاطـي أحمـد صـادق أسـتاذ الجيولوجيـا معلومـات قيمـة ولهـا قيمتهـا العلميـة عـن جبـل مكـرام وجبـال التـاكا بصفـة عامـة. ((يرحمـه اللـه))

وفي أقـصى جنـوب سلسـلة جبـال كسـلا أو (جبـال التـاكا) تقـع جبـال صغـيرة، ولكنهـا اسـتراتيجية وجبـال حدوديـة تـؤدي إلى داخـل أثيوبيـا وأريتريـا الحاليـة وهـذه الجبـال منهـا جبـل أبـو قمـل وجبـل قلسـة. وهـي لا تبعـد كثـيراً عـن قريـة تاجـوج التـي حملـت اسـم صاحبـة الملحمـة التاريخيـة والأدبيـة المعروفـة. كذلـك يطلـق عـلى كسـلا أسـماء أخـرى

كثيرة، وأكثرها شيوعاً ويتردد كثيراً اسم (كسلا أم تقاق) وتعني الجبل العالي. وتقاق أو (دقاق) عند الأتراك السلاجقة معناها القوس أو النشاب أو السهم الذي يجيد الأتراك استعماله في القرون الأولى للميلاد، أمام كلمة (تقاق) عند البجا فمعناها الشيء العالي أو الشامخ أو المرتفع.

وتطلق هذه الأسماء أيضاً على جبال التاكا. والثابت أن كلمة (تاكا) كلمة بجاوية، أما كلمة كسلا فلا يشير علماء اللغات البجاوية أو أهل الشرق إلى أن كلمة كسلا لها وجود في لغات البجا. وقد ظهرت كسلا في تاريخها الحديث عند تأسيسها العام 1840-1841م، وأخذت مصطلح مديرية التاكا أو مديرية كسلا، والعاصمة هي مدينة كسلا.

وهذه الكلمات التي أشرت إليها في هذا السياق أصبحت مصطلحات ثابتة، ولكن المعنى واحد وهو الإقليم المعروف في شرق السودان، وقد امتدت مديرية كسلا في زمن الحكم الثنائي إلى حلايب في أُقصى الشمال الشرقي، وإلى جنوب القضارف عند قلع النحل جنوباً، وشرقاً عند الحدود الأثيوبية والأريترية، وتضم أجزاءً كبيرة من أرض البطانة، وتجاور أرض الجزيرة غرباً. لذلك يمكن القول أن بلاد التاكا هي أرض البجا التي تشمل أجزاءً منها ضفاف نهر القاش المليئة بغابات الدوم التي تسمى عندهم (الأوليب)، أي أي منطقة التاكا، كما يطلقون على منطقة ساحل البحر الأحمر (القنب)، وبذلك تكون مديرية كسلا قد شملت منطقتي القنب والأوليب عند البجا، وربما جاءت تسمية الجبل (تاكا) لاشتراكه مع شجرة الدوم في الارتفاع.

أخذت مدينة كسلا أسماءً عدة، وتنطق وتكتب الكلمة بعدة أسماء، شأنها في ذلك شأن المدن القديمة والمعروفة في التاريخ مثل مكة المكرمة وكنو ومقديشو وممبسا وغيرها، فكسلا مثلاً تكتب بعدة أشكال فهي تارة كسلا أو كسلة، وكاسلا وكاسالا، وينطق أبناء البجا – وخاصة الهدندوة – هذا المصطلح الأخير فيقولون كاسالا، وهي الكلمة التي أشرنا إليها عند الحديث عن الأمير كاسا، وكلمة (لا) الأمهرية ومعناها الأرض الخصبة أو الخصيبة، وهو ما ينطبق تماماً على الحال الذي تعيشه كسلا، وأضفى عليها الشهرة والعظمة من شموخها وجمالها وخضرتها ونضرتها.

جغرافية مدينة كسلا

الخصائص الطبيعية والبشرية:

الخصائص الطبيعية لمدينة كسلا تتمثل في بساطتها التي انعكست على نظام السطح البسيط، وقد يبدو التقسيم الرئيسي لمظاهر السطح في كسلا بسيطاً وغير معقد... ساعد ذلك على خصوبة أرضها المعطاءة، على مر الأزمان والأجيال، فأسهم هذا بدوره على حياة السكان فيها واعتمادهم التام على الرعي والزراعة، كما ساعد على حركة التجارة وانتعاشها وازدهارها، وذلك على الرغم من تعقيد بعض التفاصيل الداخلية وسلسلة الجبال الطويلة الممتدة من جبل التاكا جنوباً إلى سلسلة جبال البحر الأحمر شمالاً وشرقاً، وقد أعطى نهر القاش - وإن كان نهراً موسمياً يجري في فصل الخريف - إلا أنه أعطى نموذجاً رائعاً يعطي معنى الترابط والتجمع بين الناس منذ قديم الزمان، ويمثل من وجهة النظر الحضارية قطباً مغناطيسياً يشد الناس ويلم الشمل ويؤلف بينهم.

عاشت في كسلا منذ القدم أجناس وقبائل تختلف عن بعضها في العادات والتقاليد والمعتقدات ونظم الحياة.. وقد اشتركت جميعها في صنع الواوقع الحضاري والاجتماعي والاقتصادي، والإشارة إلى هذه القبائل تعطينا الدليل الواقعي الذي أدى إلى تكون ذلك النسيج الفريد أدى بدوره إلى تكون تلك الرابطة والحدة الاجتماعية لمدينة كسلا المعاصرة.

أما أهم قبائل الشرق بوجه عام وأقدمها وأبقاها أثراً في تاريخ تلك المنطقة هم قبائل البجا بصفة عامة ومنهم الهدندوة والبني عامر والأمرأر والبشاريون وانضم إليهم الحلنقة وهم من عرب هوزان الذين عبروا إلى هذه المنطقة من الجزيرة العربية، وينفرد الحلنقة ومن بعدهم البني عامر والهدندوة بأنهم أو من سكن وعمّر مدينة كسلا، بل تشير الروايات بأن الحلنقة هم الذين سكنوا في هذه المنطقة في لبداية ثم تلا ذلك هجرا ت الهدندوة والبني عامر، وتنتشر هذه القبائل الثلاث في منطقة واسعة مترامية الأطراف تمتد من جنوبي كسلا إلى سواحل البحر الأحمر، إلا أن للبني عامر امتداداً وعمقاً داخل الأرض الأريترية، وتغطي قبيلتا الهدندوة والبني عامر وفروعهما من النابتات والأرتيقا وغيرهما على أراضٍ شاسعة ممتدة في أودية نهري

القـاش وبركـة. وبجانـب هـذه القبائـل تعيـش قبائـل كثـيرة في كسـلا وأطرافهـا المختلفـة مثل الحمران والشكرية والرشايدة والأخيرتان وفدتا إلى البلاد من الجزيرة العربيـة في وقـت متأخـر وقـد يكـون تاريـخ دخولهـما إلى السـودان في القـرن التاسـع عـشر أو الربـع الأول مـن القـرن العشريـن.

هاجـرت إلى مدينـة كسـلا قبائـل عربيـة عديـدة مـن داخل السـودان الشـمالي والأوسـط منهـم عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر : الشـايقية والجعليـون والرباطـاب والمناصـير والدناقلـة والمحـس والكواهلـة، ورغـم أن هجراتهـم إلى كسـلا ربمـا تكـون قـد حدثـت في النصـف الأخـير مـن القـرن التاسـع عـشر وأوائـل القـرن العشريـن، إلا أنهـم أحدثـوا نقلـة نوعيـة في مجـال تطويـر الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، فأصلحـوا الأراضي، وعملـوا بالزراعـة والتجـارة، فـازدادت أهميـة المنطقـة الاقتصاديـة وعاشـوا جميعـاً عيشـة هنيـة مـع سـكان البـلاد الأولـين، فأضفـوا لونـاً خاصـاً للحيـاة الاجتماعيـة.

ويمثـل كل هـؤلاء أمـماً مختلفـة في صفاتهـم وعاداتهـم وثقافاتهـم ولكنهـم انصهـروا جميعـاً في سـاحة المدينـة الخلاقـة وأطرافهـا العامـرة، وأدى ذلـك كلـه أن تتفاعـل هـذه مـع تلـك، فاختلطـت الدمـاء والنظـم الاجتماعيـة والآراء العقليـة وسـاعد عـلى ذلـك سياسـة المحبـة والتسـامح والترابـط الـذي سـاد بـين النـاس في مدينـة كسـلا منـذ زمـن بعيـد.. ومـن هـذا الاختـلاط نشـأن جيـل يحمـل ميـزات عقليـة وجسـمانية خاصـة، تظهـر ملامحـه في الواقـع الاجتماعـي والثقـافي الـذي تشـهده كسـلا في الوقـت الحـاضر.

وفي فجـر تاريخهـا الحديـث، وفـدت إلى كسـلا جماعـات عديـدة مـن خـارج البـلاد، خاصـةً مـن جيرانهـا المجاوريـن لحدودهـا، فقـد وفـدت جماعـات مـن الأجانـب الأثيوبيـين والأريتريـين بمختلـف فروعهـم وأصنافهـم، كـما وفـدت إلى كسـلا جماعـات مـن اليمـن السـعيد، أهمهـا جماعـات مـن الحضارمـة (الحداربـة) واليمنيـين، كـما جـاءات جماعـات مـن الحجـاز، وجماعـات مـن بـلاد أوروبيـة وآسـيوية، ومنهـم الهنـوود والبنغـال مـن آسـيا، والشـوام مـن الشـام والأقبـاط مـن مـصر واليونانيـون والإغريـق مـن أوروبـا.

ومـارس هـؤلاء أعـمالاً مختلفـة مـن أهمهـا التجـارة وأصبحـت كسـلا في فـترة وجيـزة قبلـة الـزوار، يـأتي إليهـا السـواح والـزوار مـن كل حـدبٍ وصـوبٍ، فتبـارى الأدبـاء والشـعراء في تمجيـد مدينـة كسـلا وتخليدهـا، كـما تغنـى بجمالهـا وألقهـا وحسـنها وبهائهـا الفنانـون والعظـماء وأهـل الأدب. وأصبحـت تمـوج بالحركـة الأدبيـة والفكريـة والسياسـية والاقتصادية،

خاصةً في الربعين الأول والثاني من القرن العشرين، واصبحت مدينة كبيرة وعظيمة لا تضاهيها في العظمة إلا العاصمة الخرطوم، إذ أسهم هذا الجمع الكبير في التنمية والبناء وعمران المدينة وتحديثها وتخطيطها حتى أخذت الطابع الذي هي عليه المدينة اليوم. ومما ساعد= على هذا الازدهار ذلك الوئام الذي ساد المدينة، إذ عاش الجميع في سلام وأمنٍ وطمأنينةً، لأنهم نبغوا وترعرعوا تحت إدارة الدولة وكنفها ورعايتها، وفي ظل المحبة والوئام والإخاء والترابط والتسامح والانصهار.

الموارد الاقتصادية

إن موارد كسلا بالغة الأهمية منذ زمن بعيد، وأهميتها تبع من تنوع البيئة والمناخ، وتنتج كسلا كثيراً من الفواكه مثل الموز والبرتقال والقريب فروت والجوافة والمانجو والليمون، ويهتم سكانها بزراعة الحاصلات الزراعية مثل الذرة والدخن والذرة الشامي، بجانب الخضروات ومن أهمها البصل. وتوجد في كسلا غابات الدوم والسنط وبعض الأشجار الأخرى التي يمكن أن تنتج الأخشاب الثمينة، كما يمكن اكتشاف معادن كثيرة مثل الجرانيت والذهب والنحاس والقصدير لو جد ذلك الاهتمام والعناية.

وتلعب الماشية دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية لدى سكان كسلا منذ وقتٍ بعيدٍ، فهم يهتمون بتربية الأغنام والأبقار والجمال، وقد تزايد معدل صادرات كسلا من اللحوم ومنتجاتها كالألبان والجلود.

ولعل التجارة كانت هي عصب الحياة في هذه المدينة وفي غيرها من بلاد الشرق قروناً عديدة قبل الإسلام، بل كانت التجارة أهم وسيلة للاتصال، إذ نشطت تجارة العاج في المنطقة كلها مع تجارة الصمغ واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وموانئ مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى.

واتخذ التجار العرب من بعض نقاط على الساحل مراكز لهم يوغلون فيها بسلعهم وبضائعهم في قلب القارة الأفريقية حتى وادي النيل على الأقل.

وفي الألفي سنة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشةن وبلغت هذه الهجرات أقصاها بين 1500 ق.م – 3000 ق.م في عهد دولتي معين وسبأ. حمل أهل معين وسبأ لواء التجارة في البحر الأحمر ووصلوا في توغلهم غرباً إلى وادي النيل. ونشطت حركة التجار العرب، خاصةً زمن البطالمة والرومان. وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين (أهل اليمن) مضيق باب

المندب، فاستقر بعضهم في الحبشة وما جاورها من بلاد في السودان الشرقي، وتحرك بعضهم الآخر متتبعاً النيل الأزرق ونهر عطبرة (أتبرا) ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة. واختلط هؤلاء اليمنيون بالحاميين سكان شرق السودان، وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقضي به نظام التوريث المعروف عند الشعوب الحامية وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت.

ويرى بعض المؤرخين من أمثال ريد بول ومصطفى مسعد ويوسف فضل، أن من انتفع بهذا النظام الوراثي من العرب جماعة من الحضارمة - سكان حضرموت - الذين عبروا البحر الأحمر إلى ساحله وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجا المعروفون بالزنافج. ويذكر بول أن هؤلاء الحضارمة (عند العرب الحداربة) الذين استقوروا في إقليم العتابي في الشمال، ثم اضطروا إلى الانتقال جنوباً في القرن الخامس عشر الميلادي، حيث أسسوا مملكة البلو (مملكة بني عامر) في إقليم طوكر.

ومهما يكن من أمر، فإن كسلا بعد ظهورها وتطورها كمركز تجاري في قلب الشرق ورثت هذه التجارة بكل صادراتها ووارداتها، فبعد ازدهارها وانتعاشها كمدينة استراتيجية، أصبحت تخرج منها سلع و ثروات البلاد المهمة كالفواكه والماشية والذرة، ويعبر عن طريقها الصمغ والقطن في طريقه إلى البحر الأحمر ومنه إلى خارج البلاد، كما عرفت تجارة الحدود مع أثيوبيا في ذلك الوقت، وكانت تستورد العطور واللبان والبخور والأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية، كما أن خيراتها وثرواتها تخرج منها باستمرار إلى خارجها في الداخل والخارج، لدرجة أن المدينة نفسها عانت كثيراً، فيتمثل أهلها بقول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ *** والماء فوق ظهورها محمول

الفصل الأول

الإسلام في أرض التاكا:

بدأت الدعوة الإسلامية مرحلتها الأولى منذ عبر العرب إلى ساحل البحر الأحمر، الذي لم يكن مجهولاً لديهم. فقد عرف العرب الجانب الآخر من البحر قروناً عديدة قبل الإسلام، فقد كانت الهجرات العربية تعبر البحر الأحمر إلى الساحل الآخر من قبالة جدة أو عبر باب المندب، ومن ثم إلى أثيوبيا ومنها إلى جهة السودان الشرقي. إلا أن هذه الهجرات ازدادت بعد ظهور الإسلام لأسباب دينية وسياسية. فضلاً عن العامل الاقتصادي الذي كان بارزاً في جميع الهجرات.

وقد تلقى الساحل الغربي للبحر الأحمر البواكير الأولى من أفواج الدعوة الإسلامية منذ دخل العرب المسلمون بلاد السودان الشمالي من مصر عبر النيل، ومن الجزيرة العربية عبر أرض التاكا وذلك منذ القرن الأول الهجري. وكان الغرض الأساسي من هذا الانتشار الواسع هو الدعوة إلى الله ابتغاء مرضاته وحسن الثواب.. ثم التجارة والبحث عن الذهب والزمرد في هذه البلاد، بعد بحثهم المستفيض عن خيرات المنطقة وخاصة الذهب في وادي العلاقي، وكان الدعاة والتجار هم الذين حملوا الدعوة.

والثابت أن العرب هم أهم الأمم التي اتصلت ببلاد السودان الشرقي منذ القدم، وأبقاهم أثراً في تلك البقعة، وكان ذلك قبل فجر ا لإسلام بقرونٍ عديدة، كما سبق القول، وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافي ونظام الرياح الموسمية، بالإضافة إلى العامل الأساسي الذي دفع العرب لارتياد سواحل البحر الأحمر الغربية وبعض أجزاء المنطقة الداخلية. وهي ا لأهمية الاقتصادية وما فيها من سلع وثروات، هذا فضلاً عن دور العرب في نشر الدعوة والحضارة الإسلامية في هذه المنطقة التي تعاقبت عليها هجرات عربية إسلامية كان لها الفضل الكبير في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية.

قدوم الإسلام في شرق السودان:

والمعروف أن أولى الهجرات الإسلامية التي قامت في فجر الإسلام هي هجرة العرب المسلمين إلى الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم. ويرجح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة نظراً لمعرفة العرب بأرض الحبشة خلال الاتصالات القديمة. والحبشة في ذلك الحين كانت تمثلها ممكلة أكسوم الحبشية،

التي تمتد من أثيوبيا أو الحبشة إلى داخل الأراضي السودانية، كما أن العاصمة أكسوم يرجح أنها إما داخل السودان أو لا تبعد عنه كثيراً في الأراضي الأريترية، وأن قبائل هذه البلاد كانوا من الأحباش وقبائل البني عامر والحلنقة والهدندوة. وهذا بالطبع يفسر أن الإسلام دخل هذه المنطقة منذ زمن مبكرٍ، بل منذ كانت الدعوة في أطوارها الأولى. ومن المرجح أن المهاجرين الأوائل وعلى راسهم جعفر بن أبي طالب، اسسوا مراكز للدعوة في هذه البلاد بمساعدة العرب المستوطنين هناك، وكان ذلك قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة بنحو عشر سنوات، فكانت بلاد السودان الشرقي وأريتريا وأثيوبيا والصومات أسبق في معرفة الإسلام من المدينةا لمنورة. ومن ثم فلا عجب إن وجدنا أن أهل هذه البلاد صاروا فيما بعد من أكبر المتحمسين لنشر الدعوة الإسلامية، وأصبحت البلاد إسلامية خالصة.

ومع ازدهار الإسلام، كدين ودولة وازدياد النشاط البحري في البحر الأحمر، توافدت مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من الجزيرة العربية ومصر لإنشاء مراكز عربية إسلامية ثابتة في شرق السودان.

الفقهاء ورجال الصوفية :

سبق القول إن الدعاة والتجار هم الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية، ثم أخذ الفقهاء - من بعد - ورجال الصوفية يشرحون الدعوة للناس في شرق السودان بين قبائل البجا وعلى رأسهم الهدندوة والبني عامر والحلنقة.. وكانت أقوام من هوازن وربيعة وجهينة وبني الكنز هي التي ظهر من بطنها علماء جهبذة وفقهاء، وبفضلهم حظيت علوم الدين بنصيب وافر من العناية والخدمة. وقد عني أهلها بكتاب الله حفظاً وتجويداً وتفسيراً. فقد كان حظهم منها كبيراً، وكان نصيب اللغة العربيةو جزيلاً وافراً. وازدهرت العربية وعلومها على أيديهم، وتركت أثرها القوي في المنطقة إلى يومنا هذا. وصارت سواكن كجزيرة عربية على ساحل البحر الأحمر، ومن بعد ذلك كسلا وسنكات وبعد فترة من الزمن، وبعد ازدهار الطريقة الختمية صارت هذه المناطق كعبة المعرفة ويأتي إليها طلاب العلم من الأماكن النائية لشهرة علماء هذه البلاد وتفقههم في الدين. وقد حملت مساجد هذه البلاد أسماء الخلفاء الراشدين. كما انتشر في هذه البلاد شيوخ الصوفية ومنها الختمية (الميرغنية) والقادرية والأحمدية وغيرها.

البجا والعرب :

إن العرب هم الذين أطلقوا كلمة (البجا) على الشعوب الحامية التي تسكن الصحراء الشرقية ما بين النيل والبحر الأحمر، وتمتد أوطانهم من جنوبي مصر في الشمال إلى حدود الحبشة في الجنوب، وهم ما يعرفون الآن باسم البشاريين والهدندوة والأمرأر والبني عامر. وفي زمن الخليفة العباسي المأمون (813-338) وبعد أن كثرت غاراتهم على جنوبي مصر أرسل المأمون قائده عبدالله بن الجهم سنة 232هـ (831م) الذ كانت له مع البجا وقائع انتهت بموادعتهم، وكتابة عقد بينه وبين رئيسهم جكنون بن عبدالعزيز ومن أهم شروطه:

- أن تكون بلاد البجا من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكاً للخليفة، وأن جكنون بن عبدالعزيز وأهل بلده عبيد لأمير المؤمنين على أن يبقى جكنون ملكاً عليهم.
- أن يؤدي ملك البجا الخراج كل عام مائة من الإبل أو 300 دينار لبيت المال.
- يحترم البجا الإسلام ولا يذكروه بسوء، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً حراً أو عبداً في أرض البجا أو في مصر أو النوبة، وألا يعينوا أحداً على المسلمين.
- إذا دخل أحد المسلمين في بلادهم للتجارة أو الإقامة، أو مجتازاً للحج فهو آمن لآخر حدهم.
- إذا دخل البجا صعيد مصر مجتازين، أو تجاراً لا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدائن أو القرى.
- ألا يهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر.
- وعلى جكنون أن يسمح بدخول عمال أمير المؤمنين بلاد البجا لقبض صدقات من أسلم من البجا.

وهذايوضح أن التسرب العربي جنوبي مصر لم يشمل النوبة فقط، بل شمل أرض البجا كذلك، وأن انتقال العرب باستمرار ببين وطنيهما كان أمراً مألوفاً في العصور الوسطى. ويختلف هذا العقد الذي وقعه ملك البجا جكنون بن عبدالعزيز مع عبدالله بن الجهم كثيراً عن عقد عبدالله بن أبي السرح مع ملك النوبة قاليدرون في معاهدة البقط.

وموضـع الأهميـة هنـا أن بـلاد البجـا حتـى (مصـوع) أضحـت جـزءاً مـن الدولـة الإسـلامية، ويطبـق عليهـا شروط البـلاد التـي تفتـح عنـوةً، بدليـل فـرض الخـراج، ثـم أن شرط عـدم التعـرض للمسـلمين بـأذى سـواء في بـلاد البجـا أو النوبـة، فضـلاً عـن شرط حفـظ المسـاجد القائمـة فعـلاً في بـلاد البجـا، وجمـع صدقـات مـن أسـلم مـن البجـا دليـل عـلى دخـول الإسـلام في تلـك البـلاد وإقامـة بعـض المسـلمين بهـا.

فكيف إذن شق الإسلام طريقه إلى أرض البجا:

مـن الواضـح أن جماعـات عربيـة وخاصـة مـن بنـي جهينـة نزحـت إلى هـذه الجهـات للتجـارة عقـب الفتـح العـربي لمصر، وليـس مـن المسـتبعد أن ينـشر أفرادهـا الإسـلام بصفـة جزئيـة في النصـف الأول مـن القـرن الأول الهجري(منتصـف ا لقـرن السـابع الميـلادي). وفي روايـة لابـن حوقـل، أن أفـراداً مـن البجـا أسـلموا إسـلام تكليـف وضبطـوا بعـض بعـض شرائع الإسـلام، وظاهـروا بالشـهادتين ودانـوا ببعـض الفرائـض (في كتابـه: كتـاب صـورة الأرض).

ولهذا سامحهم عبدالله بن سعد بن أبي السرح ولم يحاربهم.

إلا أننـي عنـد رأي أيضـاً أن البحـر الأحمـر كان هـو الشريـان الطبيعـي للهجـرات العربية مـن الجزيـرة العربيـة قبـل وبعد الإسـلام.

ويقـال أيضـاً إن جماعـات مـن الأمويـين لجـأت إلى بـلاد البجـا في منتصـف القـرن الثـاني الهجـري (الثامـن الميـلادي) هربـاً مـن مذابـح العباسـيين.

ذلـك أن مـروان بـن محمـد، آخـر خلفـاء بنـي أميـة، كان قـد انهـزم أمـام العباسـيين في موقعـة الـزاب (أحـد فـروع نهـر دجلـة في العـراق) في العـام 132هــ - 750م ثـم انسـحب إلى الشـام ومنهـا إلى صعيـد مـصر (في قريـة بوصـير) وهـو في طريقـه إلى السـودان. إلا أن صالـح بـن عـلي. قائـد الجيـش العبـاسي، ظفـر بـه هنـاك حيـث قتـل، وفـر أبنـاؤه وأصحابـه إلى داخـل السـودان. ونذكـر قبائـل كثـيرة أنهـا تنتمـي إلى الأمويـين، ومنهـم الفونـج الذيـن كونـوا دولـة إسـلامية في السـودان عاصمتهـا سـنار في العـام 1504م.

واسـتقرت جماعـات مـن الأمويـين أيضـاً في جهـات شرق السـودان، وانتـشرت حتـى ينـاء باضـع (جزيـرة الريـح): (انظـر كتـاب المسـعودي (مـروج الذهـب ومعـادن الجوهـر).. وكذلـك ابـن حوقـل: المصـدر السـابق، وأيضـاً انظـر

Paul A.A. history of the Beja Tribes of the Sudan

وفضلاً عن هذا فإن الأبحاث الأثرية (الآركيولوجية) أثبتت وجود جاليات إسلامية في منطقة خور نبت الواقعة على مسافة 70 ميلاً غربي سواكن (وهذه المنطقة هي الأرض الفسيحة الممتدة إلى بلاد كسلا الحالية)، إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثاني الهجري 760م. وهذا التاريخ يشير إلى بداية تاريخ قيام الدولة العباسية، اي بنحو عشر سنوات من قيامها (750)، وهي فترة خلافة الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور. ودل البحث الأثري كذلك على وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخ بنائه إلى العام 218هـ - 831م، وهذه هي تقريباً نهاية فترة الخليفة المأمون، أو بداية خلافة أخيه المعتصم الذي خلف أخاه المأمون (218-227هـ) وهما من أبناء الخليفة هارون الرشيد.

ويرى بلوس في كتابه (قصة سواكن) أو (تاريخ سواكن)، أنه بعد الفتح العربي لمصر هاجرت جماعات عربية على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر واستقرت في أرض البجا واختلطت بهم وتزوجت من بناتهم على الرغم من أن موجة الفتوح الإسلامية كانت لا تزال على شدتها على طول ساحل البحر المتوسط. ومما لا شك فيه أن هذه الجماعات الإسلامية المختلفة تركت لوناً من التأثير فيمن اختلطت بهم من الحلنقة والبني عامر والهدندوة وغيرهم من قبائل البجا الممتدة من البحر ا لأحمر حتى المنطقة الجنوبية الواقعة جنوب كسلا وغربها في منطقة نهر عطبرة، وحتى المنطقة الجنوبية الممتدة في جنوب القضارف. بل إن بعض المجموعات الإسلامية تخلفت في هذه البلاد فتعلمت اللغة البجاوية، لتسهل عليها التعامل مع البجاويين والتأثير فيها. وفي الدليل على ذلك أن زكريا بن صالح المخزومي، من سكان جدة، وعبدالله بن إسماعيل القرشي قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية. والراجح أن وجود الذهب والزمرد في هذه المنطقة الفسيحة كان له الأثر الكبير في اجتذاب القبائل العربية المختلفة إلى أرض البجا والاختلاط بهم. ووصف كثير من المؤرخين العرب هذه المعادن وأماكنها. وزاد الإقبال على هذه المعادن على ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية. فظهر البلاط الخليفي بمظهر العظمة، وبنى الخلفاء قصوراً فخمة، وشاركهم في هذا الولاة والأمراء، وأن يروة الفاطميين وكنوزهم وخاصة ما ظهر منها في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي لدليل واضح على مدى ما علقته الدولة الإسلامية من أهمية على استخراج

المعـادن لتزيـين بلاطاتهـم وقصورهـم.. ومـا زال الاعتقـاد أن سلسـلة الجبـال الطويلـة الممتدة إلى داخـل أراضي الـشرق، وخاصـة جبـال التـاكا، تزخـر بمعـادن نفيسـه.

وقـد ذكـر المـؤرخ اليعقـوبي في كتابـه (كتـاب البلـدان) مواضـع كثـيرة بـأرض البجـا ليـس مـن العسـير تحقيقهـا، غـير أن موضـع الأهميـة فيـما ذكـره هـو إشـارته إلى جماعـات عربيـة إسـلامية كثيرة في مواضـع مختلفـة بـأرض البجـا. وتشـير الروايـات أن نتيجـة الهجـرات العربيـة الإسـلامية المتلاحقـة إلى داخـل أراضي البجـة مـن سـواكن إلى إقليـم التـاكا، التـي وصلـت ذروتهـا إبـان سـلطنة سـنار أو سـلطنة الفونـج الإسـلامية وبالتحديـد في النصـف الثـاني مـن القـرن العـاشر الهجـري (السـادس الميـلادي) هـي ازدهـار الثقافـة الإسـلامية في المنطقـة، فوفـد إلى المنطقـة العلـماء وأئمـة الصوفيـة الذيـن نـشروا الإسـلام بـين القبائـل الوثنية..واتجـه هـؤلاء إلى تعليـم النـاس الفقـه والتوحيـد واللغـة وعلـوم القـرآن مـن تجويـد وقـراءات ونحوهـا، كـما ظهـر علـم الـكلام والتجويـد، عـلى حـين أن الطابـع الصـوفي أو الصـوفي العلمـي معـاً كان غالبـاً على تعليـم الثقافـة الحجازيـة.

واسـتمر انتشـار علـوم القـرآن الكريـم في منطقـة الـشرق بصفـة عامـة، إبـان الحكـم الـتركي للسـودان بعـد العـام 1820م، فظهـرت بـوادر ثقافيـة دينيـة صوفيـة كذلـك، فـكان أول روادهـا الشـيخ الأسـتاذ محمـد عثـمان الختـم (طيـب اللـه ثـراه) الـذي بـدأ رحلتـه مـن الحجـاز إلى مـصر ثـم السـودان حتـى دنقـلا، ومنهـا اتجـه غربـاً عـبر طريـق الأربعـين إلى كردفـان، حيـث وصـل مدينـة بـارا التـي تـزوج منهـا السـيدة رقيـة بنـت جـلاب (أو رقيـة) التـي أنجبـت لـه الأسـتاذ الشـيخ الحسـن (أبـو جلابيـة)، صاحـب كسـلا. ولقيـت الطريقـة الختميـة – أو الميرغنيـة – منبتـاً خصبـاً، فأصبـح شـيوخ الطريقـة الختميـة نـواة التجمـع الصـوفي الـذي أصبحـت لـه صـلات غـير منقطعـة بالحجـاز، وتسربـت الطريقـة الختميـة إلى كل بـلاد شرق السـودان وشـماله ووسـطه، فأصبـح لهـا مريـدون وخلفـاء ومشـايخ يعملـون عـلى نـشر الدعـوة وبسـاطة الديـن السـمح، واتجهـوا إلى تعليـم النـاس الفقـه والتوحيـد واللغـة وغيرهـا مـن العلـوم، وانتـشرت الخـلاوي في هـذه البـلاد، وكان مـن أشـهرها خـلاوي الختميـة في أرض التـاكا وسـواكن وسـنكات وغيرهـا. وظهـر أثـر هـذه الطريقـة واضحـاً في التقريـب بـين الجماعـات، لأنهـا تعمـل عـلى إضعـاف العصبيـة القبليـة وإيجـاد نـوع مـن التعامـل بـين الجماعـات المختلفـة.. مـن ذلـك أن الطريقـة الختميـة كان نواتهـا شـيخ الطريقـة: الأسـتاذ يجتمـع إليـه النـاس ويصبحـون تحـت لـواء الشـيخ أو الأسـتاذ،

وهـي طريقـة واحـدة، وتجمـع الدعـوة شـمل النـاس عـلى اختـلاف قبائلهـم وسـلالاتهم. لذلـك نجـد أن أعـداداً كثـيرة مـن النـاس قدمـوا إلى كسـلا حيـث طـاب لهـم فيهـا المقـام، وكانـوا يجـدون مـن الكـرم وحسـن الضيافـة والمعاملـة مـا كان مـضرب الأمثـال في النخـوة العربيـة والإسـلامية. كـما يرجـع هـذا في الغالـب إلى أن مشـايخ هـذه الطريقـة وخلفاءهـم أظهـروا مـن الصفـات مـا جعـل النـاس يلجـأون إليهـم ويتخذونهـم مـلاذاً في سـاعات الضيـق والعـسرة. كـما أن الحـروب والانقسـامات الداخليـة التـي كانـت تظهـر بـين الحـين والآخـر أوجـدت لـدى النـاس في ذلـك الزمـن رغبـة شـديدة في حيـاة مسـتقرة، مـما دعاهـم إلى الاسـتجابة لدعـوة أولئـك المشـايخ لانتظـام النـاس في سـلك العبـادة، حسـب مـا جـاء في أوراد السـادة المشـايخ، فظلـت سـائدة حتـى اليـوم، الأمـر الـذي يمكـن معـه القـول إن لهـؤلاء المشـايخ يرجـع الفضـل في وضـع الأسـس التـي قامـت عليهـا النهضـة العلميـة والصوفيـة التـي ازدهـرت منـذ القـرن التاسـع عـشر.

والثابـت في تاريـخ السـودان الشـمالي كلـه أن القـرن السـادس عـشر الميـلادي كان عهـد انتقـال مـن المسـيحية المتهدمـة إلى الإسـلام البـدوي عـلى أيـدي جماعـة مـن العلـماء الذيـن وفـدوا مـن البـلاد المجـاورة: الحجـاز ومـصر وغيرهـما، أو مـن الوطنيـين الذيـن أخـذوا العلـم مـن أولئـك العلـماء الوافديـن. لذلـك أيضـاً أخـذ فقهـاء الطريقـة الختميـة ورجـال الصوفيـة يشرحـون تفاصيـل الدعـوة للنـاس وينقلـون غليـه مبادئـه، وينبهـون النـاس إلى مـا يتعـارض في عاداتهـم ومعتقداتهـم مـع الإسـلام. وبـدأ تأسـيس المسـاجد، وكانـت أقـدم تاريخـاً مـن الخـلاوي ومسـاجد العلـم. وقـد يكـون مـن رجـال الصوفيـة ومشـايخها في هـذه المنطقـة أفـراد مـن ذوي الجـاه واليسـار يوسـعون عـلى أفـراد القبائـل بالصدقـة والمـال والمعونـة، فيقربونهـم إليهـم ويحببـون دينهـم إلى نفوسـهم.

ومـا زال علـماء الآثـار والتاريـخ يبحثـون وينقبـون عـن الآثـار القديمـة الموجـودة في كسـلا في منطقـة مامـان عـلى بعـد مائـة ميـل في شـمالي كسـلا، والآثـار المنتـشرة في المنطقـة الواقعـة قـرب جبـال البـادوب ومنطقـة عـواض في شرقـي جبـال التـاكا – ويعتقـد أنهـا آثـار إسـلامية يرجـع تاريخهـا إلى القـرن الأول الهجـري أو قبلـه، وقـد بحـث في هـذه المنطقـة عـالم الآثـار المعـروف إيفانوفتـش وهـو إيطالبـي مـن أصـل روسي يعمـل الآن في جامعـة نابـولي بإيطاليـا، وقـد بحـث كثـيراً في هـذه المناطـق، كـما أن العـالم المـصري بروفيسـور مصطفـى شـبحة أسـتاذ الآثـار في جامعـة القاهـرة وأسـتاذ التاريـخ القديـم والآثـار في جامعـة أم درمـان

الإسـلامية زار منطقـة كسـلا قبـل أكـثر مـن عشريـن عـاماً وعـثر عـلى آثـار تاريخيـة مهمـة توضـح قـدم الحضـارة في كسـلا ودخـول الإسـلام المبكـر في أرض التـاكا التـي يرجـح أن ذلـك كان في القـرن الأول الهجـري (السـابع الميـلادي).

الفصل الثاني

كسلا في التاريخ الحديث:

دخلت كسلا التاريخ الحديث مع دخول السودان هذا العصر - والعصر الحديث للسودان كما أجمع المؤرخون - هو بداية دخول الأتراك للسودان في زمن والي مصر محمد علي باشا العام 1821م. وكان إقليم التاكا (كسلا) من أوائل الأقاليم التي انضمت للحكم التركي في زمن محمد علي باشا، بل أصبح هذا الإقليم وعاصمته كسلا إحدى مديريات السودان التي قسمت في زمن الأتراك.

خلف أحمد باشا أبو ودّان خورشيد باشا حكمداراً للسودان العام 1838م، وحزن الأهالي لفراقه كثيراً. ودوّن لنا الشيخ أحمد ود الحاج، كاتب الشونة، في مخطوطته ما نصه: (وتجهز بكامل ما لديه ونزل بالمركب وصعب ذلك على الأهالي جميعاً وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع حتى قيل إن الشيخ عبدالقادر هجر نفسه من الأكل والشرب يوماً حزناً على فراقه).

كان أكثر نشاط قام به الحكمدار الجديد أحمد باشا أبو ودّان هو فتحه لإقليم التاكا (كسلا)، فسار على راس جيش إلى شندي ومنها اتجه شرقاً إلى قوز رجب وسلمت له بعض القرى دون مقاومة. ولكن عندما توغل في منطقة خور القاش وأرضه الوعرة ذات الغابات قاومه الهدندوة، ولكن كان لا قبل لهم بالأسلحة النارية فطلبوا الصلح، وأقام أحمد باشا معسكره في المكان الذي عُرف باسم (كسلا). غير أن القبائل استمرت في الثورة والمقاومة، واستلزم الأمر تسيير حملة أخرى من كسلا تمكنت من الانتصار عليهم وانهارت المقاومة، وبدأ أحمد باشا ببناء سد من التراب لتحويل مياه فيضان القاش إلى أراضٍ جديدة لزراعتها. ومنذ ذلك الوقت بدأت مدينة كسلا في الظهور والازدهار، فأصبح إقليم التاكا إحدى المديريات التي قسم إليها السودان في زمن محمد علي باشا، وأصبحت كسلا عاصمة لمديرية التاكا منذ تمكن أحمد باشا أبو ودّان من دخول الإقليم، وأصبحت كسلا شأنها شأن أقاليم السودان الأخرى تُحظى بالاهتمام والتخطيط. وكان محمد علي باشا يريد استغلال إمكانات البلاد الاقتصادية بإدخال طرق جديدة في الزراعة وتربية الحيوان، وبعث بالخبراء لترقية موارد الشرق، ونجحت إقامة السواقي وتجربة زراعة أشجار الفواكه والخضر وتحسين طرق الزراعة والري وزيادة الإنتاج الحيواني. وبدأ خلفاء محمد علي في ولاية مصر من أمثال عباس

وإسـماعيل ومحمـد سـعيد اهتمامـاً بـالإدارة في السـودان. وشـهد عهـد الحكمـدار جعفـر مظهـر إنشـاء ضبطيـات قضائيـة تقـوم بمهـام البوليـس وضبـط الأمـن في المـدن كالخرطـوم ودنقـلا وبربـر والأبيـض وكسـلا وسـواكن ومصـوع. وشـهدت هـذه الفـترة أيضـاً عمرانـاً في هـذه المـدن الكـبرى في السـودان منـذ ذلـك الوقـت، واهتـم الأتـراك بزراعـة القطـن في دلتـا القـاش، والـذرة في كسـلا.

كـما شـهدت حكمداريـة إسـماعيل أيـوب العـام (1873م) نهضـة تعليميـة في البـلاد، حيـث أنشـئت خمـس مـدارس ابتدائيـة كان لكسـلا نصيـب منهـا. ودونـت لنـا خطابـات إسـماعيل للحكمـدار ماهيـات شـهرية للعلـماء والمدرِّسـين في كثـير مـن المسـاجد التـي تـدرِّس العلـوم الدينيـة، وكذلـك ربـط كميـات مـن الـذرة لغـذاء الطلبـة فيهـا.. وربطـت كل المـدن - بمـا فيهـا كسـلا – بخطـوط التلغـراف مـع بعضهـا وبمـصر. (لا أدري موقـع هـذه المدرسـة الابتدائيـة بالضبـط، وربمـا تكـون في موقـع مدرسـة كسـلا الأميريـة الأوليـة في منطقـة الـكارة أو حـي الحلنقـة، وجـاء الإنجليـز وجـددوا فيهـا. أمـا مدرسـة كسـلا الأميريـة الوسـطى فقـد شـيدها الإنجليـز في وقـت لاحـق.

وهنـاك اختـلاف بـين النـاس حـول هـذه المسـلة الطويلـة الموجـودة حاليـاً داخـل حامية كسـلا: هـل تـم تشـييدها في زمـن الأتـراك؟ أم في زمـن الحكـم الثنـائي (الإنجليـزي – المصري)؟ ولأي غـرض تـم بنـاء هـذه المسـلة؟ هـل بغـرض تخزيـن الغـلال - الـذرة والسمسـم وغيرهما لوقـت الحاجـة؟ أم بغـرض التجسـس ورصـد حـركات العـدو مـن جهـة الـرق وغـير ذلـك؟.. وهـذه المسـلة موجـودة حتـى اليـوم داخـل مدينـة كسـلا لا يوجـد مثلهـا في السـودان - تقريبـاً إلا في سـوبا عاصمـة مملكـة علـوة المسـيحية قبـل العـام 1504م – لكـن وضـح مـن الدراسـة أن المسـلة تـم تشـييدها في زمـن ممتـاز باشـا الـذي دخلـت زراعـة القطـن في عهـده لتسـتعمل كمدخنـة ترتبـط بإنتـاج القطـن، كـما كان لهـا دور آخـر مرتبـط بالأمـن ومهـام عسـكرية تتعلـق برصـد الأعـداء ومراقبـة الحـدود مـن جهـة الـشرق.

ثورة الجهادية السود في كسلا العام 1865م:

بـدأت كسـلا تألـف حيـاة التمـرد والعصيـان والثـورة عـلى الظلـم منـذ عهـد الأتـراك. ففـي العـام 1865 قامـت في كسـلا ثـورة الجهاديـة عـلى أثـر ثـورة سـبقتها نشـبت في مدينـة الأبيـض في العـام 1864م. ذلـك أنـه ظهـرت بـوادر للتمـرد بـين الجدنـود السـودانيين غـير النظاميـين في الأبيـض وخرجـوا مـن ثكاتهـم متوجهـين نحـو مـصر، وفشـل حاكـم دنقـلا

في القبـض عليهـم فحوكـم لإهمالـه، ولم يعتقـل هـؤلاء المتمـردون إلا بالقـرب مـن وادي حلفـا. إلا أن تمـرداً أخطـر حـدث في كسـلا العـام 1865م عندمـا ثـار الجهاديـة السـود ضـد الحكومـة، لتأخرهـا في دفـع مرتباتهـم، ولسـوء معاملـة القـواد الأتـراك للجنـود السـود. ومـما سـاعد عـلى قيـام هـذه الثـورة عـدم التدريـب العسـكري الـلازم، وافـترق الجنـد عـن الضبـاط لأشـهر عديـدة لجبايـة الضرائـب. وقـد شـكلت هـذه الثـورة خطـراً كبـيراً عـلى سـلطة الحكومـة، إذ سـيطر الثـوار عـلى مدينـة كسـلا مـدة سـتة وعشريـن يومـاً حبسـوا الأهـالي في بيوتهـم وقتلـوا فيهـا عـدداً مـن ضبـاط وجنـود الحكومـة ولم تتمكـن الحكومـة مـن قمـع هـذه الثـورة إلا بعـد أن اسـتعانت بالسـيد الحسـن الميرغنـي، مؤسـس الطريقـة الختميـة عـن والـده الأسـتاذ محمـد عثـمان الختـم.

وكان السـيد الحسـن الميرغنـي يتمتـع بنفـوذ دينـي قـوي بـين الجنـود وفي المنطقـة كلهـا أيضـاً، وكذلـك الضابـط آدم بـك العريفـي، الـذي اشـتهر بالبسـالة وحسـن السياسـة، وكان محبوبـاً بـين الجهاديـة السـود، فاجتمـع العريفيـث بقـادة الثـوار وطلـب منهـم إلقـاء سـلاحهم ففعلـوا ذلـك بعـد أن أكـد لهـم أن الخديـوي سـيعفو عنهـم، إلا أن الحكومـة غـدرت بالثـوار فقتلـت بعضهـم رميـاً بالرصـاص، وحبسـت آخريـن حبسـاً مؤبـداً مع الأشـغال الشـاقة. إلا أن الخديـوي إسـماعيل نجـح في النهايـة في القضـاء عـلى حركـة التمـرد في كسـلا بعـد أن كلفـت الدولـة غاليـاً.

كانـت كسـلا جـزءاً مـن تطـور الإدارة والحكـم في السـودان في زمـن الأتـراك، وهـي مرتبطـة تمامـاً بالنظـام المـالي والإداري والقضـائي الـذي يطبـق في العاصمـة والتوجيهـات التـي تـأتي مـن القاهـرة أو الآسـتانة عاصمـة الدولـة العثمانيـة. وعـصر الأتـراك في السـودان فيـه فـترات مـن الطمأنينـة والاسـتقرار، وفيـه فـترات مـن الفـوضى والظلـم، ويختلـف الرجـال الذيـن تولـوا شـؤون البـلاد مـن حكمداريـين ومديريـن وكشـاف، مـن حيـث مقدرتهـم عـلى الإدارة وانسـجامهم وتجاربهـم مـع السـكان، ومـن حيـث نظافـة ثوبهـم وعفـة نفسـهم.

والصـورة التـي تـبرز لنـا وتجـذب أنظارنـا هـي الضرائـب الباهظـة، وسـوء الطريقـة التي تجنـى بهـا، ومـع أن ولاة مـصرفي خطاباتهـم طلبـوا مـن الحكمداريـين في الخرطـوم مراعـاة العدالـة وتجنـب الظلـم، إلا أن حـوادث الرشـوة والاختـلاس وحـوادث التعسـف في جبايـة الضرائـب، أدت إلى حـركات التمـرد والعصيـان في جميـع مديريـات السـودان.. ومـا فتـئ الحلنقـة والهدنـدوة يعلنـون الثـورة والعصيـان في بعـض الفـترات، إلا أنهـا كانـت محـدودة

ولكنها أصبحت ثورة كامنة في النفوس تنتظر من يفجرها بركاناً هائلاً، فكانت الثورة المهدية وظهور بطل من أبطال الشرق وهو الشيخ عثمان دقنة.

وظلت مدينة كسلا سودانية أصيلة رغم محاولات الأعداء إبعادها من السودان وضمها إلى بلاد مجاورة، فظل أبناء كسلا يقاومون هذا التفكير بكل قواهم.. وقاوموا الاعتداء الإيطالي ومحاولات الحبشة المتكررة في ذلك الوقت. وظلت مدينة كسلا عاصمة للشرق كله وتخضع للسلطة المركزية في الخرطوم. كما كان القضاء في كسلا كما هي في المديريات الأخرى تمارس فيه الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية فقط، ويبت المديريون في القضايا الكبيرة، كما شُكِّلت مجالس محلية في مدينة كسلا للنظر في القضايا الصغيرة. وكونت في كسلا في زمن الأتراك ضبطية قضائية تباشر التحقيق في الجرائم وتقديمها للمحاكمة، وضم الجيش جنوداً مصريين وسودانيين، وبدأ العنصر السوداني يتزايد في السنين الأخيرة من العهد التركي حتى كان معظم الحاميات يقوم على حراستها جنود سودانيون قبل اشتعال نار الثورة المهدية.

والتجارة في كسلا ظلت تتبع طرق القوافل التقليدية إلى الحدود الشرقية للسودان، وإلى البحر الأحمر ومن ثم إلى الخارج. وتصدر كسلا الذرة والخضر والجلود، وتستورد المنسوجات القطنية والروائح العطرية والخرز وغيرها. واستمرت الخلاوي تؤدي رسالتها في التعليم الديني وحفظ القرآن الكريم وتجويده. كما ظلت الطرق الصوفية - الطريقة الختمية - تؤدي دورها المناط به في تبليغ الدعوة إلى الله وابتغاء مرضاة الله، يرشد مشايخها الأهالي ويؤثرون عليهم.. والنعرة القبلية ظاهرة في المجتمع إلا أن الإدارة في البلاد كلها كانت مركزية ممعنة فيها.

لقد كان من ضمن العوامل المهمة في نجاح الثورة المهدية في السودان حالة مصر السياسية آنذاك. ففي الوقت الذي اشتعلت فيه الثورة في جزيرة أبا، كانت حركة أحمد عرابي في مصر قد بدأت وتمكنت في آخر الأمر من السيطرة على حكومة الخديوي توفيق. ولأن قوتهم كانت ترتكز في الدرجة الأولى على موالاة الجيش لهم فما كانوا ليسمحوا بإرسال نجدات لإطفاء الثورة في السودان. وشغلوا عن أحداث المهدية بالتدخل الأوروبي وبمناوأة الخديوي.

وأخيراً تم للإنجليز احتلال مصر، بينما الثورة في السودان تكسب مزيداً من الأنصار وتنتصر في كل جولاتها مع جند الحكومة. ورأت إنجلترا آنذاك أن مصلحتها

تقتضي عدم التدخل في مسألة السودان لأنها لا تريد مشاكل وإرتباكات أكثر مما لديها، خاصة أنها كانت تود الخروج من مصر بعد الاطمئنان على أحوالها وإجراء اتصالات ضرورية وضمان طريق تجارتها الامبراطورية. لم يكن هذا رغبة منها في حرية مصر، ولكن مصلحتها اقتضت ذلك، فمنتجات مصانعها لها سوق رائجة في كل أنحاء العالم والمواد الخام في أنحاء المعمورة تحت تصرفهم. ولم تظهر منافسة لها في هذا الصدد من جانب الدول الأوروبية الأخرى، وأسطولها لا يزال سيد البحار، ولها من الممتلكات والمستعمرات ما لا تغيب الشمس عنه. ولم تظهر بوادر لتكالب الاستعماري على أفريقيا بعد بشكل واضح في نظر رئيس وزرائها مستر جلاد ستون. وفوق كل ذلك فإن مصر كانت تعاني الإفلاس آنذاك وقد تركها الخديوي إسماعيل مثقلة بالديون.

ولكن في التسعينات من القرن التاسع عشر تغيّر الوضع، وبدأت الدول الأوروبية وخاصة ألمانيا تنافس إنجلترا في الصناعة، وفقدت بذلك مركزها المريح في هذا الصدد وارتبط توسع التجارة في المنتجات الصناعية بالتوسع في المستعمرات. وبدأت هذه الأقطار الأوروبية من قواعدها على سواحل أفريقيا تتوغل للداخل في اكتساب المزيد من الممتلكات ورأت إنجلترا من مصلحتها أن تغيّر سياستها نحو مصر وأن تترك فكرة الجلاء عنها، وتعلن عن سياسة الاحتلال الدائم وذلك لحماية وادي النيل كله لإبعاد فرنسا وألمانيا عن أفريقيا، وكذلك إيطاليا التي أصبحت ترنو ببصرها نحو كسلا. فبدأت تسيطر على بريطانيا فكرة تكوين إمبراطورية في أفريقيا تمتد من الإسكندرية شمالاً إلى راس الرجاء الصالح جنوباً. كما كانت فرنسا ترمي إلى إنشاء إمبراطورية هي الأخرى تمتد من السنغال والمحيط الأطلسي غرباً إلى الصومال والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقاً. وكانت ألمانيا هي الأخرى قد بدأت التدخل في منطقة البحيرات ا لعظمى والكنغو وأنجولا وموزمبيق، بينما أصبحت إيطاليا هي الأخرى تتجه نحو السيطرة على بلاد شرق أفريقيا - الصومال والحبشة وأريتريا - كما كانت لها مطامع إقليمية في كسلا وما حولها.

لذلك كان الخطر على السودان ووادي النيل آنذاك من ناحيتين: من أيطاليا وهي تحتل إريتريا، ومن فرنسا في أفريقيا الإستوائية الغربية. وكانت بريطانيا تخشى أن التوسع الإيطالي من كسلا غرباً ربما يصل إلى نهر عطبرة، أحد روافد نهر النيل، أو إلى مجرى النيل الرئيسي، وبحجة السيطرة على كل الأراضي التي تحتلها قبيلة ما ستصل إيطاليا إلى مجرى النيل.

تحركـت جيـوش كتشـنر مـن مـصر لاسـترجاع السـودان في سـنة 1896م، ونجحـت بريطانيـا في أن تقنـع إيطاليـا بنظريـة أن السـودان لا يـزال جـزءاً مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة في العـرف الـدولي وتابعـاً لمـصر، وسـمحت لإيطاليـا بإحتـلال كسـلا مؤقتـاً لتأمـين مراكـز في أريتريـا بـشرط أن تسـلمها للجيـش المـصري عندمـا يحـين الوقـت لاسـترجاع السـودان. أمـا فرنسـا فاسـتمرت في تنفيـذ مخططهـا وأطماعهـا تجـاه وادي النيـل، فتقدمـت حملتهـا إلى أعـالي النيـل، حيـث احتلـت فشـودة في أعـالي النيـل، وذلـك في الوقـت الـذي كانـت تتقـدم فيـه قـوات كتشـنر نحـو أم درمـان.

وتوتـر الوضـع بـين الدولتـين بريطانيـا وفرنسـا حتـى كادت الحـرب تشـتعل بينهـما، إلا أ فرنسـا قـدرت الموقـف بأنهـا لا تسـتطيع مواجهـة دولتـين أوروبيتـين في وقـت واحـد وإحداهـما: ألمانيـا، عدوتهـا التقليديـة، وبريطانيـا، منافسـتها الجديـدة في الاسـتعمار في أفريقيـا، فقـررت الانسـحاب لبريطانيـا مـن فشـودة، وهـو الانسـحاب الـذي أدى إلى عقـد الوفـاق بـين بريطانيـا وفرنسـا العـام 1904م، وانضـمام روسـيا إلى هـذا الحلـف عـام 1907م. حيـث دخلـت هـذه الـدول الثـلاث الحـرب العالميـة الأولى باسـم الحلفـاء ضـد ألمانيـا والنمسـا وتركيـا والمجـر في العـام 1914م وعـرف هـذا المعسـكر الأخـير باسـم دول الوسـط.

أمـا بالنسـبة لإيطاليـا في كسـلا، فكانـت الظـروف مغايـرة : فقـد نشـبت الحـرب بـين إيطاليـا والحبشـة في العـام 1896م، حيـث انتـصرت الحبشـة عـلى إيطاليـا في موقعـة عـدوة الشـهيرة في يـوم 1 مـارس مـن العـام 1896م، واسـتنجدت إيطاليـا بإنجلـترا ليقـوم الجيـش المـصري بمنـاورة عسـكرية مـن سـواكن أو حلفـا ليجـذب أنظـار الخليفـة عبداللـه التعايـشي بعيـداً عـن كسـلا، وليمنـع إتحـاد دولتـين أفريقيتـين هـما السـودان والحبشـة مـن القضـاء عـلى نفـوذ دولـة أوروبيـة، هـي إيطاليـا. ورأت السياسـة الإنجليزيـة آنـذاك أن تلبـي النـداء، ولكـن كي تصطـاد عصفوريـن بحجـر واحـد حسـب تعبـير اللـورد سالسـبوري، وزيـر خارجيـة بريطانيـا ورئيـس وزرائهـا، وذلـك بـأن تقـوم بحملـة اسـترجاع السـودان إلى دنقـلا، وفي الوقـت نفسـه تعـاون إيطاليـا في محنتهـا. وقـد حفظـت إيطاليـا هـذا الجميـل لبريطانيـا واسـتمرت الصداقـة البريطانيـة الإيطاليـة حتـى نهايـة الحـرب العالميـة الأولى، بـل اشـتركت إيطاليـا مـع بريطانيـا وحليفاتهـا فرنسـا وروسـيا في الحـرب العالميـة الأولى بموجـب اتفاقيـة لنـدن العـام 1915م بـين بريطانيـا وإيطاليـا. إلا أن هـذا الوضـع اختلـف في الحـرب العالميـة الثانيـة، إذ اشـتركت هـذه المـرة إيطاليـا مـع ألمانيـا واليابـان في حلـف عـرف باسـم دول المحـور الثـلاثي

(ألمانيا – إيطاليا – اليابان) ضد الحلفاء، بريطانيا وفرنسا، ثم روسيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتحتل إيطاليا مدينة كسلا في أثناء الحرب العالمية الثانية مرة أخرى العام 1941-1942م.

صدرت الأوامر لكتشنر بأن يتحرك ويبدأ عملياته المؤدية للاسترجاع خاصةً عندما علم الإنجليز باندحار إيطاليا في موقعة عدوة. ففي اليوم التالي بدأت العمليات الحربية لاسترجاع السودان حتى وصلوا إلى بربر. وباحتلال بربر انسحب الأنصار من تلال البحر الأحمر، وبذلك تمكنت فرقة من الجيش المصري أن تصل إلى بربر من سواكن. وتحركت قوة مصرية من سواكن نحن نحو كسلا، ووصلتها في 20 ديسمبر العام 1897م واستلمتها من الطليان، حسب الاتفاق السابق، وانتهت العام 1897م. وكانت قوات كتشنر تحتل السودان الشمالي حتى مدينة بربر. وفي الشرق احتلت كسلا، وكانت طرق مواصلاتهم للخارج إلى حلفا بالسكة الحديد، وإلى سواكن بطريق القوافل التقليدي. وهذا يوضح بجلاء أهمية كسلا بالنسبة للدول الأوروبية الكبرى من النواحي السياسية والاقتصادية والإستراتيجية.

العلم المصري وحده يرفع في مدينة كسلا:

عبر كتشنر النيل إلى الخرطوم، وفي خرائب سراي الحكمدار (القصر الجمهوري الآن) أُقيمت صلاة على روح غردون ورفع العلمان المصري والإنجليزي. وكانت هذه مفاجأة لمن حضروا رفع العلمين. وكان الجيش المصري حين تقدم نحو دنقلا فاتحاً، كانت تسمى هذه العملية استرجاعاً لأملاك الخديوي في مصر التي فقدها بقيام الثورة المهدية، ولم يعترف بهذا الفصل دولياً، وقد رفع العلم المصري وحده في دنقلا وبربر وفي كسلا.

إلا أن الحال قد تغير بعد واقعة عطبرة في أبريل العام 1898م حيث احتل العلم الإنجليزي مكانه جنباً إلى جنب مع العلم المصري، ذلك أن اللورد سالسبوري، رئيس وزراء بريطانيا، قد بعث برسالة إلى اللورد كرومر في 3 يونيو العام 1898م ينبئه فيها بأنه تسلم رسالة منسلطان تركيا ظاهرها الود وفي ثناياها تلميحات تشير إلى أنه سوف يحرج موقف بريطانيا في مسألة السودان بما له من نفوذ شرعي على الخديوي، ويرجح سالسبوري أن فرنسا كانت وراء هذ ا الموقف. وتفادياً لهذا الحرج الذي تشير إليه تركيا يرى سالسبوري أن يرفع كتشنر العلمين الإنجليزي والمصري جنباً إلى جنب

حين يحتل عاصمة المهدي ويرفعهما معاً في بقية أجزاء السودان. ويعتبر هذا إعلاناً بأن الفتح تم على يد الحكومتين البريطانية والمصرية وبقواتهما المشتركة، وبذلك يصبح لإنجلترا حق قانوني بموجب اشتراكها في العمليات الحربية من ناحيتين:

ناحية الفرق الإنجليزية التي أسهمت في حرب استرجاع السودان، والناحية المالية التي قدمتها إنجلترا للصرف على نفقات الحملة، التي كانت معتبرة ديناً على الحكومة المصرية، إلا أنها صارت إسهامات مالية منها.

كان على كرومر، المندوب السامي البريطاني في مصر، أن يضع هيكلاً للإدارة الجديدة في السودان على اساس اشتراك الدولتين الإنجليزية والمصرية معاً. ووضع كرومر بمعونة المستشار القضائي الإنجليزي للحكومة المصرية نص اتفاقية بين إنجلترا ومصر تدار بموجبها البلاد، وبعث بها لإنجلترا للتصديق النهائي عليها. وفي أثناء زيارته للسودان في 4 يناير العام 1899م خطب كرومر في جمهور من السودانيين في أم درمان قائلاً: (ترون أمام أعينكم الآن ذينكم العلمين يرفرفان من أعلى هذا المنزل، وفي ذلك دلالة واضحة على أنكم ستكونون تحت حكم جلالة ملكة بريطانيا وخديوي مصر في المستقبل). وتم التوقيع على اتفاقية الحكم الثنائي في 19 يناير 1899م من كرومر ممثلاً لبريطانيا، وبطرس غالي باشا وزير خارجية مصر ممثلاً للخديوي.

ومنذ ذلك الوقت من العام 1898م أصبحت كسلا تحت سيادة الحكم الثنائي، وظلت كذلك حتى نال السودان استقلاله في العام 1956م، ما عدا فترات قليلة كانت إيطاليا قد احتلت فيها مدينة كسلا العام 1940م في أثناء الحرب العالمية الثانية. وكانت أعداد من السودانيين تتعاون مع الإيطاليين ضد الإنجليز، على أمل أن تساعدهم إيطاليا على نيل الاستقلال من الاستعمار البريطاني بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. إلا أن انتصار بريطانيا وحلفائها في هذه الحرب وهزيمة إيطاليا أدى إلى نصب بريطانيا لأولئك الذين تعاونوا مع إيطاليا على المشانق.. منهم عبدالمجيد سلطان في قرية الختمية بكسلا الذي اتهمته بريطانيا بالتجسس عليها لحساب إيطاليا، حيث وقع عليه حكم الإعدام. وكان من السهل على المستعمرين أ ن يلصقوا تهمة الخيانة العظمى على الوطنيين الشرفاء الذين يرون أن محاربة المستعمرين وطردهم من بلادهم يمكن أن تتم بأية وسيلة من الوسائل، إلا أن المستعمر سرعان ما يلجأ إلى سياسة القمع والتصفية بدعوى الخيانة العظمى..هكذا كانت تفعل فرنسا في مستعمراتها مثل ما

حدث في الجزائر مثلاً، وبريطانيا مثلما كان يحدث في مصر والسودان. فأنور السادات مثلاً كان يتعاون مع الألمان، ويرى فيهم وسيلة من وسائل الخلاص من المستعمر البريطاني، ولايرى غضاضة في ذلك، وقد تعرض للسجن مرات عديدة، وعانى كثير من قهر السلطات البريطانية في مصر حتى قيام ثورة يوليو العام 1958م.

الحركة الوطنية ونمو الوعي القومي:

وضع اللورد كرومر نصوص الحكم الثنائي على أساس السيطرة الإنجليزية وإبعاد الامتيازات الأجنبية والسيادة التركية، ولم يبق إلا تنفيذ هذه السياسة عملياً على إدارة السودان. ورأى الإنجليز أن يرشحوا كتشنر نفسه كأول حاكم عام على السودان مع احتفاظه بوظيفة سرداد الجيش المصري. ورأوا أيضاً أن لا ينشأ جيش جديد لحماية السودان، بل يظل الجيش المصري نفسه حامياً له مع وجود قوة إنجليزية، كما هي واردة بنصها في وثيقة الحكم الثنائي مطلقة.. ولكن بالتعليمات السرية بين كرومر وكتشنر لا يستطيع الحاكم العام أن يبت في أمر له أهمية إلا بموافقة الحكومة البريطانية عن طريق مندوبها في مصر. رأى كتشنر أن يكون معاونوه سواء في الإدارة المركزية أو المديريات من الضباط الإنجليز الذين يعملون تحت إمرته في الجيش المصري، وعيّن كل رؤساء المصالح ومديري المديريات في الأقاليم منهم، وعزز كل مديرية بمفتشين من هؤلاء الضباط أيضاً. أما إدارة المراكز والمأموريات فقد تركت لضباط الجيش المصري من المصريين ولكن تحت تصرف المفتشين البريطانيين.. وكل هؤلاء يتسلمون مرتباتهم من خزينة مصر بصفتهم ضباطاً في الجيش المصري.

وفي كسلا أصبح مدير المديرية - وهو من الإنجليز بطبيعة الحال - يتمتع بالسلطات التي حددتها إتفاقية الحكم الثنائي، ويعاونه في الأعباء الإدارية مفتشون إنجليز وتحتهم المأمور المصري، وتم التركيز على حامية كسلا ودعمها بأسلحة البنادق والمدافع. وكان اهتمام الإنجليز بحامية كسلا كبيراً لموقعها الحدودي في الجهة الشرقية من البلاد، وربما كانت حامية كسلا في موقعها هذا منذ زمن الأتراك، فأضاف عليها الإنجليز المزيد من الثكنات. وكانت تعليمات كتشنر لمدير المديرية واضحة منها أن القوانين واللوائح والقوانين، بل بالاتصال الشخصي مع ذوي النفوذ من الأهالي. ونادى كتشنر بأنه لابد لكل المفتشين الإنجليز أن يتعرفوا بذوي المكانة والنفوذ في مراكزهم، ويوطدوا علاقات شخصية معهم ويبدون اهتماماً بأشخاصهم وأحوالهم، وبذلك

يتمكنون من التأثير بواسطتهم. كما أكد كتشنر في تعليماته على ترك الناس أحراراً فيما يعتقدون ويتعبدون، وأمر بتشجيع بناء المساجد العامة في المدن وأن لا يسمح ببناء المساجد الخاصة والتكايا والزوايا إلا بترخيص من السلطة المركزية حتى لا تكون هذه مكمناً للشغب والتعصب الديني.

وكان المفتش الإنجليزي، بأوامر من مدير المديرية والحاكم العام، يراقب أعمال المآمير والبوليس من حيث التحقيق الجنائي وحفظ الأمن العام، وتقديم التقارير عن أعمال الموظفين للمدير إذا هم أبدوا عجزاً أو ارتكبوا مظالم أو كانت حياتهم الخاصة مجانبة للأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة. وأشار كتشنر إلى مقاومة الرشوة وتشجيع الأهالي على الزراعة ونقل حاصلاتهم للأسواق، فأنشا المدير ومعاونوه في كسلا الأسواق العامة مها أسواق الخضر والفاكهة، وبدأوا في تخصيص الأراضي الزراعية للخضر والفواكه، وأراض لزراعة الذرة في موسم الأمطار... ومنذ ذلك بدأت تظهر في كسلا ملامح أراضي غرب القاش التي أصبحت جنة من حيث الحدائق والبساتين، وهي التي تزدان بها مدينة كسلا رونقاً وبهاءً حتى يومنا هذا.

وكان مدير المديرية – بصفته ممثلاً للحاكم العام – يشرف إشرافاً مباشراً على الشؤون الفضائية والتعليمية والصحية وغيرها. ولا يتم إنشاء المدارس والمستشفيات أو المشاريع الزراعية إلا بموافقته. وقد أنشأ الإنجليز مستشفى كسلا الحالي بكل أقسامه، حيث يتم العلاج بالمجان. وفيه أطباء مختصون وعدد كبير من المساعدين والممرضين والفراشين، حيث كانت العناية في هذا المستشفى كبيرة من ناحية ا لاهتمام بالمرضى ونظافة المكن وتوفير الأدوية. ويوجد في هذا المستشفى من زمن مبكر من القرن العشرين صيدلية لصف الدواء ومعمل للفحص وعنابر للمرضى. كما توجد شفخانات في عدد كبير من قرى ومحليات مدينة كسلا. وأذكر أنه في شفخانة الختمية – وهو ما يطلق عليه المركز الصحي اليوم – يوجد علاج الباطنية والرمد والتراكوما والجروح، وفيه مساعد طبي يساعده عدد من الممرضين والفراشين، وهو يوفر جهداً كبيراً، ولا يذهب الناس لمستشفى كسلا إلا في الحات المستعصية، أو تلك التي تحتاج إلى الطبيب الإختصاصي.

وفي فترة الحكم الثنائي ظهرت في كسلا المدارس الأولية منها مدرسة كسلا الأولية (الأميرية الأولية) في منطقة الكارة ولا تبعد كثيراً من منطقة الحلنقة في كسلا. كما انشئت

مدرسة الختمية الأولية - مدرسة للبنين وأخرى للبنات – وهناك مدرسة الميرغنية (أ) في الميرغنية، ومدرسة الميرغنية (ب) في أول منطقة أبو خمسة (تقابل مصلحة الجمارك)، كما أنشأوا مدرسة أولية في غرب القاش. وفي فترة متأخيرة من الحكم الثنائي ظهرت المدارس الوسطى وكان يطلق عليها المدارس الابتدائية، وأول مدرسة وسطى في كسلا هي المدرسة الأهلية التي أنشأها الأهالي في الأربعينات وعرفت باسم مدرسة المؤتمر، إشارة لمؤتمر الخريجين العام 1938م. ثم تلتها المدرسة الأميرية الوسطى، وهي مدرسة حكومية أنشأها الإنجليز، وكان المتفوقون في هذه المدارس يرسلون للتعليم الثانوي في مدارس وادي سيدنا وحنتوب وخورطقت، أو المدارس الثانوية في الخرطوم مثل أم درمان الأهلية الثانوية أو مدرسة المؤتمر الثانوية أو مدرسة الأحفاد الثانوية.. وكان البعض يكمل تعليمه الثانوي في المدارس المصرية كمدرسة فاروق (مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية)، أو مدارس الأقباط والإنجيلية الثانوية والأمريكان..الخ. وقبل إنشاء المدارس الثانوية المشار إليها كان خريجو المدارس المتوسطة يلتحقون مُباشرةً بكلية غوردون التذكارية.. كما كان هناك التعليم الديني في كسلا، ومن ركائزه الأساسية المعهد العلمي الذي أنشأه السيد الحسن الميرغني في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينيات.

كان على رأس الجهاز المركزي في الخرطوم سكرتيرو الحاكم العام الثلاثة الإداري والقضائي والمالي. فالسكرتير الإداري كان يشرف على الناحية السياسية، ويعمل مديرو المديريات تحت إرشاده. وفي الأقاليم أصبح مفتش المركز الإنجليزي هو السلطة ا لمحلية التي تمثل الحكومة بكل جوانبها، فهو القاضي ورئيس البوليس ومدير الأراضي والخبير الزراعي والاقتصادي وخبير مركزه في التعليم والصحة. ولامتلاكه لكل هذه السلطات وأثره على حياة السكان في جميع النواحي كان له منهم الاحترام المشوب بالرهبة.. كان هذا الحال والوضع الاجتماعي والسياسي في مدينة كسلا خلال الفترة 1900-1956م.

والصفحات التالية ستصور الأحوال العامة في كسلا، وتعكس فيها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية حتى أواخر الستينيات وبداية السبعينات من القرن العشرين إن شاء الله.

الفصل الثالث
التعليم والوعي والحركة الوطنية

خلال فترة الحكم الثنائي في السودان 1899-1956م انتهج الاستعمار البريطاني وسائل شتى لتثبيت نفوذه في السودان، ونجحت المؤامرات الاستعمارية في تدعيم سلطانه وسيطرته ردحاً من الزمان، وكان هدف بريطانيا في السودان هو الامتلاك والسيطرة، لذا استغرقت جهود المستعمر لاستعمار البلاد أو استيطانها فترة لا تقل عن الخمسين عاماً شرع خلالها في تركيز وتقوية مركزه خاصة في السنوات الأولى من وجوده في السودان.

لذلك خلت هذه الفترة من حركات المقاومة إلى حين تنظيم صفوفها ومع ذلك ظهرت مقاومة في جهات متفرقة تزعمها رجال الأنصار الذين أعلنوا الجهاد ضد الحكومة ومن هؤلاء علي عبدالكريم في أم درمان العام 1900م، والفكي محمد الأمين في تقلي سنة 1903م، وآدم محمد في سنار العام 1904م.

على أن هذه الحركات كانت ضعيفة ومتفرقة، وبالتالي لم تشكل خطراً رئيسياً على الحكومة الجديدة، إلا أن أهم حركات المقاومة ضد المستعمر في أوائل عهد الحكم الثنائي، التي كانت أشد ضراوة هي ثورة ود حبوبة العام 1908م، كما ظهرت حركات مقاومة في جبال النوبة ومقاومة النوير خلال الفترة من 1900-1920م، ومقاومة الزاندي التي بدأت في العام 1900م واستمرت ردحاً من الزمن يضاف إلى ذلك كله بالطبع جهاد علي دينار في دارفور الذي تمكن من الإستيلاء على الإقليم كله، الأمر الذي جعل الحكومة البريطانية تعترف به سلطاناً على الفاشر العام 1901م.

أما عن كسلا فقد خلت المصادر والروايات من الإشارة إلى ذلك النوع من أنواع الجهاد والمقاومة، ولم تظهر في مطلع القرن العشرين أية حركة من حركات الجهاد، خاصة في السنوات الأولى من حكم الإنجليز للبلاد، فلعل ذلك يعود إلى أن كسلا ما زالت تعاني في ذلك الحين من احتلال الإيطاليين لها في نهاية القرن التاسع عشر، أو لأنها انشغلت لفترة من الزمان نتيجة استمرار الصراع بين الختمية والأنصار الذي بدأ مع قيام حركة الإمام المهدي واستمر حتى ظهور الحكم الثنائي في البلاد.

إلا أن الثابت ان كسلا قد بدأت تتأثر بما كان يجري من أحداث بعد نمو وتطور

الحركة الوطنية في الربع الأول من القرن العشرين، خاصةً بعد نهاية الحرب العالمية الأولى العام 1918م، وانعقاد مؤتمر الصلح في بلريس ـ وظهور حق تقرير المصير للشعوب التي تقع تحت نير ووطأة الحكم الأجنبي، وهو الشعار الذي نادى به ويدرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الحين، ثم ظهور عصبة الأمم المتحدة في العام 1919م.

كما أن الأمر المؤثر والمهم هو أن كسلا بدأت تهتم بنوع آخر من أنواع الجهاد كان أعظم أثراً في تقرير مصير الحكم الثنائي في البلاد، ذلك هو التعليم، إذ أن كسلا بدأت تهتم بتعليم أبنائها وترسلهم إلى الخلاوي والمدارس التي على قلتها في تلك الفترة، الأمر الذي مكن هؤلاء من الانخراط في الجمعيات السرية والعلنية والانضمام إلى الحركة الوطنية التي بدأت تظهر وتنمو وتتبلور بين طبقات المثقفين، مما شكل هاجساً وبعبعاً مخيفاً للسلطات البريطانية في البلاد. وكان الاستعمار البريطاني في السودان قد ركز في سياسته على تخريج صغار الموظفين لمساعدته في الإدارة وليكونوا حلقة الوصل بين السلطة والجماهير، وعلى عكس ما كان يتوقع الإنجليز، فقد شن هؤلاء المتعلمون على مختلف المستويات الهجوم على السياسة البريطانية المحدودة الأهداف واخذوا ينادون بتغيير هذه السياسة واستبدالها بأخرى اكثر إيجابية لتفسح المجال امام المواطنين والمثقفين السودانيين ليشاركوا في إدارة وتطوير حكم بلادهم.

ومن ثم بدأ هؤلاء المتعلمون وبمختلف الطرق ينظمون مقاومة ضد النظام الاستعماري وقد ظهر شيخ القدال وبشير عبدالرحمن والشيخ جعفر علي شكيلاي ناظر الحلنقة بهذه المهمة، ثم نهض بها من بعد ذلك السيد محمد عثمان الميرغني بن السيد أحمد الميرغني وأخيه السيد الحسن الميرغني، كما اضطلع بالمهمة أوائل الخريجين في ذلك الوقت من أمثال عبدالله الحسن الخضر وأحمد إبراهيم خلوطي، حيث بدأ الاثنان في تنظيم العمل الحزبي والسياسي الذي كان له أكبر الأثر مع طلائع طوائف الشعب المختلفة في الكفاح ضد الاستعمار.

وكان لانتشار الإسلام - منذ زمن بعيد - في المنطقة عن طريق الخلاوي ورجال الطرق الصوفية مع ظهور طبقة من المتعلمين والمثقفين الأثر الأعظم في تنامي وتطور الحركة الوطنية، وقد تعاطف أبناء كسلا وتجاوبوا مع إخوانهم في طلائع الحركة الوطنية في الخرطوم وبورتسودان ومدني والأبيض والفاشر.

كما أن ازدياد انتشار الدعوة الإسلامية مع البعد الوطني وظهور بما يسمى مدارس

القـرى خاصـة في كسـلا، حيـث يتلقـى الأطفـال مبـادئ القـرآن الكريـم وتعلـم القـراءة والكتابـة وتلقـي بعـض العلـوم الدينيـة في الفقـه والتفسـير والعقيـدة مـع النحـو والأدب مـن أكبرالعوامـل التـي أقلقـت مضاجـع السـلطات البريطانيـة.. وكانـت هـذه المـدارس في كسـلا في بدايـة نشـأتها عبـارة عـن زرائـب مـن القـش تتوسـطها شـجرة كبـيرة وتتوسـطها بعـض الأعمـدة. وقـد تطـورت هـذه الزرائـب إلى مبـانٍ مسـتديمة، ويتلقـى فيهـا الطـلاب علومهـم كل أيـام الأسـبوع مـا عـدا الجمعـة. كانـت مدرسـة كسـلا الأوليـة ومقرهـا حـي الحلنقـة مـن أوائـل المـدارس التـي تأسسـت في كسـلا وكانـت تعـرف بأسـماء عـدة منهـا: مدرسـة كسـلا الأميريـة الأولى، ومدرسـة كسـلا الأم، ومدرسـة كسـلا الأوليـة، وهـي المدرسـة التـي قامـت بـدور كبـير في تعليـم أبنـاء كسـلا، وقـد سـبقت الإشـارة بـأن تأسـيس هـذه المدرسـة يعـود إلى زمـن الحكـم الـتركي عندمـا انضمـت مديريـة التـاكا وعاصمتهـا كسـلا إلى مديريـات السـودان الأخـرى، وكان ذلـك في زمـن حكمـدار الخرطـوم أحمـد باشـا شركـس أبـو ودّان، ثـم جـاء الإنجليـز وأدخلـوا عليهـا بعـض التحسـينات والتعديـلات وممـا يرجـح هـذا القـول إن هـذه المدرسـة كانـت موجـودة في مطلـع القـرن العشريـن، أي عنـد دخـول الإنجليـز السـودان في تلـك الفـترة، وعـلى كل فـإن هـذه المدرسـة (الأم) هـي أول المـدارس النظاميـة في كسـلا، ويقـوم بالتدريـس فيهـا سـودانيون اكفـاء مـن امثـال الشـيخ عبداللـه محمـد صالـح الـذي أصبـح ناظـراً لهـا أيضـاً، والشـيخ القـدال، والشـيخ حسـين البـدوي، والأسـتاذ عمـر الأزرق وأبوالقاسـم محمـد الخاتـم وغيرهـم.

وكان شـيخ سرالختـم الصـافي (غلـب عليـه اسـم سـيدنا سر الختـم) يقـوم بهـذا النـوع مـن التدريـس في حـي الختميـة في المـكان الـذي يسـتقبل فيـه المراغنـة ضيوفهـم وكان السـيد أحمـد الميرغنـي قـد أقطعـه للمشـايخ لينظمـوا فيـه حلقـات الدراسـة وتدريـس أبنـاء كسـلا بصفـة عامـة، وأبنـاء حـي الختميـة بصفـة خاصـة القـراءة والكتابـة وحفـظ القـرآن والإلمـام بعلـوم الديـن، وكان التعليـم الدينـي هـو الأسـاس في هـذه المدرسـة القرآنيـة، وقـد حفـظ أبنـاء كسـلا القـرآن الكريـم في هـذه المدرسـة عـلى يـد هـذا الشـيخ الجليـل (سـيدنا سرالختـم)، وذلـك منـذ نهايـة القـرن التاسـع عـشر ومطلـع القـرن العشريـن وكان المشـايخ هـم العلـماء الذيـن يلتـف حولهـم أبنـاء كسـلا، وينضـم إليهـم الراغبـون مـن جهـات عديـدة خاصـة منطقـة القـاش التـي كانـت تعـرف باسـم منطقـة (القيشـان) وهـي أرومـا ووقـر وتنـدلاي وماتيـب وغيرهـا. عـلى أن منطقـة القـاش ظهـر فيهـا هـذا النـوع مـن التعليـم

فيـما بعـد، فاضطلعـت خـلاوي الشـيخ عـلي بيتـاي بهـذا الـدور الكبـير في تعليـم أبنـاء كسـلا والـشرق بصفـة عامـة، وكانـت لـه دروس قيمـة في الثقافـة الإسـلامية وتاريـخ الإسـلام في شرق السـودان ومـا حولـه.

لم تكـن في كسـلا مدرسـة متوسـطة في ا لربـع الأول مـن القـرن العشريـن وحتـى أوائـل الأربعينـات وكان كل مـن يكمـل تعليمـه في مدرسـة كسـلا الأوليـة ويرغـب في مواصلـة تعليمـه عليـه أن يواصـل ذلـك في بورتسـودان أو الخرطـوم فتمكـن عـدد كبـير مـن هـؤلاء مـن الالتحـاق بمدرسـة بورتسـودان الوسـطى منهـم عـلى سـبيل المثـال: محمـد أحمـد عـروة، ومختـار عبداللـه محمـد صالـح (ابـن ناظـر مدرسـة كسـلا الأوليـة لفـترة محـدودة)، ومصطفـى محمـد الحسـين، وعـلى محمـد محمـد إدريـس (آل همـد) وعبدالحميـد جبـارة وعثـمان الحسـن محمـد نـور وعثـمان أبوبكـر وأحمـد أبوبكـر وعثـمان الحسـين، أمـا بشـير عبدالرحمـن، فقـد التحـق بمدرسـة الخرطـوم المتوسـطة ثـم مدرسـة غـوردون التذكاريـة أولاً ثـم أكمـل دراسـته في مـصر في أعقـاب حركـة اللـواء الأبيـض وثـورة العـام 1924م، وفيـما بعـد كان عبداللـه الحسـن الخـضر وأحمـد إبراهيـم خلوطـي، وهـم أول مـن نـال تعليـماً جامعيـاً مـن أبنـاء كسـلا وسـيأتي تفصيـل ذلـك في فصـل آخـر.

أمـا هاشـم عـروة الـذي ظهـر بعـد هـذه النخبـة مـن أبنـاء كسـلا، فقـد التحق بمدرسـة الأبيـض المتوسـطة ثـم وادي سـيدنا الثانويـة ثـم كليـة الطـب بجامعـة الخرطـوم.

وعـلى كل، فـإن ظهـور جيـل مـن الوطنيـين الشرفـاء وطبقـة لا يسـتهان بهـا مـن المتعلمـين والمثقفـين شـكلت نـواة للعمـل الوطنـي وأضفـوا عـلى الحيـاة لونـاً خاصـاً وطعـماً لـه مـذاق في الحركـة السياسـية والفكريـة، كـما هـم بالطبـع قـد أضافـوا ذوقـاً للحيـاة الاجتماعيـة والأدبيـة والثقافيـة في كسـلا، التـي سـنفرد لهـا فصـولاً مختـارة وحيـزاً كبـيراً خاصاً بالحيـاة الاجتماعيـة الأدبيـة، التـي تمثـل طعـماً خاصـاً بأسـواقها وأحيائهـا المختلفـة وتجارتهـا الرائجـة وحركتهـا الاقتصاديـة ونهضتنهـا الرياضيـة التـي كانـت تمثـل العـصر الذهبـي مـع جيـل العمالقـة في ذلـك الوقـت.

وكان عـدد كبـير مـن أبنـاء كسـلا قـد التحـق بمعاهـد التربيـة التـي تـم افتتاحهـا في ذلـك الوقـت، ومـن هـؤلاء: بابكـر مالـك وحسـن سر الختـم، وحسـين محمـد أحمـد، وبابكـر محمد أحمـد، يضـاف إليهـم بالطبـع التـوم مختـار وعـلي فـكي الأمـين، وحسـن سـمهن، وعبدالرحيـم القـدال، وحسـن القـدال، ومـن أسـاتذة تلـك الفـترة الذيـن عـاصروا هـذه النخبـة أذكـر عثمان

أحمـد نـور الديـن، وعثـمان همبـلي، وظهـر بعدهـم آخـرون منهـم عمـر السـيد وعبدالرحيـم السـيد، وإبراهيـم حسـن الحلنقـي، وهاشـم سر الختـم، وهاشـم سـعد، ومحمـد إبراهيـم شـيا، وأحمـد سـيد بيـه، وعبدالمجيـد فـرج مالـك، وعبدالرحمـن سـيد بيـه، وجـاء مـن بعـد ذلـك بقليـل عثـمان فـكي حامـد، وسـليمان إدريـس وأخـوه عمـر وميرغنـي سـعد وعـلى سـيد أحمـد، وعبدالرحمـن النذيـر، ومحمـد يسـن، والطاهـر عبدالكريـم، عبدالرحمـن إبراهيـم الشـيخ، عمـر عبدالحفيـظ، الطيـب فضـل السـيد، أمـين فـؤاد، وأحمـد عبداللـه الشـيخ، وعـلي أوهـاج، وبابكـر محمـود النـور وأخيـه الطيـب محمـود النـور وأحمـد عبدالخـير وأخيـه محمـود، ومزمـل محجـوب وسـليمان حسـن محجـوب وعـلى عثـمان قـدور ومحجـوب حـاج عثـمان وعـلي البخيتـاوي، وتتمثـل معاهـد التربيـة في معاهـد بخـت الرضـا وشـندي والدلنـج، التـي أسـهمت بـدور كبـير في التربيـة والتعليـم ودفـع عجلـة الثقافـة والتعليـم إلى الأمـام. وقـد سـاعدت هـذه الكوكبـة عـلى دفـع حركـة التعليـم في المنطقـة كلهـا، فـازداد الوعـي انتشـاراً وازدهـرت الثقافـة سـمواً وعلـواً بالقـراءة والكتابـة والتعبـير.

كان الإنجليـز أثنـاء ازدهـار حركـة العلـم قـد أدركـوا خطـورة انتشـار الوعـي القومـي، فبـدأوا في إعـلان الحـرب عـلى المتعلمـين والمثقفـين، وبـدأوا يجردونهـم مـن امتيازاتهـم، ويحـدون مـن سـلطاتهم ونفوذهـم في السـودان، وذلـك عندمـا منحوا زعـماء العشـائر ورجال القبائـل سـلطات واسـعة قـوت مـن مكانتهـم وأضعفـت بالتـالي نفـوذ الطبقـة المتعلمـة في السـودان، وعـلى ضـوء هـذه السياسـة ظهـر العـداء بـين المثقفـين ورجـال الإدارة الأهليـة الـذي اسـتمر إلى مـا بعـد اسـتقلال السـودان العـام 1956م، إلا أن هـذا العـداء لم يكـن ظاهـراً بتلـك الصـورة بـين المتعلمـين ورجـال الإدارة الأهليـة في كسـلا، بـل كان يسـود العلاقـة بينهـما كل الـود والتقديـر.

وكانـت بريطانيـا في الوقـت نفسـه تعمـل ألـف حسـاب لمكانـة الزعيـم الدينيـة وتتفهـم دورهـا وهيبتهـا ومكانتهـا، بـل تستشـير في كثـير مـن الأحيـان هـذه الزعامـات في كثـير مـن الأمـور التـي تتعلـق بمسـتقبل السـودان وتهـم أمـور البـلاد، بـل نراهـا تتجـه إلى السـيد أحمـد الميرغنـي الأخ الأكـبر للسـيد عـلي الميرغنـي وتتوسـل إليـه أن يقـوم بافتتـاح خـزان سـنار الـذي اكتمـل بنـاؤه وتشـييده في ذلـك الوقـت، فاسـتجاب السـيد أحمـد لهـذا الرجـاء وتلـك الرغبـة، فسـافر مـن كسـلاا إلى سـنار العـام 1927م وكان لتلـك الإسـتجابة الأثـر الكبـير في نفـوس الإنجليـز وعنـد عودتـه إلى كسـلا انتقـل السـيد أحمـد إلى جـوار ربـه بعـد

ذلـك بقليـل في العـام 1928م، وحـزن الإنجليـز عـلى فراقـه كثـيراً لمكانتـه الدينيـة وحكمتـه وهيبتـه، كـما حـزن عليـه أهـل السـودان جميعـاً.

كانـت أولى الحـركات الوطنيـة المنظمـة هـي جمعيـة الاتحـاد السـوداني السريـة التـي تأسسـت العـام 1919م تلتهـا جمعيـة اللـواء الأبيـض العـام 1942م وكانـت الجمعيتـان تعمـلان أحايـين كثـيرة بالتضامـن مـع المصريـين ضـد الإنجليـز، ثـم أخـذت حركـة المقاومـة في التوسـع والتطـور في إضراب المثقفـين في مطلـع الثلاثينيـات، ثـم مؤتمـر الخريجـين في الجـزء الأخـير مـن الثلاثينيـات العـام 1938م حتـى قيـام الأحـزاب السياسـية في مطلـع الأربعينيـات فجـاء ذلـك تضامنـاً مـع معارضـة المثقفـين للجمعيـة التشريعيـة التـي تبنـى الإنجليـز فكرتهـا في ذلـك الحـين أي في الأربعينيـات، وكان لأبنـاء كسـلا في ذلـك الوقـت دور كبـير في الاشـتراك في هـذه الهبـات والانتفاضـات، فاشـتركوا كأعضـاء في جمعيـة الاتحـاد السـوداني العـام 1919م مثـل القـدال وبشـير عبدالرحمـن، وآل المـرضي، كـما أسـهموا بقـدر وافـر في حركـة اللـواء الأبيـض العـام 1924م وتحركـت أول مظاهـرات كسـلا في الحركـة الوطنيـة في أثنـاء قيـام مؤتمـر الخريجـين.. وكانـت هـذه المظاهـرة التـي اندلعـت في كسـلا مـن المظاهـرات الشـهيرة في السـودان، اندلعـت في فـترة انعقـاد مؤتمـر الخريجـين العـام 1938م خاصـة عندمـا زار الأسـتاذ أحمـد خـير كسـلا، وكانـت بريطانيـا في ذلـك الوقـت قـد عقـدت مـع مـصر معاهـدة عـام 1936م ولكـن موضـوع السـودان فيهـا كان غامضـاً ومبهـماً، الأمـر الـذي أدى إلى انـدلاع هـذه الثـورات في كل أنحـاء البـلاد.. تطالـب فيهـا بحـق تقريـر ا لمصـير والاتحـاد مـع مـصر أو الاسـتقلال.

فاسـتمر إسـهامهم الفاعـل والمؤثـر في الحركـة الوطنيـة في الأربعينيـات عنـد ظهـور الأحـزاب السياسـية.. واسـتمرت حـركات المقاومـة والمظاهـرات أكـثر حـدةً وأشـد ضراوةً.. تناهـض وترفـض قيـام الجمعيـة التشريعيـة التـي كونهـا الإنجليـز، وتطالـب بالحيـاة النيابيـة وحـق تقريـر المصـير.. واسـتمر انـدلاع شرارة وجـذوة النضـال ضـد الإنجليـز خـلال الفـترة 1953-1954م، إذ تصـادف في تلـك الأثنـاء أن قـام الحاكـم العـام السـير روبـرت هـاو بزيـارة لكسـلا، فخرجـت كل جماهـير كسـلا تهتـف ضـد هـذه الزيـارة وتطالـب بالجلاء والاسـتقلالا.. وكان هتـاف جماهـير كسـلا ضـد هـذه الزيـارة.. يسـقط هـاو الـذي جانـا بالجـو (الجـو.. الطائـرة) وهـذا تعبـير عـما يعتمـل في نفـوس النـاس مـن كراهيـة للمسـتعمر البغيـض.

ومهـما يكـن مـن أمـر فـإن الإدارة ا لاسـتعمارية في السـودان كانـت تعتـبر مـن أكـبر

مساوئ الاستعمار، وخلال الفترة التي أعقبت استعمار السودان العام 1898م وحتى قيام الحركات ا لوطنية التحررية اتبع الإنجليز سياسة القمع والشدة، فملأوا السجون بكل من يشتبه في أمره، وأصدروا القوانين التي كممت أفواه الناس وحرموا حرية الرأي والتعبير، إلا أنه لم يكن أمام السودانيين في كل مدن البلاد وقراها غير أن يعتمدوا على أنفسهم في مقاومة الاستعمار والاستمررا في حركة الكفاح والنضال، فنضالهم وكفاحهم منذ حركة اللواء الأبيض وثوراتهم ومظاهراتهم في فترة الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي خير شاهد على حسهم الوطني.. فهم وقفوا وساندوا قضية مؤتمر الخريجين واعترضوا على قيام الجمعية التشريعية، وطالبوا بانتخابات برلمانية حرة، وتابعوا باهتمام بالغ ما يجري في مؤتمر جوبا العام 1947م الذي حسم فيه الإخوة الجنوبيون أمر تقرير المصير ووقفوا مع وحدة السودان ورفضوا فكرة الانفصال أو الفيدرالية التي يقف وراءها المستعمر البريطاني، كما لا ينسى أهل كسلا تلك المظاهرة العارمة التي خرجت فيها كل طوائف أبناء كسلا تهتف ضد روبرت هاو حاكم عام السودان أثناء زيارته لمدينة كسلا في مطلع الخمسينيات الأمر الذي جعل بريطانيا تتوجس خيفة من هذا النضال الذي اشتدت شوكته وقوي عوده، فبدأ الإنجليز منذ ذلك الوقت يعملون ألف حساب لشعب كسلا وقادته ومختلف فئاته وقبائله التي اصبحت تقف صفاً واحداً ضد الاستعمار البريطاني، كما كانت تعمل ألف حساب للسيد محمد عثمان بن السيد أحمد الميرغني الذي أصدر صحيفة (الرقيب) لتوعية الشعب ومناهضة الاستعمار وبجانبه أخوة السيد الحسن الميرغني، وهي أيضاً بدأت تضع ألف حساب لناظر الحلنقة الشيخ جعفر علي شكيلاي الذي كان يعترض باستمرار على السياسة البريطانية، ومنهم كثير من أمثال آل المرضي جبارة وعبدالرحمن مصطفى وطه محمد الحسن وغيرهم ممن أشاروا إلى مساوئ الإنجليز في الإدارة والسياسة، وما من حركة أو تمرد أو عصيان اندلع في الخرطوم إلا وقد تضامنت معه كسلا وكان قد أعلن عن إضراب عام في الخرطوم في يوم 1948/12/15م وهو بمثابة عصيان مدني تجاوبت معه مدينة كسلا على الفور، وتم الاتصال بكل الهيئات في المدينة وضواحيها في الختمية والسواقي وحي الفلاتة والحلنقة يطلب منهم تنفيذ الإضراب والعصيان في ذلك اليوم، وقد اضطرب الموقف في الخرطوم وكسلا لدرجة أن قامت السلطات الإنجليزية في كسلا بالتحقيق والاعتقال لبعض أبناء كسلا الذين كاننت

السلطات تعتقد أنهم من رموز هذه لحركة أو أنهم كانوا يخططون للتمرد والعصيان العام.. وقد أشار الاتهام إلى بعض الرموز منهم عبدالرحمن مصطفى ومحمد جبارة العوض وطه محمد الحسن من مؤسسي حزب الأشقاء، ومن رواد الحركة الوطنية في كسلا، ظهر بعد ذلك أي في مطلع الخمسينيات كاد يعصف بنضال الشعب السوداني في كسلا - على وجه الخصوص - ويقضي على وحدة الصف، ذلك هو قيام حوادث عنف اجتاحت المدينة واصبحت تهدد باندلاع حرب أهلية بين المواطنين.. وذلك على أثر اتهامات متبادلة بين طرفين في المدينة.. فألقت السلطات الاستعمارية القبض على بعض المواطنين، ترجح بأنهم هم الذين قاموا بتأجيج نار هذه الفتنة، وأنهم من المناوئين والمعارضين لسياستها.. فأصدرت أحكامها بالسجن والغرامة على بعض منهم باعتبار أنهم قاموا بأعمال عنف وشغب أدى إلى زعزعة الأمن والاستقرار في المدينة، مما يؤدي إلى الفوضى ويهدد الاستقرار في البلاد بأسرها على حد قولها، وكان من بين هؤلاء الذين أصدرت عليهم السلطات الإنجليزية أحكامها بالسجن والغرامة الشفيع حاج خالد، كما تعرض محمد جبارة وطه محمد الحسن إلى المراقبة المستمرة باعتبارهما من رواد الحركة الوطنية ومن مؤسسي الأحزاب السياسية في البلاد، كما يجيء تبيان ذلك لاحقاً.

كانت بريطانيا ترنو ببصرها نحو بعض الزعامات الدينية والوطنية، وتعتقد أنهم هم الذين يبذرون بذور الكراهية نحو الإنجليز، ويعملون على تحريض المواطنين للقيام بالثورة والتمرد باستمرار على السياسة في ذلك الوقت، وهي سياسة فرق تسد، وساسة تنتهجها بريطانيا، كلما تعرضت مصالحها الحيوية للخطر، أو كلما ألم بها بلاء، تتجه نحو بذر بذور التفرقة والتناحر بين أفراد الشعب الواحد وطوائفه المختلفة وزعاماته الدينية والوطنية، ولكنها في النهاية قدرت الموقف حق قدره في ذلك الوقت، فرأت أنه من الحكمة أن تنأى بنفسها عن مشاكل قد تكون عواقبها عليها وخيمة، فانزوت في ركن قصي، ولكنه كان ركناً أصبحت تحف به الصعاب من كل جانب، بعد أن فشلت محاولاتها البائسة في تأجيج الصراع وإذكاء نار الفتنة الطائفية.

وشهدت مدينة كسلا دوراً كبيراً ومؤثراً قادته طليعة كبيرة ومؤثرة من مثقفي أبناء كسلا تمثل في الحراك الطلابي من أبناء جامعة الخرطوم ومدارس وادي سيدنا وحنتوب الثانوية، وكان لهذا الدور الأثر الكبير في إثراء الحياة السياسية والثقافية

وإذكاء جـذوة النضـال وازديـاد حـدة الحركـة الوطنيـة في مطلـع الخمسـينات، وقـد ألهبـت هـذه الوثبـة الحـماس بنداوتهـا ومحاضراتهـا ولياليهـا السياسـية في دور الأحـزاب والأنديـة الرياضيـة، كـما نشـطت معهـا حلقـات محـو الأميـة والمـدارس الليليـة والأنشـطة الاجتماعيـة المختلفـة مـع الرحـلات والنشـاط المسرحـي، وقـد تأسـس هـذا النشـاط الكبـير تحت مسـمى: (الاتحـاد الإقليمـي لطـلاب مدينـة كسـلا) ومـن أعضائـه: القـاضي صـلاح حسـن، عبده حسـن يوسـف باشـكاتب مكتـب تعليـم كسـلا – رجـل أعـمال، إسـماعيل مـراد – أول طيـار حـربي، عبدالسـيد محمـد الحسـن – مديـر مرحلـة متوسـطة، دكتـور محمـد الشـلالي – أخصـائي أمـراض نفسـية، عبداللـه محمـد الحسـن – سـكرتير شركـة الخطـوط البحريـة بالمعـاش، عـواض محمـد أحمـد – محامـي، عبدالرحمـن عبـده – قـاضي محكمـة عليـا بالمعـاش، محمد عـواض – طبيـب ومديـر مسـتوصف د. عـواض، هاشـم الوقيع – لـواء شرطة سـجون بالمعاش، فتحـي حسـن والي - عقيـد شرطـة بالمعـاش، محمـد عبداللـه النذيـر – صاحـب ومديـر شركـة سـيروس ليمتـد، عثـمان عبداللـه النذيـر – دكتـور - العضـو المنتـدب لشركـة سـكر كنانـة ورئيـس مجلـس الإدارة، سـليمان عثـمان فقـيري – إداري نائـب والي ولايـة كسـلا بالمعـاش، المهنـدس حسـين عمـر كشـة - كبـير المهندسـين بمشـورع الجزيـرة، جعفـر عـلي الحـاج – ضابـط شرطـة بالمعـاش صاحـب مـشروع زراعـي، القـاضي عبداللـه أبـو عاقلـة أبوسـن – المستشـار بسـلطنة عـمان، محمـود عثـمان كيلـة - لـواء قـوات مسـلحة، مبـارك حسـن أزرق – مديـر مرحلـة متوسـطة بالمعـاش مؤلـف وأديـب، محمـود عبدالحليـم - مديـر مرحلـة ابتدائيـة، محمـود حـاج أحمـد – مستشـار زراعـي جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة، عبدالرحمـن حـاج أحمـد – مهنـدس مسـاحة وتخطيـط مشـاريع، عمـر أحمـد جعفـر - مديـر تنفيـذي بالمعـاش.. وغيرهـم ممـن لم تسـعفني الذاكـرة لكتابـة أسـمائهم. وقـد أفادنـا بذلـك الأسـتاذ الكبـير عبداللـه محمـد الحسـن.

وخـرج الصـف الوطنـي موحـداً بعـد تلـك الحادثـة، بـل أكـثر تماسـكاً وتضامنـاً، كـما خـرج البعـد الوطنـي سـالماً مـن أحلـك الظـروف التـي أحاطـت بـه، ولم يترتـب على ذلـك كله وقـف تيـار الحركـة الوطنيـة أو النضـال في سـبيل التحـرر والإنعتـاق مـن ربقـة الاسـتعمار.

وتاريـخ الكفـاح والنضـال في كسـلا ومنـذ أن وطـأت أقـدام المسـتعمرين البـلاد مـليء بالمـآسي، كـما أنـه مـليء بالبطـولات السـودانية الفـذة، وهـي التـي خلدهـا التاريـخ بأحـرف مـن نـور في كسـلا وفي غيرهـا مـن مـدن البـلاد وقراهـا، وذلـك خـلال مراحـل الكفـاح الوطنـي حتـى نهايـة النصـف الأول مـن القـرن العشريـن.

لقد كان لانتشار التعليم وازدهاره مع العمق الإسلامي والبعد الوطني - كما سبق القول - ومساوئ الحكومة البريطانية في السودان والاهتمام بإرسالياتها التبشيرية وإرسالها إلى بعض المناطق في السودان، ونشاطهم في الحياة السياسية والاجتماعية ومسلك موظفيها في الحياة العامة الذي لم يكن يرضى شعباً عميق الإيمان، ويهتم اهتماماً خاصاً بالناحية الدينية – كان لكل ذلك – أكبر الأثر في نمو وازدياد وازدهار اليقظة الفكرية والسياسية، وانتعاش حركة النضال التي ساعدت على تطور الحركة الوطنية في البلاد والنجاح في نهاية الأمر.

وكانت بريطانيا قد أوفدت إرسالياتها التبشيرية إلى بعض مناطق السودان – كما سبق القول – كغيرها من الدول الاستعمارية التي تهتم بنشر المسيحية – كل على مذهبها – كاثوليكي أو بروتستاني أو أرثوذكسي أو غير ذلك – هذا بالطبع مع العوامل الاستعمارية الأخرى التي كرس الاستعمار جهوده على تحقيقها – كالأهداف السياسية وتكوين الامبراطوريات، أو الأهداف الاقتصادية للحصول على المواد الخام والأسواق لتصريف منتجاتها أو استثمار أموالها في هذه البلاد بإقامة الشركات والبنوك ومناجم الفحم والغابات والسكك الحديدية والمصانع وغيرها، أو الحصول على المناطق الإستراتيجية أو الجوية التي تخدم مصالحها وقواعدها الحربية والإستراتيجية – مثل السودان وكسلا بالذات بحكم موقعها الجغرافي الممتاز.

وكان هدف بريطانيا هو كسب ا لمواطن البسيط وضمان ولائه وإخلاصه للكنيسة التي ينتمي إليها، مثلما بدأت تفعل ذلك في جبال النوبة وجنوب السودان حيث أصدرت قانون المناطق المقفولة، ومن جانب آخر بدأت المدن السودانية تهتم بتعليم أبنائها وإرسالهم لنيل المعرفة والثقافة والانضمام إلى الحضارة والمدنية الحديثة، ثم مناهضة الاستعمار ومحاربته بشتى الوسائل. ولم يحدث أن تخلفت كسلا يوماً عن الإسهامات الوطنية أو الاشتراك في مظاهرة أو انتفاضة أو أي عمل وطني ترى أن من الواجب الانضمام إليه والاشتراك فيه بشتى الوسائل، وما من عمل وطني أو انتفاضة انتظمت البلاد إلا وكان لكسلا فيه دور كبير وإيجابي، وذلك منذ فجر الحركة الوطنية في مطلع القرن العشرين إلى قطار كسلا المشهور الذي قاده محمد جبارة العوض أثناء ثورة 1964م. بل يشير الرواة أنه ما من مظاهرة اندلعت أو حركة عصيان مدني قامت في الخرطوم أو في مدن السودان الأخرى إلا وتلتها أخرى في كسلا - تكون أشد

عنفاً - فإنها وحدة المناضلين والثوار في كل مكان، بل كان هذا البعد السياسي والحس الوطني والقومي أحد أسباب نجاح حركات النضال التي دوخت المستعمر وأجبرته في النهاية على الاعتراف بحق تقرير المصير ثم الجلاء والاستقلال.

وكان السودانيون على اختلاف ألوانهم قد اتجه تفكيرهم وتصميمهم نحو القضاء على العنصرية وتحطيم القبلية الضعيفة التي يحاول الاستعمار جاهداً تعميقها لبث الوقيعة والتفرقة بين أبناء الوطن الواحد. لذلك كان هدف أبناء الشعب على اختلاف قبائلهم وأحزابهم تكوين حكومة وطنية، تحافظ على تراب الوطن وتراث الآباء والأجداد. وكانت السلطان الاستعمارية بحكم تفكيرها في البقاء لمدة أطول، بدأت تعتبر أن أولئك المتعلمين أقلية لا وزن لها ولا خشية منها، وعليها أن تعمل على حماية الأكثرية غير المتعلمة واحتوائها. لذلك لم يكن مستغرباً أن تتجه الإدارة البريطانية في السودان إلى الزعامات القبلية، والنظم التقليدية لتوطيد مركزها ونفوذها، ولكن كان ذلك إلى حين، كما أن الإدارة البريطانية كانت قد عملت على حجب أبناء الشعب السوداني عن المؤثرات الخارجية، ومنعت عنهم الأفكار التحررية والثقافية، ولم يقوموا بمحاولة رفع مستواهم الثقافي والحضاري المنخفض، حتى لا يقف الشعب العريق على التطورات العالمية.

وعلى الرغم من ذلك عمل بعض الأهالي رغم أنف المستعمر على تأسيس بعض المدارس النظامية لتعليم أبناء الشعب السوداني التعليم النظامي، وفيه التركيز على اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وهي أول محاولات وطنية نظامية يقوم بها السودانيون في فترة ما بين الحربين العالميتين، رغم مقاومة المستعمرين ومعارضتهم لهذه الفكرة. وكانت مدرسة أمدرمان الأهلية الوسطى والثانوية، ومدرسة المؤتمر الثانوية في أمدرمان ومدرسة بورتسودان الأهلية المتوسطة، وبعدها مدرسة بورتسودان الأهلية الثانوية ومدرسة المؤتمر الوسطى في كسلا التي غلب عليها اسم مدرسة كسلا الأهلية الوسطى من أوائل المدارس التي أسسها الأهالي بجهدهم ومالهم وعرقهم – أسسوها كيداً للاستعمار ورغم أنفه – ومقاومته ومعارضته الحادة الشديدة لهذا المشروع الوطني الكبير، وقد أطلق على معظم هذه المدارس اسم (المؤتمر) فيقولون مدرسة المؤتمر.. وذلك تخليداً وتعظيماً لدور مؤتمر الخريجين العظيم في مكافحة الاستعمار والعمل على استقلال البلاد.. وكان مؤتمر الخريجين العام 1938م قد نادى

أقطابـه وزعـماؤه بـضرورة تعليـم أبنـاء الشـعب وتأسـيس أكـبر عـدد مـن المـدارس في البـلاد.

لقـد أدت هـذه المـدارس دوراً كبـيراً في دفـع مسـيرة الحركـة الوطنية ومقاومة الاسـتعمار وتحقيـق الجـلاء ثـم الاسـتقلال التـام. فقـد التحـم أسـاتذة هـذه المـدارس وطلابهـا مـع المثقفـين في البـلاد وقطاعـات الشـعب المختلفـة، وعملـوا يـداً واحـدة عـلى اقتـلاع الاسـتعمار البريطـاني اقتلاعـاً، وتخليـص البـلاد مـن شروره وآثامـه.. وكان مـن أبـرز رمـوز ومؤسـسي مدرسـة المؤتمـر (الأهليـة) الوسـطى بكسـلا، أذكـر عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر: عبدالرحمـن مصطفـى وحـاج عثـمان الحلنقـي وأبورفـاس وآل المـرضي جبارة وآل مسـعود، ومنهم مسـعود أحمـد السـيد، وآل فقـيري - وربمـا الثلاثـة معـاً (عبداللـه وعثـمان ومحمـد الحسـن) وناظـر الحلنقـة جعفـر عـلي شـكيلاي والبخيـت سـيد أحمـد والشـيخ إبراهيـم محمـد طـه (شـيخ السـواقي) بغـرب القـاش وحسـين عثـمان (مأمـور السـكة حديـد في كسـلا والمسـؤول عـن قطـاع السـكة حديـد مـن بورتسـودان حتـى سـنار).. ومـن المؤسسـين لمدرسـة المؤتمـر بكسـلا أذكـر أيضـاً: (الطيـب الدويحـي وعثـمان سـمهن)، وكان الأسـتاذ محمـد جبـارة العـوض أول نائـب برلمـاني لكسـلا في الانتخابـات الوطنيـة الأولى للحركـة الوطنيـة العـام 1954م هـو أول ناظـر لهـذه المدرسـة- وكان مـن أبطـال المقاومـة والكفـاح ضـد المسـتعمرين - قبـض عليـه الإنجليـز وزجـوا بـه في السـجن عـدة مـرات، وخلفـه الأسـتاذ حسـن بيومـي ناظـراً للمدرسـة بعـد تعـرض محمـد جبـارة للسـجن عـدة مـرات.. وتـوالى عـلى إدارة هـذه المدرسـة عـدد كبـير مـن المؤهلـين أيضـاً مـن أمثـال عـلى مـوسى ومـكي الخليفـة حسـن، وزخـرت هـذه المدرسـة بعـدد كبـير مـن الأسـاتذة مـن أصحـاب الكفـاءة والمقـدرة العلميـة في ذلـك الوقـت، أذكـر عـلى سـبيل المثـال: شـيخ الدرديـري وشـيخ عثـمان محمـد عبدالرحمـن (مـن حلفايـة الملـوك) وعـلى أبوعاقلـة أبوسـن، وعبدالسـيد محمـد الحسـن جريـس وأخيـه عبدالجبـار، وعثـمان أحيمـر وأخيـه عبدالوهـاب عبدالسـلام وزيـن العابديـن وقيـع اللـه ومحمـد العوض وعبدالباسـط بحـيري وإدريـس محمـد إدريـس ومبـارك حسـن أزرق وخالـد حسـن شـندي.

وعـلى ذلـك أصبحـت مدرسـة كسـلا الأهليـة رائـدة النضـال والكفـاح، وهـي التـي كانت تؤجـج المشـاعر وتلهـب الحـماس وترفـع الهمـم وتدفـع إلى الانتفاضـة وطـرد المسـتعمرين. وكان طـلاب هـذه المدرسـة ينظمـون المظاهـرات باسـتمرار، ويعقـد أسـاتذتها مـع رجـال الحركـة الوطنيـة في كسـلا الاجتماعـات وتنظـم حـركات المقاومـة.. منهـا المظاهـرة المشـهورة التـي قادهـا الأسـتاذ محمـد جبـارة العـوض أول ناظـر لهـذه المدرسـة والمظاهـرة التـي

خرجت في المدينة تستنكر زيارة الحاكم العام (هاو) إلى كسلا في مطلع الخمسينيات.

وكان لمدرسة كسلا الأميرية الوسطى التي تأسست بعد مدرسة المؤتمر بقليل دور لا يقل عن الدور الوطني الذي تقوم به مدرسة المؤتمر (الأهلية الوسطى)، كما كان للمعاهد الدينية دور مهم في الحماسة الدينية والوطنية.. ومن هذه المعاهد شيخ المعاهد معهد أم درمان العلمي (جامعة أم درمان الإسلامية حالياً).. وقد تفرعت عنه معاهد دينية كثيرة في السودان منها معهد كسلا العلمي الذي شيده السيد الحسن الميرغني - طيب الله ثراه - كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

لذلك يمكن القول إن اثر التعليم، وانفتاح الناس على العالم الخارجي، أصبح واضحاً وكبيراً. فقد خرج الشعب السوداني من الدائرة الضيقة والمقفلة التي رسمها له المستعمر الأوروبي، واتسع أفق الشعب السوداني عن طريق الاتصالات التي تمت بين الشعوب بين الحربين الأولى والثانية، وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية وأدرك الشعب السوداني ما في العالم من اختراعات حديثة وتنظيمات، وما تتمتع به الشعوب من ثقافات وحضارات وتراث فكري تركه السلف للخلف.. فتطلع إلى نيل حظه منها، فكان ذلك عطاءً وافراً وجزيلاً، وأصبح حظهم ونصيبهم من الحضارة ليس بالشيء القليل.

وأدرك أبناء السودان أن من المستحيل الوصول إلى المستوى الراقي من المدنية والتقدم إلا بالتعليم، لذلك استهدف الشعب كله الحضارة، فاتجه نحو التعليم والثقافة أينما كان ذلك، فازداد عدد المدارس والمعاهد وتأسست الأحزاب وقامت الجمعيات الثقافية وتطورت الحركة الأدبية، وبرز أدباء وشعراء وفقهاء وعلماء في شتى مجالات المعرفة وفنونها المختلفة.. ونهضت جمعيات الأدب والشعر والثقافة بدور كبير، كما أن جمعيات المدارس الأدبية اضطلعت بدورها في هذا المجال.. وبدأ أفراد الشعب يتطلعون إلى التعليم في الداخل والخارج.. كما كان أبناء كسلا يعقدون مجالس العلم والأدب في تلك الفترة، وينظمون الندوات والمحاضرات الثقافية العامة التي تبث الوعي وتنشر الثقافة. كما كانوا ينظمون المسرحيات في مسارح الأندية الكبرى مثل نادي كسلا – نادي الحركة الوطنية – والذي يحلو للناس أن يسموه (نادي الخريجين).. وكانت تندلع من نادي كسلا المظاهرات ومظاهر العداء للمستعمر البريطاني، وكان يجاور هذا النادي ومن ورائه مباشرة (ملعب التنس المشهور) الكثيف الأشجار، الذي يختبي من ورائه الشباب الثائر، ينظمون من هناك مظاهراتهم ويوحدون هتافاتهم.. لذا يعتبر

نـادي كسـلا رائـداً في الحركـة الوطنيـة، وقـام بـدور عظيـم في دفـع عجلـة الحركـة الوطنيـة وتفعيلهـا وإذكاء نيرانهـا، كـما كان لأنديـة التـاكا والميرغنـي والشـباب وتوتيـل دور فاعـل في إقامـة المسرحيـات والروايـات الهادفـة وترديـد الأغـاني والأناشـيد الوطنيـة.. منهـا القصيـدة التـي صـاغ كلماتهـا ابـن كسـلا البـار الصـاغ محمـود أبوبكـر، وهـي أغنيـة الحركـة الوطنيـة المشـهورة (صـه يـا كنـار)، بالطبـع مـع نشـيد مؤتمـر الخريجـين (إلى العـلا إلى العـلا)...

صه يا كنار وضع يمينك في يدي

ودع المزاح لذي الطلاقة والدد

ومـن القصائـد التـي يرددهـا أبنـاء كسـلا دومـاً قصيـدة خليـل فـرح الوطنيـة التـي يرمـز فيهـا خليـل فـرح إلى مدينـة أم درمـان بــ (عـزة).. وينشـد شـباب كسـلا في ذلـك الحـين أبيـات الشـاعر والأديـب بشير عبدالرحمـن (بنـت النيـل) التـي يغنيهـا الفنـان الملهـم أحمـد المصطفـى، وقصيـدة (يـا السـاكن جبـال التـاكا مـين في عـلاك عـلاك).. التـي ينشـدها الفنـان الكبـير إسـماعيل عبدالمعـين، وسـيجيء تفصيـل ذلـك لاحقـاً.

ولا ينـسى شـباب كسـلا وهـو يكافـح الاسـتعمار قصيـدة الشـاعر التونـسي أبي القاسـم الشـابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

ولابــد لليــل أن ينجــلي ولابد للقيد أن ينكسر

ومـن شـعراء تلـك الفـترة أيضـاً لابـد أن أشـير إلى الأسـاتذة حسـن أحمـد (القاتـل) وأحمـد أبوعاقلـة وأخيـه حسـان أبوعاقلـة.

وهـذا دليـل واضـح يرمـز بجـلاء إلى أن كسـلا انتظمتهـا حركـة أدبيـة وعلميـة وثقافيـة عظيمـة، وأصبـح شـباب كسـلا ينهلـون مـن وسـائل المعرفـة المختلفـة، ويتكلمـون عـن الحـركات التـي تنتظـم العـالم الإسـلامي ويشرحـون دور الأفغـاني ومحمـد عبـده وأحمـد عـرابي والكواكبـي ومحمـد فريـد ومصطفـى كامـل وسـعد زغلـول.. كـما كانـوا يبحثـون في كتـب (حيـاة محمـد) لمحمـد حسـنين هيـكل، و(عبقريـات) العقـاد وكتـب طـه حسـين.. وكانـوا يناقشـون أفـكار الثـورة الفرنسـية والثـورة البلشـفية ونظريـات آدم سـميث وهيجـل وإنجلـز وفولتـير ومنتسـكيو وجـان جـاك روسـو وكارل ماركـس وغيرهـم.. ويـصرون عـلى أن الإسـلام جـاء بأفـكار العدالـة والمسـاواة قبـل مجـئ الثـورة الفرنسـية بأكـثر مـن ألـف عـام.

وكانـت الكتـب والمجـلات تصـل كسـلا باسـتمرار، ويهتـم أبناؤهـا باقتنـاء الكتـب القيمـة

والمفيـدة ويحصلـون عـلى كتـب (العبقريـات) للعقـاد وكتـب (الأيـام والوعـد الحـق وعـلى هامـش السـيرة والفتنـة الكـبرى) لطـه حسـين.. وتجدهـم يحدثونـك عـن هتلـر وموسـليني والقنابـل الذريـة في هيروشـيما وناجـازاكي، وانتصـار الحلفـاء وهزيمـة دول المحـور الثـلاثي، واستسـلام هتلـر وانتحـاره وهزيمـة موسـليني وإيطاليـا الفاشـية. كـما كان الشـباب في ذلـك الحـين يهتـم بتأسـيس هيئـة الأمـم المتحـدة 1945م وقيـام جامعـة الـدول العربيـة 1945م وحـركات التحـرر الوطنـي في أفريقيـا وآسـيا وأمريـكا اللاتينيـة وحـرب فلسـطين العـام 1948م وحـرب كوريـا العـام 1950م والحـرب البـاردة بـين روسـيا وأمريـكا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة.. وهـذا دليـل عافيـة وصحـة عـلى ازدهـار الوعـي وانتعـاش الحركـة الوطنيـة والفكرية والثقافيـة.. وقامـت مكتبـة إبراهيـم داؤود بـدور كبـير في هـذا الجانـب منـذ منتصـف الأربعينيـات، وظهـر في كسـلا جيـل يتحـدث بالفصحـى (اللغتـين العربيـة والإنجليزيـة) ويقـارن في الحضارتـين الإسـلامية والغربيـة ويقـرأ لشكسـبير وشـارلس ديكنـز وبـيرل بـك وروبـرت لويـس ستيفنسـون.. وبلـغ شـباب كسـلا غايتـه بالوصـول إلى أرقـى التخصصـات في القانـون والطـب والهندسـة والصيدلـة والاقتصـاد والزراعـة والبيطـرة والآداب..

وفي نهايـة الأربعينيـات ومطلـع الخمسـينيات ضاعـف الشـباب جهـوده لتحصيـل أكـبر قـدر مـن المعلومـات التـي تؤهلهـم للقيـام بدورهـم في تقلـد المناصـب الرئيسـية في الدولـة، واهتمـوا بالنجـاح الباهـر للدخـول إلى المـدارس الثانويـة الكـبرى التـي تأسسـت في ذلـك الوقـت في وادي سـيدنا وحنتـوب وخـور طقـت وغيرهـا، ومـن ثـم الالتحـاق بجامعـة الخرطـوم أو السـفر للقاهـرة، أو الالتحـاق بجامعـة القاهـرة فـرع الخرطـوم بعـد تأسيسـها في العـام 1955م، وهـي هديـة حكومـة الثـورة المصريـة للسـودان بمناسـبة حصولـه عـلى الاسـتقلال.. كـما اتجهـت جماعـات إلى بريطانيـا للدراسـة في لنـدن وأكسـفورد وكمـبردج.. كـما كان لقيـام معاهـد التربيـة في بخـت الرضـا وغيرهـا الـدور الكبـير في نهضـة التعليـم. وبذلـك نهـض التعليـم نهضـة واسـعة ومباركـة بالنسـبة لمـا كان مـن قبـل، وشـمل البـلاد وعـي جديـد أدى إلى كتابـة تاريـخ جديـد ناصـع للسـودان الجديـد.

اعتمـدت السـلطات البريطانيـة عـلى تدعيـم مركزهـا ونفوذهـا وتوطيـد سـلطاتها السياسـية والإداريـة والاقتصاديـة، عـلى رجـال وزعـماء الإدارة الأهليـة في السـودان، إلا أن عـدداً لا يسـتهان بـه مـن هـؤلاء الزعـماء كان يتعـاون مـع رمـوز الحركـة الوطنيـة، بـل إن منهـم مـن كان يجاهـر بعدائـه للإنجليـز الذيـن كانـوا يعملـون ألـف حسـاب لنفـوذه

وسيطرته على قبيلته، ومن هؤلاء على سبيل المثال ناظر الحلنقة جعفر علي شكيلاي وغيره بطبيعة الحال. وكان من نظار ومشايخ الإدارة الأهلية في منطقة كسلا نذكر الشيخ محمد الأمين ترك ناظر عموم الهدندوة الذي اشتهر بذكائه ودهائه وحنكته ونفوذه القوي بين أفراد قبيلته.. ومنهم إدريس صالح ناظر عموم البني عامر الذي خلفه بعد وفاته الناظر إبراهيم محمد عثمان دقلل.. وكان نظار البني عامر يتمتعون بسلطات واسعة على أفراد هذه القبيلة المنتشرة في كسلا حتى طوكر، وفي داخل الأراضي الإريترية أيضاً.. ولهم وجودهم القوي في مجال الإدارة والمال. أما الشيخ محمد حمد أبوسن فهو ناظر عموم الشكرية الذين ينتشرون في منطقة واسعة تمتد من كسلا حتى أرض البطانة.. كما أن الناظر عبدلله بكر في القضارف كان له الإشراف على أبناء غرب السودان وضواحيها وناظراً لهم. وهنالك في في أقصى شمال شرق مديرية كسلا يوجد ناظر عموم البشاريين صالح كرار، وهي القبائل التي تسود وتمتد في تلك الجهات حتى الحدود المصرية.. ويجاور هذه القبيلة قبيلة الأمرأر التي لها نظارة وإدارة خاصة بها في المنطقة المعروفة باسم حلايب، التي فاز بدائرتها في الانتخابات الوطنية - الأولى والثانية – محمد كرار كجر وهي دائرة تعرف باسم (دائرة الأمرأر والبشاريين) في منطقة حلايب (الحزب الوطني الاتحادي في انتخابات 1954م وحزب الشعب الديمقراطي في انتخابات 1957م).

كان الإنجليز في منطقة كسلا والمديرية بصفة عامة يتبعون نظام اللامركزية في الإدارة، ففي شهر أبريل من كل عام تتحرك الإدارة من كسلا إلى سنكات وتقيم فيها حتى شهر نوفمبر.. وفي هذا الشهر من كل عام ينعقد اجتماع عام يضم مدير المديرية بمنطقة تمنتاي – وهي منطقة رئاسة ناظر الهدندوة – ويحضر هذا ا لاجتماع مندوب من السكرتير الإداري والسكرتير المالي، وذلك لحل مشاكل النظار والإسراع بتحصيل أموال الضرائب أو الجزية و ضريبة القطعان المطلوبة من كل النظار ورفعها قبل نهاية العام حتى لا تكون هناك متأخرات، وترسل هذه الأموال رأساً من أروما إلى المالية بالخرطوم.. وعادةً ما يكون هذا الاجتماع واللقاء بضيافة وكرم ناظر الهدندوة، إلا أن الروايات تشير إلى أن مدير مديرية كسلا يصر على الإسهام في هذا الجانب، ويحضر هذا الاجتماع أيضاً مفتش تعليم المديرية.

وكانت الإيرادات تتكون من الجزية والقطعان التي يرسلها النظار والعمد، وهناك إيرادات العوائد المحلية من المنازل والعشور التي تدفع عن محصول الذرة والسمسم

والفول وغيره، يضاف إلى ذلك رسوم تدفع عن الخضر والفواكه التي تزرع في سواقي غرب القاش. ومن مديري مديرية كسلا نذكر مستر همفري وهانكوك وبرودين، أما أندرو بول صاحب كتاب (تاريخ البجا في السودان) فقد كان مفتشاً في منطقة طوكر، ثم أصبح نائباً لمدير مديرية كسلا، واستمر هذا النظام الإداري إلى أن تأججت نيران الحركة الوطنية ووصلت أقصى مجدها وازدهارها في العام 1956م.

أشرنا من قبل أن رواد الحركة الوطنية اتجهوا إلى كسر الحاجز الذي فرضه الاستعمار بحجب أبناء السودان عن المؤثرات الخارجية والعمل على رفع مستواه الثقافي والحضاري، وحاول أن يفرض عزلة تامة عليهم، ومنعهم من السفر خارج البلاد. وذلك منذ فجر القرن العشرين، وحتى أبناء الأقاليم منعهم من السفر خارج البلاد. ورغم أنف المستعمر تمكنت كوكبة من فرسان الحركة الوطنية من السفر وتسللت إلى مصر سراً لمواصلة تعليمها واستئناف حركة النضال والكفاح من هناك.

وهجرة هذه المجموعة من الشباب إلى مصر وغيرها مشهورة في تاريخ السودان الحديث، وهي الهجرة التي تزامنت مع قيام حركة اللواء الأبيض، واندلاع ثورة العام 1924م. وكان من أبرز رموز هذه الهجرة وأعلامها وروادها، عرفات محمد عبدالله وتوفيق أحمد البكري وبشير عبدالرحمن وعبيد حاج الأمين والدرديري أحمد إسماعيل.. وقد حدثت الهجرة الأولى عام 1922 وتلتها الهجرة الثانية العام 1923م أما الهجرة الثالثة فقد حدثت في العام 1933م وكان على رأسها أحمد السيد حمد. إلا أنه لابد من التنويه إلى دور خريجي الكلية الحربية من بعد ذلك وهي الكاديت cadet التي تأسست في زمن الحاكم العام السير ستيورات سايمز في منتصف الثلاثينيات، ومن قبله ضباط وجنود كسلا في الحرب العالمية الأولى الذين تكونت منهم القيادة الشرقية في كسلا، فكان لهم دور كبير بوسائل شتى في الكفاح من أجل الاستقلال والحفاظ على تراب الوطن، ولكن من هم أبناء كسلا من رواد الحركة الوطنية الأوائل الذين هاجروا إلى خارج البلاد؟

ابن كسلا الشاعر المناضل بشير عبدالرحمن:

يعتبر بشير عبدالرحمن جدي من رواد لحركة الوطنية في السودان، وهي في بداية عهدها وذلك منذ ا لربع ا لأول من القرن العشرين من أبناء كسلا نشأ وترعرع فيها وتلقى فيها مراحل تعليمه الأولي قبل سفره للخرطوم مع زملائه طلائع الحركة الوطنية التي بدأت تنتظم في البلاد وتواصل كفاحها من أجل الحرية والاستقلال.

ولـد بشـير عبدالرحمـن في بـارا نهايـة القـرن التاسـع عـشر مـع دخـول القـوات الاسـتعمارية بقيـادة كتشـنر للبـلاد، وترجـح روايـات أخـرى أن بشـير ولـد في بـارا مـع بدايـة القـرن العشريـن، ينتمـي بشـير عبدالرحمـن إلى قبيلـة الركابيـة التـي دخلـت السـودان مـن الجزيـرة العربيـة مـع الهجـرات العربيـة الأولى وكان لأجـداده دور بـارز في قيـام وازدهـار دولـة الفونـج الإسـلامية كـما كان لآخريـن منهـم دور كبـير في الحركـة المهديـة ومنهـم الفـكي دوليـب، أمـا جـده بـادي فـكان أول خلفـاء الطريقـة الختميـة في بـارا في زمـن الأسـتاذ الختـم شـيخ الطريقـة الختميـة.

تـوفي أبـوه عبدالرحمـن جـدي بعـد مولـد ابنـه بشـير بعـد عـدة أشـهر فقـط، فأخذتـه أمـه حليمـة قبـل أن يكمـل عامـه الأول مـن بـارا إلى كسـلا وذلـك للانضـمام لركـب الأسرة التـي بـدأت تتوافـد إلى كسـلا منـذ جعـل السـيد الحسـن الميرغنـي هـذه البلـدة مقـراً لـه ولدعوتـه لنـشر الديـن. وكان الركابيـة مـن أهـل بـارا قـد هاجـروا إلى كسـلا حتـى يكونـوا عـلى مقربـة مـن ابـن الأسرة الصالـح السـيد الحسـن الميرغنـي – طيـب اللـه ثـراه.

وحليمـة هـذه هـي حليمـة بنـت الصـادق بـن وديـدي بـن بـادي بـن جـلاب. وجـلاب هـذا والـد السـيدة رقيـة (أورقيـة) التـي تزوجهـا الأسـتاذ الختـم شـيخ الطريقـة الختميـة، وأنجـب منهـا ابنـه السـيد الحسـن الميرغنـي، المشـهور باسـم (أبوجلابيـة ورجـل كسـلا)، وقـد أشـارت الروايـات بـأن الختـم تحـرك مـن الحجـاز إلى مـصر قاصـداً السـودان ليتـزوج مـن المـرأة التـي أشـارت إليهـا الروايـات بأنهـا تنجـب الابـن الصالـح.

وأشـارت روايـات أخـرى أن الأسـتاذ الختـم عـبر البحـر الأحمـر مـن الحجـاز حتـى وصـل إلى كسـلا ومنهـا اتجـه إلى غـرب السـودان حتـى وصـل إلى بـارا. كـما تشـير بعـض المصـادر في هـذا الشـأن أن الشـيخ عثـمان بـن فـودي (دان فوديـو) تحـرك هـو الآخـر مـن نيجيريـا مـن عاصمتـه سـكتو وكان الأقـرب إلى بـارا، إلا أن أمطـاراً غزيـرة هطلـت عليـه وهـو في الطريـق فتمكـن الأسـتاذ الختـم مـن دخـول بـارا قبـل وصـول الشـيخ عثـمان.. ولمـا وصـل الشـيخ إلى مشـارف بـارا علـم بدخـول الأسـتاذ الختـم وزواجـه مـن السـيدة رقيـة بنـت جـلاب فقفـل راجعـاً إلى بـلاده. ويعـرف آل جـلاب في غـرب السـودان باسـم الجلابـة ويطلـق عليهـم أهـل كردفـان اسـم (الجلابنجـي) هـذا وقـد كان الأسـتاذ الختـم وهـو ينظـم الطريقـة الختميـة في السـودان قـد عـين شـقيق زوجتـه (رقيـة) وخـال ابنـه السـيد الحسـن وهـو بـادي خليفـة للطريقـة الختميـة في السـودان في بـارا. وعـين في نفـس الوقـت الخليفـة محمـد خـير العراقـي خليفـة الطريقـة في الشـمالية فكانـا أول خلفـاء للطريقـة الختميـة في السـودان.

أشرنا إلى أن حليمة بنت الصادق أخذت ابنها بشير مع إبنيها الآخرين رقية وبرير إلى كسلا وتصحبها شقيقتها آمنة بنت الصادق وابنتها فاطمة والدة آل البحر ومن أحفادها أبناء جعفر الحلنقي وسليمان الخير وحسين العراقي وآل بشير حسن بشير ومنهم هاشم حسن بشير المشهور في كسلا باسم (هاشم كوره) وقد توالت هجرات الركابية من كردفان إلى كسلا ومنها هجرات آل جدي وآل الجاك وآل محمد صالح.

نشأ بشير عبدالرحمن في كسلا منذ فجر القرن العشرين واستمر كذلكحتى بداية العشرينات أو قبلها بقليل، حيث أخذ في كسلا قسطاً من التعليم في المدارس القرآنية في الختمية وكسلا، وعندما وصل الخرطوم التحق بكلية غوردون التذكارية وقضى بها بعض الوقت وكان منذ طفولته مشبعاً بالكراهية ضد المستعمرين الذين احتلوا البلاد وسلبوا خيراتها وثرواتها.. وفي الخرطوم أيضاً انضم إلى طلائع الحركة الوطنية التي تمثلت في بعض الحركات والجمعيات السرية مثل جمعية الاتحاد السوداني التي تاسست في العام 1919م، التي أصبح بشير من أعضائها ورموزها البارزين. كما أصبح عضواً في جمعيات أخرى سرية إلى أن قامت جمعية اللواء الأبيض ثم اندلاع ثورة العام 1924م.

كانت بريطانيا آنذاك تستخدم كل وسائل الشدة والقسوة وتستعمل كل أداة من أدوات القمع والقهر لضرب حركة المقاومة والكفاح والنضال ضدها وتعمل بكل السبل على كسر حدة الثورة وكسر جماحها بالقبض على قادتها وجنودها الأحرار البواسل.. بالسجن والتشريد وتكميم الأفواه أو بالقتل وسفك الدماء فامتلأت السجون بالأحرار من قادة الحركة الوطنية وأعدمت بعض قادتها رمياً بالرصاص حتى نجح عدد كبير من قادة الحركة الوطنية وأبرز زعمائها في السفر إلى مصر ومن هؤلاء بشير عبدالرحمن الذي تمكن من ذلك العام 1922م.

في مصر استطاع بشير عبدالرحمن جدي أن يكمل تعليمه الجامعي الذي بدأه في كلية غوردون بالخرطوم. وفي جامعة القاهرة تخرج بشير مهندساً زراعياً استفادت الحكومة المصرية كثيراً من خبرته في هذا المجال.. وظل يواصل رسالته ونضاله من أجل استقلال السودان إلى أن حقق الله له رغبته وآماله في الحرية والاستقلال التام العام 1956م وكان لجميعة الاتحاد السوداني دور كبير في إيفاد بشير وزملائه إلى مصر.. وكان شعار هذه الجمعية كما ورد على لسان أحد مؤسسيها وهو الأستاذ سليمان

كشة: (السودان للسودانيين والمصريون أولى بالمعروف)، وكان شعار وحدة وادي النيل هو الشعار الغالب والمهيمن في ذلك الحين، وكان الوزير عمر طوسونأحد وزراء الحكومة المصرية في ذلك الحين ومن غلاة دعاة وحدة وادي النيل وهو الذي نظم هجرة هذه المجموعة من السودان إلى مصر أثناء حركة ثورة 1924م وهو الذي هيأ لهم فرص التعليم بمصر والالتحاق بمؤسسات التعليم هناك.

ظل بشير عبدالرحمن مقيماً في مصر يواصل رسالته ويتقن عمله ويترقى في وظائف إدارية كبيرة ومهمة في وزارة الري والزراعة في أسوان في وظيفة مدير عام وزارة الزراعة، إلا أنه لا يستطيع العودة إلى السودان بسبب السياج المنيع الذي فرضته السلطات البريطانية والقيود التي وضعتها للحد من الحركة والسفر إلى خارج البلاد وخاصة مصر.. وتمنع باستمرار الدخول للسودان أو الخروج منه، إلا أن بشير ظل يرقب الأحداث عن كثب وهو في مصر إلى أن قامت ثورة 23 يوليو 1952م، وبدأت قضية السودان تدخل طوراً جديداً.

وعندما تكونت أول حكومة وطنية في السودان برئاسة السيد إسماعيل الأزهري وتحقيق الاستقلال العام 1956م كان بشير عبدالرحمن يمني نفسه بالعودة إلى السودان ويتمنى أن يعود لوطنه كي يسهم مع إخوانه في حركة السودنة والتنمية والبناء.. وقد اتصل به السيد ميرغني حمزة وزير الري في الحكومة الوطنية الأولى (1954-1956م) وطلب منه العودة إلى البلاد والعمل مديراً أو وكيلاً في وزارة الري أو الزراعة.

وبينما كان بشير يعد العدة ويتأهب للعودة فرحاً مستبشراً بأن أمنيته قد تحققت بالعودة أخيراً كان القدر له بالمرصاد، فوافته المنية العام 1955م فجاءت الرياح في غير موسمها. وأقام أهله مأتماً كبيراً في منزل أخته رقية وزوجها ووالد أبنائها وبناتها عثمان محمد خير الفضل وذلك بحي الختمية بكسلا. كما أقيمت مآتم أخرى مماثلة لدى أشقائه في كل من مدني والأبيض وقد بكاه وحزن عليه أهل كسلا كثيراً كما حزن عليه أهل السودان جميعاً.. لأنه كان رمزاً من رموز الحركة الوطنية وابناً باراً من أبناء السودان وقد نعته أيضاً الحكومة الوطنية في ذلك الوقت برئاسة السيد إسماعيل الأزهري، وقد كان رفيقاً في السلاح والنضال والكفاح في ذلك الوقت لعلي عبداللطيف وعبدالفضيل الماظ وعرفات وتوفيق وعبيد والدرديري وغيرهم.

هذا وكانت حكومة الثورة المصرية بزعامة الرئيس جمال عبدالناصر قد خصصت معاشاً شهرياً لأسرة الراحل بشير عبدالرحمن كان يرسل باستمرار نهاية كل شهر لأختيه

رقيـة وعجيبـة وكان يرسـل بواسـطة أختهـما إلى السـيد حسـن إبراهيـم قريـن مديـر مديريـة كسـلا الأسـبق في نهايـة الخمسـينيات وبدايـة السـتينيات، إذا أن أمـه حليمـة كانـت قـد انتقلـت إلى جـوار ربهـا قبـل وفـاة ابنهـا بشـير بسـنوات قلائـل.

ويشـير عبدالرحمـن خـال أبنـاء عثـمان محمـد خـير (مدينـة وفاطمـة وسـتنا والفضـل عثـمان مـن والدتهـم رقيـة) ومدينـة هـي والـدة أبنـاء سـيد أحمـد العراقـي بكسـلا (محمـد الحسـن وإخوانـه ووالدهـا عثـمان محمـد خـير الفضـل آبـاؤه وأجـداده مـن شـيوخ شـندي وقندتـو، وهـو ابـن خالـة أمنـا الشـول زوجـة السـيد أحمـد الميرغنـي والـد السـادة السـيد محمـد عثـمان والسـيد الحسـن الميرغنـي والشريفـة السـيدة فاطمـة. كـما أن عثـمان محمـد خـير شـقيق أمنـا سـتنا زوجـة السـيد الحسـن الميرغنـي (أبوجلابيـة)، كـما أن بشـير خـال ميرغنـي وحسـن وخديجـة أحمـدي قريـن والـدة أبنـاء المرحـوم حسـن إبراهيـم قريـن مديـر مديريـة كسـلا آنـذاك مـن والدتهـم (سـت البنـات) كـما هـو خـال محمـد الحسـن الجـاك المعـروف بثقافتـه واجتماعياتـه الواسـعة في كسـلا في فـترة الأربعينيـات والخمسـينيات وذلـك مـن والدتـه (عجيبـة) ومـن أشـقاء بشـير عبدالرحمـن أذكـر بريـر عبدالرحمـن في مـدني وسر الختـم ومحجـوب عبدالرحمـن وإخوانهـم في الأبيـض وبـارا.

كان بشـير عبدالرحمـن مـع جانـب كونـه سياسـياً ومناضـلاً مـن أجـل الحريـة والاسـتقلال كان أيضـاً أديبـاً وشـاعراً.. لـه قصائـد شـعرية كثـيرة منهـا القصائـد الوطنيـة التـي أنشـدها للبـلاد ومنهـا القصائـد التـي تمجـد كسـلا وجمالهـا وطبيعتهـا السـاحرة، كـما فيهـا أيضـاً القصائـد والأبيـات العاطفيـة وكانـت الأشـهر في هـذه الجوانـب تلـك التـي أشـار إليهـا الأسـتاذ حسـن نجيلـة في كتابـه (ملامـح مـن المجتمـع السـوداني – الجـزء الأول)، وأيضـاً تلـك التـي أشـار إليهـا الأسـتاذ محجـوب عمـر بـاشري في كتابـه (مـن رواد الحركـة الوطنيـة)، واذكـر منهـا عـلى سـبيل المثـال قصيـدة (بنـت النيـل) وفيهـا يرمـز إلى السـودان مثـل قصيـدة (عـزة) التـي يرمـز فيهـا خليـل فـرح لأم درمـان.. وقصيـدة (بنـت النيـل) هـي التـي تغنـى بها الفنـان أحمـد المصطفـى ومازالـت تـزداد طربـاً وحـلاوة وعذوبـة عـلى مـر الأزمـان والأجيال.. ومنهـا أيضـاً قصيـداً يـا السـاكن جبـال التـاكا التـي يتغنـى بهـا الفنـان إسـماعيل عبدالمعـين.

وتشـير الروايـات ومـا كنـا نسـبمعه ونحـن صغـار السـن في فـترة الخمسـينيات، أن قصائـد بشـير عبدالرحمـن كانـت تمثـل تعبـيراً صادقـاً لحبـه الجـارف للسـودان وأهلـه وتوضـح تعلقـه الشـديد بمدينـة كسـلاالتي أحبهـا وتفنـن في وصفهـا.. فقـد نشـأ فيهـا

وترعـرع فظلـت مرتبطـة بوجدانـه وكيانـه وحياتـه إلى أن وافتـه المنيـة.. وكانـت قصائـده وخاصـة (يـا السـاكن جبـال التـاكا) وهـي مـن القصائـد الرمزيـة التـي يجتمـع فيهـا الجانـب الوطنـي كـما ينسـجم فيهـا الجانـب العاطفـي.. فكانـت تشـير وحسـب مـا كان يـروى أنـه كان تواقـاً للعـودة إلى الوطـن ليسـهم مـع أبنائـه مـن أجـل رفعـة البـلاد وتقدمهـا وتطورهـا بالإضافـة إلى رغبتـه الشـديدة في العـودة إلى كسـلا والـزواج مـن حسـناواتها ومـن حـي الختميـة عـلى وجـه التحديـد. ومـن أبيـات قصائـده وأشـعاره مثـل قصيـدة (بنـت النيـل) وقصيـدة (يـا السـاكن جبـال التـاكا) نتبـين ذلك..فكسـلا هـي عشـيقته ومحبوبتـه، بـل كانـت تمثـل لـه السـودان كلـه.. إلا أن أمنيتـه في ذلـك لم تتحقـق لا بالـزواج ولا بالعـودة.

وكان واقـع الحـال يقـول ذلـك: (لقـد كانـت مـن أصـول عريقـة، وذات حسـب ونسـب كـما كانـت عـلى قـدر كبـير مـن الحسـن والجـمال وطيـب المعشر)..انتقلـت إلى جـوار ربهـا العـام 1957م (تقريبـاً)، وكنـا آنـذاك في المدرسـة الوسـطى وقـد حـزن وبـكى عليهـا أهـل كسـلا جميعـاً لمنبتهـا الحسـن وحسـن معشرهـا وحنينهـا وعطفهـا الدافـق ومحبتهـا لـكل أهـل كسـلا وأبنائهـا الطيبـين وهـذه حقيقـة آسـف إن ذكرتهـا... وآسـف إن جهلتهـا ولكنهـا دلالـة عـلى حـب الجميـع لوطنهـم ولبلدهـم ولمدينتهـم السـاحرة بجمالهـا وبهائهـا وجبالهـا الشـامخة وفي ذلـك رمـز أيضـاً لعشـق أهـل كسـلا للعظمـة والجـمال. وكـما يقـول الشـاعر إيليـا أبومـاضي:

والذي نفسه بغير جمال   لايرى في الوجود شيئاً جميلاً

كان بشـير عبدالرحمـن يمثـل جيـلاً طموحـاً تحـدوه الرغبـة الأكيـدة في الخـلاص مـن المسـتعمر البغيـض.. ويعتـبر كـما أجمعـت الروايـات والمصـادر أنـه كان رائـداً مـن رواد الحركـة الوطنيـة بـل كان مـن طليعـة هـؤلاء الـرواد وبطـلاً مـن أبطالهـا تـرك كسـلا عنـد نهايـة الحـرب العالميـة الأولى أو بعدهـا بقليـل، في طريقـه للخرطـوم، التـي كان يعلـم أنهـا سـتحقق لـه أهدافـاً كثـيرة وعـدداً مـن طموحاتـه ورغباتـه منهـا:

أولاً: إنـه يسـتطيع أن يسـهم بقـدر وافـر مـع زملائـه وأقرانـه في الجهـاد والنضـال، ويمكـن لـه أن يلتحـق وينضـم إلى الجمعيـات التـي انتظمـت البـلاد لمناهضـة الاسـتعمار في ذلـك الوقـت مثـل: جمعيـة أبـوروف، جمعيـة ودنوبـاوي، وجمعيـة شـباب المـوردة، وجمعيـة ترقيـة الأكل البلـدي. وهـذه الجمعيـة الأخـيرة أشـار إليهـا الدرديـري محمـد عثـمان عضـو أول مجلـس سـيادة في السـودان 1954-1956م في كتابـه عنـوان (مذكـراتي)، وهـي

جمعيـة سياسـية اختـارت هـذا الاسـم لتمويـه وخـداع المسـتعمرين. وقـد تبلـور كفـاح هـذه الجمعيـات واتحـد مـع جمعيـة الاتحـاد السـوداني التـي تاسسـت العـام 1919م ثـم اتحـدت كلهـا في جمعيـة اللـواء الأبيـض، ثـم ثـورة العـام 1924م.

ثانيـاً: كان بشـير عبدالرحمـن يـدرك أنـه لا يمكـن الخـلاص والوصـول بالسـودان إلى المسـتوى الراقـي والمتحـضر والأخـذ بأسـباب المدنيـة الحديثـة ومسـايرة الغـرب إلا بالتعليـم. وكان مـع زملائـه أبطـال الكفـاح ينـادون دائمـاً بالتعليـم والقضـاء عـلى الفقـر والمـرض والجهـل.

الفصل الرابع
إزدهار الثقافة ورواد التعليم

ضاعف الشباب جهوده لتحصيل أكبر قدر من التعليم والحصول على المعلومات والثقافة التي تؤهله للقيام بدوره في تقلد المناصب الرئيسة في الدولة. واتجه بعض أبناء أقاليم البلاد إلى عاصمتها، كما اتجه بعضهم للدراسة في خارجها. فأوفد الآباء أبناءهم للتزود بالعلم في شتى نواحيه، وبذلك نهض التعليم والوعي نهضة واسعة في فترة الأربعينيات والخمسينيات عما كان عليه من قبل، الأمر الذي ساعد البلاد على نيل استقلالها بكفاءة عالية من الوعي والتوجه الحضاري، فمكنهم ذلك من النهوض بمرافق الدولة وإدارتها بكفاءة ومقدرة عظيمة، وكأحسن ما يكون الأداء. وقد أشار إلى ذلك روبرت هاو، آخر حاكم عام للسودان، في تقريره النهائي وهو يسلم الإدارة والبلاد للحكومة الوطنية الأولى، ولإدارة ولجنة السودنة: (إنه واثق كل الثقة بأنه يسلم الأمانة لشعب يعتبر من أعظم شعوب العالم الثالث كفاءة في الخدمة المدنية والإدارة والوعي الثقافي والحضاري ومستوى التفكير المتطور..الخ).

لقد اكتسبت كسلا شهرتها ومكانتها ودورها في الحركة الوطنية من خلال إسهاماتها الفاعلة والمؤثرة في النشاط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي. والكتابة عن رموزها في المجتمع وأوجه نشاط الحياة العامة، المدنية والعسكرية وغيرها، له مذاق خاص يأتي من باب الوفاء لكسلا، ومثابرة أبنائها وحرصهم وحماسهم للمشاركة والإسهام في التقدم والتطور والنهوض بالبلاد في شتى المجالات وجوانب الحياة كافة... والإشارة إلى بعض الرموز من أبناء كسلا في هذه الحلقات لا يقلل من شأن آخرين كان لهم دورهم الفاعل والإسهامات العظيمة في بناء الوطن.

لقد عرف أبناء كسلا مسالك العلم والمعرفة ومجالاتها المتعددة عن طريق أوسع الأبواب والمنافذ وتفوقوا في ضروب كثيرة في الطب والهندسة والصيدلة والاقتصاد والأدب والقانون والزراعة والبيطرة وغيرها، كما نبغ ولمع نجم كثير منهم في القوات النظامية، الجيش والبوليس والسجون، والبنوك والشركات وغير ذلك، فكانت لكل من هؤلاء شهرة تجاوزت حدود المنطقة والإقليم إلى خارج البلاد، وأصبح لعدد كبير منهم دور في القرار السياسي والفني والعلمي، كان أكثر فاعلية أثراً وتأثيراً، خاصةً في مجالات التعليم والصحة

والاقتصاد. ذلك لأن شباب كسلا ضاعف جهوده عندما توافرت الإمكانيات الرئيسية التي تساعد على تحصيل قدر كبير من التعليم والثقافة، كما سبق القول. وكان لانتنشار التعليم النظامي وازدهاره وازدياد عدد المدارس الثانوية في النصف الثاني من القرن العشرين قد فتح المجال واسعاً أمام شباب كسلا أن يطرق ويبحث في اختيارات عدة منها: الالتحاق بالجامعات التي تحوي تخصصات كثيرة ومتنوعة، أو الالتحاق بكليات القوات النظامية الحربية والشرطة والسجون، وكليات الصحة والغابات والمصارف، بالإضافة إلى فرص أخرى عديدة تتوافر في معاهد العلم المختلفة كمعهد شمبات الزراعي والمعهد الفني (جامعة السودان حالياً) وكليات التجارة والبنوك وغير ذلك.

وسأتناول في الفصول التالية، بإذن الله، رموزاً مهمة من مدنيين وعسكريين توافرت المعلومات عنهم في الوقت الحاضر، وأعلم تماماً أن هؤلاء وأولئك نجحوا في المجالات والتخصصات كافة، فأصبحوا رواداً ورموزاً في تاريخ كسلا الزاهر.. وسيأتي الحديث من بعد ذلك عن الحياة الاجتماعية والتركيز عنها ورموزها، وإعطاء صورة متكاملة عن النهضة الاقتصادية التجارية والزراعية وروادها، وكذلك النهضة الثقافية: الأدب والشعر والمبدعين في الفنون، ثم الحديث عن الحركة الرياضية وعمالقة العصر الذهبي.

وضح من البحث والدراسة أن عبدالله الحسن الخضر وأحمد إبراهيم خلوطي كانا من أوائل أبناء كسلا الذين نالوا حظاً وافراً من التعليم الأكاديمي منذ بدايته في المرحلة الابتدائية (الأولية) وحتى مرحلة الجامعة والتخرج فيها بدون انقطاع أو توقف. حيث أكمل الاثنان تعليمهما الجامعي في كلية غوردون الجامعية (جامعة الخرطوم).. بدأ عبدالله الحسن الخضر دراسته الأولية في مدرسة طوكر الأولية، ثم انتقل إلى مدرسة بورتسودان الوسطى، ثم أكمل دراسته الثانوية والجامعية في الخرطوم. شغل عبدالله الحسن بعد حصوله على الشهادة الجامعية مناصب إدارية عديدة في عدد من مدن البلاد، ثم عمل في الحقل الدبلوماسي قنصلاً وسفيراً للسودان بعد الاستقلال في دول أفريقية وآسيوية وأوروبية كثيرة، ثم تقلد مناصب وزارية كثيرة منها وزارة الداخلية ووزارة الخارجية، ثم حاكماً للإقليم الشرقي.. كان في بداية نشأته رياضياً بارعاً، لعب في فريق التاكا وكان من مؤسسي هذا الفريق.

أما عن أحمد إبراهيم خلوطي، فقد بدأ تعليمه في مدرسة كسلا الأولية (الأم) أو الأميرية الأولية، كما كان يطلق عليها في كثير من الأحيان، والتحق بعدها بمدرسة

بورتسـودان الوسـطى، ثـم أكمـل تعليمـه الثانـوي والجامعـي بالخرطـوم، كان زميـلاً في الدراسـة لعبداللـه الحسـن الخـضر، وتخـرج الاثنـان في جامعـة الخرطوم..تخصـص عبداللـه الحسـن في الآداب والإدارة، وتخصـص خلوطـي في الزراعـة، واسـتمر يعمـل في هـذا الحقـل حتـى وفاتـه تقريبـاً.

كان الاثنــان صاحبــي نشــاط اجتماعــي واســع، كــما كان دور كبــير في العمــل العــام الاجتماعـي والثقـافي والسـياسي المتضامـن والملتـزم مـع أصـل وروح الحركـة الوطنيـة المناهضة والمعاديـة للاسـتعمار، أمـا الثالـث فهـو المـرضي جبـارة الـذي واصـل تعليمـه إلى أن تخـرج في كليـة غـوردون التذكاريـة.

ظـل أبنـاء وشـباب البـلاد يتابعـون بإهتـمام بالـغ التطـورات العلميـة، ويحلمـون باليـوم الــذي يمكــن أن يســاير فيــه الســودان المدنيــة الحديثــة والتطــور والتقــدم الــذي يشــهده العـالم مـن حولـه، ويـرون أنـه لابـد مـن المتابعـة المسـتمرة والمواكبـة لمـا يسـتجد ومـا يطـرأ مــن تطــور في مجــال البحــث العلمــي الحديــث. وتجــاوب أبنــاء كســلا مــع هــذا التوجــه الحضــاري وضربــوا بذلــك أروع الأمثــال عندمــا بــدأ التفكــير بالأخــذ بالأســباب المدنيــة الحديثـة، وذلـك لشـعورهم بـأن البـلاد وهـي عـلى أعتـاب ومشـارف النصـف الثـاني مـن القـرن العشريـن، اصبحـت في حاجـة ماسـة وملحـة للتنميـة وتشـييد البنيـة الأساسـية، لذلـك أيقنــوا وصممــوا عــلى أنــه لابــد مــن النهــوض ووضــع اللبنــات التــي تســاعد عــلى البنــاء القــوي والمتـين، فالبـلاد تحتـاج للعلـوم العقليـة الحديثـة في الطـب والهندسـة والرياضيـات والفيزيــاء والكيميــاء والصيدلــة والمحاســبة والاقتصــاد، مثــل حاجتهــا للعلــوم النقليــة والإنســانية المختلفــة.. فالــدول الناميــة تحتــاج كثــيراً لهــذا النــوع مــن التعليــم - العلــوم الإنسـانية والنقليـة - والتعمـق فيهـا، وذلـك أمـر مهـم حيـوي لبنـاء الإنسـان وحيـاة أبنـاء الأمـة الذيـن هـم أسـاس التنميـة والبنـاء.

وقـد نبـغ أبنـاء كسـلا وتفوقـوا كل في مجالـه وتخصصـه، ففـي مجـال الطـب أذكـر عـلى سـبيل المثـال: هاشـم عـروة، محمـد الباشـا، هاشـم مانجيـل وإخوانـه، أحمـد عـلي عمـر، أحمـد عبدالحليـم باشـاب، حسـن أبوعائشـة، ميرغنـي عـلي الحـاج، حسـن عبدالماجـد كمـبر، حسـن الأنصـاري، حسـن عـواض، عـلي عبدالرحمـن محمـد، عبدالقـادر أحمـد خـير السـيد، عصـام السـمحوني، الفاضـل محمـد عثـمان، محمـد صديـق عـلي، حسـب الرسـول صديـق عـلي، أحمـد قاسـم، محمـد حمـد عبدالرحيـم الشـايقي، حمـزة هـارون، عبدالماجـد عثـمان

بخيت، السيد أحمد الميرغني، عادل محمد مصطفى عبدالعزيز محمد همد، إخلاص سليمان الخير، وعبدالله الزبير، ونادية علي صالح داؤد.. وغيرهم كثير.

وأصبح للجميع إسهام عظيم في مجال الطب وفروعه المختلفة، فاستفادت البلاد منهم ولا تزال تستفيد، بل البشرية كلها..واستفادت ولا تزال تستفيد دول عربية وأوربية وأمريكية، وهذه هي الكفاءة السودانية التي أشار إليها علماء العالم، وأشار إليها روبرت هاو، الحاكم العام البريطاني في السودان العام 1954م وهؤلاء وأولئك، وما يلي في المجالات الأخرى والتخصصات، مفخرة للسودانيين والبلاد باسرها.

أما في علم الهندسة بأقسامه المختلفة: المعمار والمدنية والكيميائية والكهربائية والميكانيكية والزراعية، فقد برز فيه عدد كبير من أبناء كسلا في جامعة الخرطوم أو المعهد الفني آنذاك أو في كليات الهندسة في خارج البلاد وأذكر منهم : محجوب محمد نميري، هاشم محمود، عثمان أحمد الشايقي، عمر محمد الحسن فقيري، محجوب عثمان فكي، أحمد الطيب (أبوكرة)، محمد عثمان محجوب، ياسر محمد أحمد عروة في هندسة الطيران، وعلي محمد الشيخ في الهندسة الزراعية، السعيد عثمان محجوب، عبدالله أحمد الشايقي، عبدالحميد عيسي، عبدالرحيم سليمان الخير، إدريس خوجلي، الحسن عمر الحسن (التوم)، الطاهر علي الطاهر، أمال أحمد سيد أحمد كشمبر وعمر محمد مصطفى.

أما في الصيدلة، فقد بحثت كثيراً فوجدت أن إبراهيم عبدالرحمن مصطفى فقط هو الوحيد الذي تخرج في الصيدلة في ذلك الوقت.

كان سيد محمد نميري من أوائل خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم خلفه بعد ذلك اثنان هما عبدالعزيز عبدالله بطران وأحمد حسن الجاك.. وجاء بعد هذه الكوكبة نافع محمود حامد، إسماعيل بخيت فضل السيد، حسن عبدالقادر هلال، فيصل يوسف مهيوب، مصطفى عثمان علي جيلاني، علي خليل إبراهيم، فاروق عبدالحليم محمود، الشيخ بابكر درويش، سيف خضر أبو سيف، محجوب عروة، مصطفى عبدالرحمن مصطفى، عثمان محمد عثمان، نور مأمون، عبدالإله محمد الحسن، بشير محمد الحسن النجيض، عمر عثمان الحسن، آسيا عمر الحسن، فوزية علي حميدان، إبراهيم عمر الحسن وأخوه موسى، عضو الكريم العراقي، سعد عبدالرحمن وآخرون..وقد احتل هؤلاء جميعاً مكانة مرموقة ومراكز مهمة في الدولة

والمجتمع، فعمل بعض منهم في الإدارة والاقتصاد ودوائر المال والسياسة والرياضة وأساتذة في الجامعات ورؤساء ومديرين للشركات وغير ذلك، وعلى سبيل المثال ابن الدفعة الصديق حسن عبدالقادر هلال الذي جمع بين الاقتصاد ورجل الأعمال الكبير السياسة والرياضة، فهو الرئيس الأسبق لنادي الهلال العظيم والسياسي البارز عضو حزب الحركة الوطنية الكبير. ومنهم كذلك إسماعيل بخيت وفاروق عبدالحليم.

وفي مجال الآداب وفروعها في العلوم الإنسانية أرجو أن أشير إلى أن أعداداً كبيرة من أبناء كسلا قد وقع اختيارهم لهذا الفرع المهم من فروع المعرفة، فالدول النامية كانت تحتاج ولا تزال تهتم بمجال الآداب للاستفادة منهم في بناء الإنسان الذي يتقدم بالاهتمام بالتنمية في النواحي الأخرى، كما أن البلاد تحتاج لهؤلاء الخريجين في عملية التعليم والحكومات المحلية والخارجية وغيرها.. ومن أبناء كسلا الذين التحقوا بكلية الآداب أذكر: سليمان عثمان فقيري، أحمد البشرى، محمد سعيد القدال، علي السمحوني، كرم محمد كرم، محمد علي زمر، السفير عثمان السمحوني، إدريس إبراهيم، أحمد محمد الحسن فقيري، محمد عبدالسلام محجوب (شوقي)، حسن إبراهيم شيا، عبدالله البشرى، بابكر العراقي، عمر بخيت فضل السيد، عثمان ضمرة، أضف إليهم الضباط العظام العميد عبدالله خليل إبراهيم، والعقيد محجوب برير محمد نور، وقد شغل كل هؤلاء وظائف مهمة ورفيعة في الجامعات والتعليم والحكومات المحلية والخارجية والصحافة والإعلام والسياحة والبريد والبرق والقوات النظامية وغيرها من مرافق ومصالح ووظائف تحتاج إليها البلاد في مجال التنمية والبناء.

القانون:

حفل مجال القانون والحقوق بنخبة خيرة من أبناء كسلا الذين اختاروا هذا المجال الذي تخرج في كلياته عدد لا يستهان به أصبحوا علماء جهابذة وفقهاء وقضاة ومحامين أكفاء، تمتعوا بالسمعة الطيبة والشهرة والعفة والأمانة لا تأخذهم في الحق لومة لائم، وشغل هؤلاء وظائف في القضاء أو العدل والنائب العام، أو المحاماة، منهم عبدالله أبوعاقلة أبوسن، حسين السمحوني، عبدالرحمن عبده، حسن الماحي، وتخرج بعدهم هاشم عبدالله ومحمد إدريس تيتة وسيد خضر أبوسيف.

الجدير بالذكر أن القانوني الضليع محمد إدريس تيتة هو الوحيد من زملائي وأصدقائي الذي لازمني في الدراسة منذ الأولية في مدرسة الختمية الأولية في مطلع

الخمسـينيات ثـم بقيـة المراحـل الدراسـية إلى الدخـول للجامعـة والتخـرج فيهـا العـام 1968م، التحـق بكليـة القانـون والتحقـت بكليـة الآداب، حتـى حفـلات هـذه المناسـبات والتـي يقيمهـا أهـل كسـلا كانـت تنظـم لنـا سـوياً.. وهكـذا كانـت كسـلا دومـاً وفـاءً وعطـاءً.. سـافر محمـد إدريـس للخـارج في بعثـات دراسـية للحصـول عـلى شـهادات أعـلى في القانـون، واشـتغل بالقضـاء وتقلـد مناصـب رفيعـة، وحتـى اليـوم هـو عـلى رأس العمـل وفي وظيفـة رفيعـة في هـذا المجـال، ولابـد أن أشـير إلى القـاضي طـه إبراهيـم محمـد طـه.

ومـن أبنـاء كسـلا مـن القانونيـين أذكـر كـمال محمـد الحسـن عـروة، الـذي حصـل عـلى شـهادتين جامعيتـين في القانـون: الأولى بكالوريـوس القانـون في جامعـة الخرطـوم، والثانيـة ليسـانس الحقـوق في جامعـة القاهـرة، ومـن هـؤلاء أيضـاً حسـن محمـد شـيخ إدريـس الـذي عمـل بالقضـاء والمحامـاة وأصبـح نائبـاً في البرلمـان عـن حـزب الأمـة في دائـرة كسـلا الغربيـة في انتخابـات 1986م وأصبـح وزيـراً للإسـكان في حكومـة السـيد الصـادق المهـدي في تلـك الفـترة، ومنهـم أيضـاً سـيد خـضر أبوسـيف ونجيـب الخـير عبدالوهـاب الـذي كان وزيـر دولـة بالخارجيـة في الحكومـة الحاليـة ثـم سـفيراً.. ولابـد أن أشـير إلى فقهـاء تخرجـوا في كليـة الشريعـة منهـم سـليمان محمـد سـليمان، وسـليمان محمـد كـرم، أسـاتذة الشريعـة في جامعـة أم درمـان الإسـلامية، بالإضافـة إلى السـيد أمـين الميرغنـي.

التربية :

مجـال التربيـة ومناهجهـا مجـال حيـوي مهـم، بـل ركيـزة أساسـية في حركـة التربيـة والتعليـم.. فهنـاك رواد كبـار اقتحمـوا هـذا المجـال وتخصصـوا في مناهـج التربيـة ونالـوا شـهاداتهم الجامعيـة في جامعـات لهـا شـهرتها ومكانتهـا أذكـر منهـم في هـذا المجـال: أحمـد إدريـس عبدالماجـد، تـاج السـر عبداللـه الشـيخ، محمـد طاهـر آدم، مختـار عبداللـه، هاشـم شرشـار، محاسـن عابديـن وميمونـة أحمـد عـواض في اللغـة الإنجليزيـة وآدابهـا.

كـما أن هنـاك أعـداداً كبـيرة مـن العلـماء الذيـن اشـتهروا بالبـوغ والعبقريـة في علـوم الرياضيـات والفيزيـاء فكانـوا أعلامـاً يشـار إليهـم بالبنـان منهـم: الزيـن حامـد محمـد عـلي، عبدالرحيـم الشـيخ والأبـوابي أحمـد وصـلاح صديـق عـلي وبعدالجليـل الـكاروري وعبدالعاطي أحمـد صـادق عـالم الجيلوجيـا وعلـوم باطـن الأرض المشـهور في الداخـل والخـارج كـما أذكـر الصديـق مصطفـى عثـمان فقـيري وإبراهيـم عثـمان نورالديـن في الكيميـاء وعلـوم الأحيـاء. ولابـد مـن الإشـارة إلى النابغـة العبقـري عـلي محمـد الوقيـع الـذي كان فريـد زمانـه في الـذكاء في الفيزيـاء والرياضيـات والعلـوم.

الزراعة والبيطرة:

اختـار عـدد لايسـتهان بـه مـن أبنـاء كسـلا مجـال الزراعـة والبيطـرة منـذ وقـت طويـل، فقـد سـبقت الإشـارة إلى بشـير عبدالرحمـن وأحمـد إبراهيـم خلوطـي، وتـلا ذلـك عـدد آخـر أذكـر منهـم: محمـد حسـن الجـاك في الزراعـة وأخـاه عبداللـه حسـن الجـاك، واصـل البروفيسـور محمـد دراسـاته في مجـال الزراعـة أسـتاذاً في جامعـة الخرطـوم وعميـداً لكليـة الزراعـة في جامعـة الخرطـوم، ثـم شـغل مناصـب وزاريـة في فـترة مـن الفـترات إلى أن وافتـه المنيـة يرحمـه اللـه. أمـا أخـوه عبداللـه فقـد واصـل هـو الآخـر الدراسـة والبحـث في مجـال البيطـرة أسـتاذاً في جامعـة الخرطـوم بكليـة البيطـرة إلى أن تمـت إعارتـه إلى إحـدى جامعـات الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ومـن هـؤلاء أذكـر صديـق عبداللـه عبدالعزيـز وأحمـد عثـمان عنـتر ومدحـت عـروة وحسـن صالـح بـيرق، وفي علـوم الصحـة أذكـر عبداللـه الزبـير عبداللـه (أسـد) وإبراهيـم حسـن محجـوب، كـما نبـغ آخـرون في علـوم الأبحـاث الطبيـة منهـم محمد الطيـب أحمـد (أبوكـرة) وأحمـد بابكـر محمـد أحمـد وعـلي محمـد الحسـن العراقـي.

كلية الفنون والإبداع:

لا يفوتنـي أن أشـير إلى عـدد مميـز مـن أبنـاء كسـلا أصبحـت لهـم شـهرتهم وصيتهـم وسـمعتهم الطيبـة في كليـة ا لإبـداع والجـمال أبدعـوا وتفننـوا في الرسـم وفنونـه وفروعـه المختلفـة التشـكيلية وغيرهـا مـن مـدارس حديثـة اشـتهرت في هـذا الفـن والمجـال المهـم، فمـن هـؤلاء الـذي تجـاوزت سـمعتهم حـدود البـلاد إلى خارجهـا بروفيسـور حسـين جمعـان والبروفيسـور أحمـد عبدالعـال وعـوض عثـمان الحسـن والنـور محمـد الحسـن وسـكينة حسـن قريـن، كـما أشـير إلى فـن آخـر لا يقـل أهميـة عـن تلـك الفنـون والعلـوم التـي أشرنـا إليهـا وهـو مجـال الموسـيقى والمسرح عـلى أسـس حديثـة تفـوق هـؤلاء في كلياتهـم الجامعيـة، فمنهـم الأسـتاذ أنـس العاقـب والصديـق المبـدع في موسـيقى الجـاز والقانـون والمسرح الأسـتاذ كـمال عثـمان كيلـة.

أساتذة لهم مكانتهم في التعليم العام:

لابـد مـن الإشـارة إلى أخـوة أجـلاء بذلـوا جهـوداً مضنية ومقـدرة في حقـل التعليـم العام وأسـهموا بـدور كبـير في تربيـة النـشء وتخريـج أجيـال عديـدة برعـوا في مجـالات مختلفـة فـكان لهـؤلاء دور كبـير في تعليمهـم وتربيتهـم عـلى أسـس سـليمة أذكـر عـلى سـبيل المثال

لا الحصر: محمود عبدالحليم محمود (الناظر) وهاشم خليل وياسين الطاهر وأحمد الحاج عبدالحفيظ وعبدالله الحاج وفضل الله عبدالله الشيخ، وأحمد بطران وعلي محمد علي وأخاه أحمد وصلاح عجب ومزمل محجوب وسليمان حسن محجوب وأبوذر بابكر درويش وعلي عثمان قدور ومحجوب حاج عثمان وعلي البخيتاوي وعبدالله عثمان مختار وأحمد بيرق والقدال اسحق القدال وعبدالله حسين العراقي. كما لا أنسى الإداري الناجح في مجال الإدارة المحلية علي الهداب (ضابط مجلس كبير).

وفي مجال ذي صلة بالمواهب والكفاء التي يتمتع ويذخر بها أبناء كسلا فلابد من الحديث عن البنوك والمصارف والشركات والسياحة الذي أتقنت مجموعة من أبناء كسلا عملها فيه وأجادت بصورة أصبحت مضرب المثل وكان رواد هذا المجال مدني محمد طاهر شريف وعوض الله الهادي وعبدالرحمن النور، ومحجوب همبلي ومحمد الحسن مصطفى وميرغني عبدالباسط وحسن عثمان وعلوية محمد أحمد سليمان وغيرهم، فقد عمل هؤلاء وأتقنوا عملهم في بنوك كسلا وغيرها مثل بنك باركليز (بنك الخرطوم) وبنك السودان والبنك التجاري السوداني..الخ. فقد عمل بعض الإخوان في هذه البنوك مثل عباس إدريس ومختار بارباي في البنك التجاري السوداني ومصطفى عثمان الذي سبقت الإشارة إليه عند الحديث في كليات الاقتصاد والتجارة، وقد عمل مصطفى عثمان لسنوات طويلة في بنك السودان وشغل فيه وظائف رفيعة.

أما مجال السياحة والفنادق والآثار فهو جانب مهم يعكس تطور البلاد وتاريخها الناصع عبر فترات التاريخ المختلفة، وأصبح هذا المجال موضع اهتمام الدول وعنايتها والسودان واحد منها، ومن ولج هذا المجال وحذق العمل فيه أذكر الدكتور سيد أحمد عبدالماجد كمبر وأحمد عبدالله سلطان الذي اختار مجال الفندقة والسياحة.

إلا أن الأمر المهم الذي لابد من الإشارة إليه أن عدداً من هؤلاء عاصروا الحركة الوطنية في ذروتها ومنهم من كان وقود نيرانها بمظاهراتهم وهتافاتهم ومنهم من أسهم بعد ذلك في حركة التنمية والبناء من بعد ذلك.. وقد عاصر هؤلاء بعضهم البعض ولكنهم عبروا عن الإرادة والعزيمة السودانية الحرة في التضحية والبذل والتصميم الجاد لتحقيق الاستقلال والحرية. كما أن جيل ما بعد الاستقلال أصبح مشبعاً بروح البناء والعزيمة لظهور سودان جديد ترفرف عليه أعلام المحبة والوئام والسلام.

تعليم البنات:

لم تظهر في كسلا مدارس أولية للبنات إلا في فترة الأربعينيات بل وفي أواخرها تقريباً أما المدارس الوسطى والثانوية فقد تأخر بعض الشيء. قامت أول مدرسة متوسطة في كسلا في فترة الخمسينيات، فكانت مدرسة كسلا الأميرية للبنات هي أول مدرسة تم إنشاؤها العام 1956م، وتأسست مدرسة كسلا الثانوية العام 1963م، وربما عاد هذا التاخير إلى عوامل متعددة، اجتماعية ودينية وثقافية، وربما عمد الإنجليز أيضاً لهذا التأخير.

ومهما يكن من أمر فإن تعليم المرأة القراءة والكتابة جاء متأخراً واستمر هذا التأخير حتى النصف الثاني من القرن العشرين، وقد توافرت معلومات ضعيفة عن التعليم ولا يتعدى ذلك أصابع اليد الواحدة، فأشار هؤلاء إلى أن نفيسة عبدالقادر بن عوف وجليلة حاج أمان ولطيفة عثمان كن من أوائل المتعلمات في كسلا، ومن ثم أصبحن من أوائل المعلمات. فكانت نفيسة عبدالقادر من أوائل المعلمات في مدارس كسلا الأولية للبنات، وزوجها التوم مختار الذي سبقت الإشارة إليه ضمن أوائل المدرسين في كسلا، و (يلقب في كسلا باسم ود علوم). أما لطيفة وجليلة وسكينة محمد يوسف فكن من أوائل المتعلمات في مدرسة الختمية الأولية. ثم تلت هذه المجموعة مجموعات أخرى، إلا أنها كانت محدودة العدد في تلك الفترة، والمعلومات المتوافرة تشير إلى أن نصرة أوشيخ وكسبة محمد الشيخ وعرفة مجذوب وفايزة حامد جفون. وفيما بعد ازداد عدد البنات اللاتي انخرطن في التعليم المتوسط.

وأذكر على سبيل المثال الدفعة الأولى في مدرسة كسلا الأميرية للبنات تأسست في العام 1956م ومنها: فوزية محمد الحسن عروة، ونور محمد يوسف، ونصرة أوشيخ، ونفيسة عواض، وإحسان علي عمر، وزينب جعفر، فتحية عبدالقادر، وفايزة الطيب الدويحي وفاطمة محمد الحسين وسعاد أحمد وعلوية عطية الله.

وكان الأستاذ حسن عواض هو أول ناظر لمدرسة كسلا الأميرية بنات. ثم تلت هذه المجموعة - بالطبع – مجموعات أخرى ودفعات متعددة، أشير إلى نماذج منها مثل : فاطمة بطران علي، وفاطمة حميدان وكوثر محمد الحسن العراقي.

والإشارة إلى أوائل المتعلمات تؤدي إلى كتابة أسماء أخرى نلن حظهن في القراءة والكتابة عند ظهور نشأة تعليم البنات في كسلا فأضرب مثلاً لذلك: آمنة إبراهيم

قرين(أمينة) وزينب الحسن محمد نور وفاطمة أحمد بريوزينب أحمد التوم (الملقبة بزينب الحاج، ولقب سندريلا، وهذا الأخير لازمها لفترة طويلة لأنها قامت بدور سندريلا في التمثيل بمدرسة الختمية الأولية خير قيام وأجادت هذا الدور ببراعة فائقة، استحقت فيها الإشادة والثناء) ومنهم أيضاً زينب سر الختم الشرفاء (البابوية).

وأذكر في هذا المقام أيضاً عامرية جعفر الحلنقي وعرفة محمد التوم ورقية وعلوية سرالختم الصافي، وخديجة وآسيا إبراهيم (دقلل) ومن بعد ذلك أختها نور. ومن بين هؤلاء أذكر بيت الأمان أحمد وزينب الشيخ المأمون وأختها نائلة ثم فتحية سليمان الخير وأمونة عبدالعزيز جوهر وعلوية الحاج عبدالحفيظ. ثم يجيء بعد ذلك فوزية محمد الحسن عروة ونصرة أوشيخ وآمنة بنت اليماني ونبيهة داؤد وبثنية وفتحية عبدالرحيم..

وفي مدرسة كسلا الأولية بنات أذكر عرفة مجذوب وفايزة جفون وقد عملت في حقل التربية والتعليم في مدارس كسلا وخارجها. وأذكر من المعلمات في المدرسة الوسطى سعاد حاج أحمد وسندس عبدالعزيز جوهر وفاطمة حميدان وفاطمة بطران وعالية أحمد إبراهيم ونبوية حامد جفون. وفي التعليم الثانوي أشير إلى نعمات مصطفى وأمونة شنقراي. وأرجو أن أضيف عدداً آخر من المعلمات الأوائل في كسلا هن: فاطمة محمد نور وزينب عبدالله محمد صالح وعائشة مجذوب ونايلة عمر الحسن ونور عبدالله محمد صالح وآسيا مجذوب ومريم ياسين وسعاد حسين وجليلة يوسف عبود وسنية عبدالله مختار وإحسان عبدالله بن عوف وبنات محمد الحسن جريس (التومات).

وعلى كل فإن لهؤلاء وأولئك المعلمات والمتعلمات دور مهم ومؤثر في التربية والتعليم وتطوير البيئة وحمايتها وإبراز دور المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية. وقد ازدهر التعليم بهؤلاء ومن جاء من بعدهن، فازداد عدد المدارس الأولية والمتوسطة، وظهرت مدرسة ثانوية للبنات تأسست في عام 1963-1964م، والتحقت بهذه المدارس الأولية والمتوسطة والثانوية أعداد هائلة من الطالبات من المدينة وضواحيها ومن القضارف وأروما ووقر وحلفا الجديدة وخشم القربة وبورتسودان.. وما يزال التعليم ينهض ويزدهر، وأنا على يقين بأن ولاية كسلا وعلى رأسها الأخ والي كسلا ستولي اهتماماً عظيماً لرعاية المبدعين والمتفوقين من الشباب، على أن تسهم معهم جامعة

كسلا في هذا الدور الذي سيكون له أكبر الأثر في الإبداع والتفوق. وحسناً فعلت الدولة بتكريم الباحثين والمبدعين عندما خصصت جوائز لهذا الغرض، مثل جائزة الشهيد الزبير محمد صالح وغيرها.

كما تقع على جامعة كسلا مسؤولية الاهتمام بتطوير البحث العلمي ومناهجه بالدراسة العلمية المتأنية التي تساعد على تنمية وتطوير البيئة والمجتمع في المرافق المختلفة التي تساعد على انتعاش وازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإسهام الفاعل والمؤثر في التوسع في المشروعات الحيوية التي تستفيد منها المنطقة كلها، وذلك حتماً سيساعد في الاستقرار وتوفير الحياة الكريمة وتهيئة البيئة الصالحة والمناخ الملائم للعمل والإنتاج. وسينعكس ذلك بالتالي على تحقيق الحياة الفاضلة والمثالية التي يسودها الترابط والإلفة والتآلف بين أهل الشرق العظيم والرابطة الإسلامية فوق العصبيات.

وأرجو مخلصاً أن أنوه مرة أخرى بأن الذين سبقت الإشارة إليهم جميعاً، جاء ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ولم أتعمد أن أهمل اسماً بالقصد أو سوء النية ولكنها محدودية الذاكرة، فكل ما أرمي إليه الإشارة هو اهتمام أبناء كسلا - بنين وبنات - بالتعليم في كسلا منذ ظهوره، واستمر عطاء هؤلاء بالعزم والإصرار والثبات، ينهلون من فيض المعرفة ومواعين الثقافة الثرة، ولن تتوقف مثابرتهم وحرصهم بل سيواصلون اهتمامهم بالعلم والتعليم من أجل رقي البلاد وتطويرها إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أبناء كسلا في القوات النظامية:

القوات النظامية الجيش - الشرطة - السجون في كل مكان هي الركيزة الأساسية والدعامة الأولى لحفظ الأمن والاستقرار والدفاع عن البلاد وحدودها والحفاظ على استقلالها السياسي ووحدة ترابها.

وقد ظهرت هذه القوات كقوات نظامية منذ دخل السودان تاريخه الحديث، بل ومنذ قيام السلطنة الزرقاء أو سلطنة الفونج الإسلامية في سنار، إلى عصر الأتراك ودولة المهدية والحكم الثنائي حتى وقتنا الحاضر.

وقد كانت لهؤلاء السودانيين بطولات ومواقف بطولية خاصة في الدفاع عن أرض الوطن وترابه وعزته.. وحتى في الحالات التي خضعت فيها البلاد للسيطرة الأجنبية،

كان السـودانيون في هـذه القـوات يدافعـون عـن شرف البـلاد وعزتهـا وكرامتهـا وحبـاً في استئناف القتـال وعـدم الاسـتكانة والاستسـلام.

كـما كان بعضهـم يتعـاون مـع الوطنيـين الشرفـاء الذيـن يناضلـون مـن أجـل اسـتقلال البـلاد وسـيادتها، كـما أشرنـا إلى بعـض مـن قبـل، وتبـارى الشـعراء والأدبـاء في تمجيـد هـؤلاء البواسـل والاعتـزاز والفخـر بشـجاعتهم وبطولاتهـم الفـذة.. (يجـوا عايديـن الفتحـوا كـرن باينـين يـا اللـه..).

كـما سـجل لهـم التاريـخ بسـالة وشـجاعة وبطولـة نـادرة في شـمال أفريقيـا وأثيوبيـا وأريتريـا وغيرهـا، بـل أظهـر آخـرون ترسـلهم الجامعـة العربيـة كقـوات للمراقبـة أو لحفـظ الأمـن والاسـتقرار في بـلاد عربيـة شـقيقة شـجاعة وبسـالة وسـمعة طيبـة وأسـهمت أعـداد كبـيرة مـن السـودانيين في بنـاء قـوات نظاميـة في دول عربيـة وأفريقيـة كثـيرة في التدريـب والتجنيـد والتسـليح..الخ، ومـن هـؤلاء مـن نـال الشـهادات العاليـة والأوسـمة والجوائـز والنياشـين والميداليـات الرفيعـة.. كان حـظ أبنـاء كسـلا منهـا وافـراً.

كانـت أول فرقـة عسـكرية وحربيـة تكونـت في زمـن الحكـم الثنـائي هـي (فرقـة العـرب الشرقيـة) التـي تطـورت في مـا بعـد وأصبحـت نـواة للقيـادة الشرقيـة في كسـلا، وكان ذلـك خـلال أعـوام 1915-1920م وكانـت أسـاس هـذه الفرقـة مـن البدايـة أبنـاء البنـي عامـر أمثـال الخليفـة الحـاج آغـا والـد حسـن وعبدالرحيـم ومـن أحفـاده أبنـاء إدريـس تيتـة وأبنـاء الحـاج عثـمان الحلنقـي (اسـحق وإخوانـه)، وأبنـاء حامـد همـد همد..الـخ، ومـن مؤسـسي هـذه الفقـرة أذكـر أيضـاً طيفـور وباتوقـي وعـلى محقـر (والـد اللـواء عمـر محقـر)، وفايـد محمـد (جـد اللـواء سـليمان جوهـر).

ومـن أفرادهـا أيضـاً عثـمان آدم وهـو مـن أوائـل المجنديـن المشـهود لهـم بالكفـاءة العسـكرية والحربيـة، وقـد سـجل هـؤلاء جميعـاً بطـولات عظيمـة في الحـرب التـي اشـتركوا فيهـا ونالـوا مـن الأوسـمة والنياشـين الـشيء الكثـير، وكانـوا مـضرب المثـل في الشـجاعة والبسـالة.

ومـع هـذا النفـر نذكـر أيضـاً حسـب اللـه عمـر (المشـهور في كسـلا باسـم حسـب اللـه الضابـط).

ثـم تـوالى بعـد ذلـك التحـاق أبنـاء كسـلا في الجيـش أو قـوة دفـاع السـودان وهـو الاسـم الـذي ظـل معروفـاً طيلـة فـترة الحكـم الثنـائي للبـلاد. وعـلى سـبيل المثـال أذكـر

عثمان علي كيلة وحمد أحمد عواض – وهم من أقدم ضباط تلك الفترة – ثم جاء بعد ذلك ضابطاً في القوات المسلحة اللواء محمد أحمد عروة الذي عمل ضابطاً في مواقع وقيادات كثيرة في البلاد، واشترك في الحرب العالمية الثانية مع زملائه في شمال أفريقيا وأريتريا (كرن)، ومنحته الدولة كثيراً من النياشين والأوسمة، اشترك مع الفريق إبراهيم عبود في انقلاب 17 نوفمبر 1958م بعد أن طغت الخلافات الحزبية واضطربت أحوال البلاد السياسية.

أصبح وزيراً للتجارة ثم وزيراً للداخلية في هذه الحكومة حتى قيام ثورة أكتوبر 1964م عمل عدد من أبنائه في القوات النظامية منهم اللواء الفاتح عروة الوزير والسفير، وياسر المهندس في سلاح الطيران، وطارق الضابط في الشرطة، ويوسف كضابط في القوات المسلحة، أما يحيى فقد اختار مجال الطب.

ومن أبناء كسلا في القوات المسلحة أذكر الصاغ والأديب محمود أبوبكر – عمل ضابطاً في القوات المسلحة – وهو من أبناء الحلنقة – اشترك في مواقع كثيرة خاضتها القوات المسلحة ضد قوات المحور الثلاثي، وهو شاعر النشيد المشهور في الحركة الوطنية (صه يا كنار)، ومن روائعه أيضاً قصيدته المشهورة (زاهي في خدره) التي يتغنى بها الفنان الكبير أحمد المصطفى.

ولا يفوتني أن أذكر بعضاً من أفراد أسرته الذين لهم دور كبير في المجتمع ومنهم شقيقه أحمد أبوبكر وأبناؤه حسن والمربية والأستاذة آمال محمود أبوبكر.

وهناك أعداد أخرى من أبناء كسلا التحقت بالقوات المسلحة منذ وقت مبكر، منهم محمد علي السيد بيه وعبدالله عواض ومحمود عثمان كيلة، ثم ظهرت مجموعة أخرى من بعد ذلك أشير إلى بعض منهم – حسب المعلومات المتوافرة لدي – وهم عبدالمنعم أحمد بري وعثمان إبراهيم دقلل وشكيلاي ويحيى عمر قرينات ومحجوب برير محمد نور وسليمان جوهر وعبدالله خليل إبراهيم وعمر علي محقر وعمر العوض الأصم وعلي الحاج الطاهر وعلي حسن عبود وأحمد طه، وآدم أمين أوشيك وكلهم من أصحاب الكفاءة العسكرية والحربية ومشهود لهم بالكفاءة والتخطيط والعبقرية العسكرية، وسأتناول سيرة بعض منهم بشكل موجز وحسب المعلومات المتوافرة في لوقت الحاضر.

عقيد عبدالمنعم أحمد بري (1937-1991م):

ولد في حي الختمية كسلا العام 1937م، التحق بمدرسة كسلا الأولية ثم الأميرية الوسطى، فمدرسة المؤتمر الثانوية بأم درمان، التحق بالكلية الحربية العام 1957م وتخرج فيها ضابطاً العام 1959م وكانت كسلا أولى المناطق التي عمل فيها، حيث التحق بالقيادة الشرقية التابعة للواء الرابع مشاة كملازم ثاني في البداية، وتنقل في مراكز هذه القيادة التي كان مركزها القضارف، تنقل ما بين القضارف – كسلا – جبيت، ثم التحق بعد ذلك بالفرقة الثالثة سلاح المهندسين، وحصل على بعثان ودورات في العلوم العسكرية والهندسية بالمملكة المتحدة خاصة في كلية المهندسين في جاتام -Ghatam، اشترك عبدالمنعم بري في عمليات عسكرية عديدة، وكان يعمل في جهات قرقر وقان لمراقبة الحدود الشرقية في تلك الجهة، كما كان قائداً لفرقة عسكرية في حلايب في بعض حالات التوتر في تلك المنطقة. ومشهود له بأعمال بطولية كثيرة وأعمال حربية عظيمة معروفة في جنوب السودان، كان خبيراً في إزالة الألغام والجسور المهمة، وبينما هو يقوم بهذا الواجب الكبير أصيب في أواخر عام 1964م بانفجار لغم في طريق جوبا – ياي وهو يؤدي دوره الوطني والعسكري في تلك الجهة كأحسن ما يكون الأداء.

أحيل للتقاعد العام 1967م حسب قرار اللجنة الطبية فاختار مدينة كسلا بعد المعاش للعمل فيها بالإعمال الحرة حسب طلبه، ثم طلب منه العمل إدارياً للأبحاث الزراعية بودمدني خلال 1969-1970م ولما قامت ثورة مايو 1969م طلبت منه قيادتها العودة والعمل كضابط في جهاز الأمن القومي في وظيفة منصب مدير الإدارة، ومن ثم نائباً لمدير جهاز الأمن القومي، وظل يعمل في هذا الجهاز إلى أن أحيل للتقاعد العام 1977م، وقد تلقى خلال تلك الفترة دورات في المخابرات بموسكو العام 1971م، ثم ترأس وفد المخابرات لزيارة العبور بمصر العام 1977م، عاصر انقلاب المقدم حسن حسين والعميد محمد نور سعد، وكان له دور كبير مع يحيى منور وآخرين في إعادة سلطة مايو العام 1976م.

ولعبدالمنعم بري مواقف إنسانية عظيمة كثيرة هي التي دفعتني لكتابة هذه السطور، وهي مساندته ووقوفه مع المنكوبين والمقهورين والضعفاء والفقراء، وكانت له مواقف إنسانية نبيلة في مواسم فيضانات نهر القاش 1975-1988م والكوارث التي أحدثها فيضان نهر القاش، فكان عضواً في لجنة كوارث فيضان القاش التي اجتاحت

مناطق عديدة في البلاد، كما كان سكرتيراً للجنة كسلا التي ترأسها المرحوم عمر الحاج موسى، ثم أصبح رئيساً للجنة الدائمة لدرء فيضان القاش وإعانة المنكوبين في هذه الفيضانات. وقد اشتركت عضواً معه في هذه اللجنة وغيرها، ووجدت فيه الحرص والشهامة والتصميم الجاد لرفع المعاناة عن أهل كسلا الطيبين الخيِّرين، وأذكر أنه كان دائم الاتصال بالقوات المسلحة لتوفير طائرات الهيلكوبتر ومواد الإغاثة ونقلها وإرسالها إلى كسلا مباشرة لإغاثة أبنائها المتضررين والمنكوبين جراء هذه الكوارث، وكان له دور كبير ومشهود في إعادة المدينة إلى سابق مجدها، وكان دائم الإشادة بأهل كسلا، فخوراً بأبنائها وشهامتهم وحبهم وتعلقهم بمدينتهم الفاضلة والباسلة، وكانت زوجته الفضلى فوزية محمد الحسن تقف معه باستمرار وتسانده في مواجهة هذه المحن وتسهم معه بوقتها وجهدها في هذه المواقف النبيلة والمخلصة ذات الدافع والواجب الإنساني، وتشد من أزره وهو يرتب ويضع الخطط اللازمة لتخفيف حدة الأزمة عن كسلا وأهلها.

كما كان له دور اجتماعي ونشاط رياضي كبير في كسلا عمل مع أبناء كسلا من أجل تطوير الرياضة في كسلا، وكان عضواً في عدد من لجان نادي التاكا، وما زلت أذكر نشاطه وجهده في تسجيلات العام 1959م لصالح نادي التاكا كسلا، حيث استطاع أن يحشد عددا كبيراً من خيرة اللاعبين في منزله توطئة لتسجيلهم بفريق التاكا، أذكر منهم عباس شاويش وقيلة وكانا من أميز اللاعبين في كسلا ومن أبرز هدافي فريق الميرغني، إلا أن قراراً جاء من الخرطوم في نفس الليلة بإلغاء التسجيلات في كسلا إلى حين إشعار آخر وكان منزله في تلك الأيام بمثابة غرفة تسجيلات نادي التاكا، ولا أحد من الفرق الأخرى يستطيع الاقتراب من منزله الذي كان يمتلئ بأميز اللاعبين لأنه كان ضابطاً والمنزل تحت الحراسة القوية.

وعبدالمنعم هو الذي شيد الجسور والسدود في منطقة مروي بعد فيضانات العام 1988م، وحمى هذه المنطقة من شرور الفيضانات وأخطارها، وظل يواصل هذا الدور الكبير إلى أن وافته المنية العام 1991م كما أن له دوراً عظيماً في تنمية وتطوير وتنظيم مدية القادسية والرقي بها.

ترك (عليه رحمة الله) من الأبناء تيسير وإنعام ومازن. والجدير بالذك أن هؤلاء الثلاثة أطلقوا على أبنائهم اسم (عبدالمنعم) تخليداً لهذا الفارس الكبير.

عقيد عثمان إبراهيم دقلل:

تلقى تعليمه الأولي والأوسط بكسلا، وأكمل تعليمه الثانوي بمدرسة الأحفاد الثانوية، والتحق بالكلية الحربية العام 1957م وتخرج برتبة ملازم ثاني، ثم تنقل في عدد من قيادات البلاد العسكرية منها القيادة الشرقية بمديرية كسلا، والقيادة الجنوبية، عمل في سلاح المهندسين، ونال دورات عسكرية خارج البلاد، بعد التعاقد، عمل دقلل مديراً في إحدى مؤسسات الدولة خلال فترة السبعينيات واستمر فيها حتى وفاته العام 1985م. وعثمان دقلل من الأسر العريقة والمشهورة في الشرق عامة، فوالده هو الناظر إبراهيم محمد عثمان دقلل ناظر عموم البني عامر في شرق السودان وأريتريا. كانت لعثمان دقلل علاقات اجتماعية واسعة، وكان طيب المعشر، كريماً فاضلاً يتمتع بأخلاق وسمعة طيبة. كان يتفانى في حب وإخلاص كسلا وأبنائها، وكثيراً ما كان يهدي لنا نماذج قيمة تعكس تراث كسلا الديني والثقافي ومن أشهر ما تميز به عثمان دقلل كرمه الفياض – شأن أسرته في ذلك، وهو كثير الوفاء لأهله وأصدقائه. وقد ارتبطت سنواته الأخيرة بالكثير من أعمال البر والإحسان خاصة في مجال الأعمال الخيرية والاجتماعية – ويهتم كثيراً بتطوير المدارس والمرافعة العامة، وكثيراً ما انهالت بترعات وإنفاق على المنشآت التعليمية خاصة في مدارس التعليم العام - يرحمه الله رحمة واسعة – وحفظ الله ابنه أمير وابنته انتصار ووالدتهما إحسان وبار الله له في ذريته.

اللواء الركن: سليمان عبدالعزيز جوهر:

تخرج في الكلية الحربية في يناير 1963م، وعمل في معظم قيادات القوات المسلحة في الشمالية والغربية والجنوبية والشرقية بكسلا، وعمل في جميع المعاهد العسكرية، ونال دورات في الداخل والخارج منها: دورات في بريطانيا والعراق ومصر والأردن والهند، وأصبح مديراً لفرع شؤون الضباط وفرع التدريب وقائداً للقيادة الشمالية. وعهد إليه قيادة القوات المسلحة التي أرسلت للعراق أثناء الحرب العراقية – الإيرانية، ثم انتدب بدولة الإمارات العربية المتحدة، وقائداً لإحدى الوحدات بالإمارات (زايد بن حمد آل نهيان)، حصل على درجة الماجستير في العلوم العسكرية بجامعة مؤتة الملكية الأردنية. وفي المجال الأكاديمي تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم. عمل في مجالات اجتماعية وثقافية ورياضية كثيرة، وكان له نشاط اجتماعي ورياضي واسع في البلاد، خاصةً في مدينة كسلا حيث أصبح سكرتيراً لنادي التاكا الرياضي،

كما كان عضواً في كل لجان درء الكوارث عن كسلا في مختلف الأوقات، وقد عملنا سوياً كمجموعة، أذكر منها عبدالمنعم بري ومحجوب عروة وباشري عمر كشة وبابكر العراقي وآخرين كثر. وسليمان جوهر يدعو باستمرار لفكرة تجمع ورابطة أبناء كسلا، وهو على استعداد أن يكون مكتبه مفتوحاً لرابطة أبناء كسلا لمعالجة مشكلات وهموم كسلا، أسس شركة جمام للتنمية ويباشر فيها أعماله التجارية المختلفة وجمام واحة خضراء تقع على ضفاف القاش، واللواء جوهر متزوج وأب لخمسة أبناء، وزوجته من المعلمات الأوائل اللاتي تخرجت على يديها الآلاف من المتعلمات في مجالات مختلفة، وتوزع الأبناء بين الطب والهندسة، أماني إختصاصية طب أطفال، إيمان مهندسة معمار، محمد مهندس مدني، انتصار مهندسة مدنية، أما إسراء تخصصت في طب الأسنان، يحفظهم الله جميعاً، تخرج على يديه الكثير من طلاب الكلية الحربية منهم اللواء علي عبود، واللواء الفاتح عروة، العميد آدم أمين، والعميد أحمد طه، والعميد مصطفى عبدالرحمن والعقيد الفاتح علي الحاج.

كان لكسلا عدد من الأصدقاء والأحباب الذين يتمنون الانتماء إليها.. بل يحسب أهلها أن هؤلاء من أبناء كسلا لارتباطهم الشديد بكسلا وتعلقهم بها إلى درجة تفوق حد الوصف ومن هؤلاء من تلقى بكسلا تعليمه الأولي والأوسط، فاذكر من هؤلاء العميد أحمد الشيخ محمد علي واللوء خضر الحسن محمد واللواء كشة، فالكثير من أهل كسلا يعتبر هؤلاء وغيرهم ممن ارتبط بعلاقات واسعة بأهل كسلا -إنهم من أبناء كسلا لعلاقاتهم الوطيدة بأبنائها.

العقيد الركن: أحمد طه محمد الحسن (الجنرال):

الأديب والشاعر والصحفي اللامع، من مواليد كسلا العام 1948م تلقى بداية تعليمه في مدرسة الميرغنية الغربية، أكمل تعليمه في مدرسة كسلا الأهلية الوسطى، ثم انتقل إلى مدينة الأبيض حيث أكمل فيها تعليمه في هذا الفن الرفيع في معهد كردفان للموسيقى، كما هو عضو مؤسس لجمعية أونوس الأدبية، عمل في الصحافة منذ التحاقه بالستينيات قبل التحاقه بالقوات المسلحة ثم استأنف العمل فيها مرة أخرى في مطلع الثمانينيات حيث تبوأ نائب رئيس تحرير جريدة (القوات المسلحة) ونائب شعبة الصحافة والإعلام في التوجيه المعنوي، تلقى دراسات عسكرية متقدمة في الولايات المتحدة الأمريكية في أكاديمية بننج بجورجيا، عمل بمعظم وحدات القوات المسلحة، وتقاعد في مارس 1991م.

كان أحمد طه عضواً بارزاً في لجان أبناء كسلا بالخرطوم، وهاجر لدولة الإمارات العربية وعمل في مجال الصحافة والبحوث، وعاد إلى أرض الوطن في منتصف العام 2004م حيث عمل مستشاراً لصحيفة (الاقتصادية)، كما هو مساعد رئيس تحرير صحيفة (السوداني) والمشرف العام على العدد الأسبوعي (مجلة في جريدة)، نال درجة الماجستير في العلوم العسكرية بكلية القادة والأركان السودانية، وفي مجال الرياضة كان لاعباً (حارس مرمى) في فريق الأهلي الرياضي – كما كان حارس مرمى شيكان لبعض الوقت، كما لعب لفريق الكلية الحربية للدفعة (23)، وفي مجال الإدارة الرياضية شغل أحمد طه منصب رئيس إتحاد كرة القدم بالقضارف، ثم رئيساً لإدارة نادي الميرغني الرياضي بكسلا، كان له نشاط بارز وعملنا معاً في لجان درء خطر فيضانات القاش – وبذل جهداً مقدراً مع زملائه أعضاء لجان أبناء كسلا بالخرطوم في موضوع الكوارث التي تجتاح كسلا جراء الفيضانات أو الاحتفال برموز أبناء كسلا في المحافل المختلفة، وكان دور هذه اللجان واضحاً وبارزاً وكان لها الإسهام الفاعل، خاصةً في مجال توفير الغذاء والكساء وإعانة المنكوبين، يلقت أحمد طه بلقب (أبوعزة) وهو اللقب الذي اشتهر به في المجتمع، وعزة هي كبرى بناته التي تعد أطروحتها لنيل درجة الماجستير في القانون بجامعة الخرطوم – وتدرس مهيرة في كلية الصيدلة بجامعة الأحفاد – وتواصل مضر دراستها في المرحلة الثانوية، أما أبناء أحمد طه فيعمل محمد الحسن في الأعمال الحرة، ويدرس عبدالناصر في جامعة الرباط ونتمنى لياسر دخول الجامعة هذا العام.

هذه نماذج لأبناء كسلا من ضباط القوات المسلحة، وأيضاً منهم اللواء عمر محقر، العميد الفاتح علي الحاج، العميد معتصم دقنة العميد محمد أحمد قضوة والعميد عمر دجمدير المتحف الحربي حالياً، وأذكر من العقداء علي مجذوب والعقيد مصطفى حمزة وأخيه العقيد مدثر.

قوات الشرطة:

يعتبر أحمد محمد عواض من أوائل ضباط الشرطة في السودان، وأحمد عواض من أسرة عواض المشهورة في المنطقة تنقل ضابطاً كبيراً في الشرطة في عدد من مدن السودان الكبرى مثل عطبرة والخرطوم وغيرهما، وأذكر من الضباط المشهورين أيضاً اللواء عوض الله عثمان وفاروق إسماعيل وفتحي حسن والي وجعفر علي والصادق مجذوب ومدني محمد مدني (الصديق والدفعة)، كما أذكر أيضاً عبدالرحمن وشوقي

الشايقي يعقوب وعبدالرحمن الهادي مبروك (ويشغل حالياً وكيل جامعة الرباط)، ومن هؤلاء أشير إلى العميد أحمد محمد أونور (وأعتقد أنه يشغل حالياً نائب مدير الجوازات)، وهناك أيضاً العقيد شرطة جعفر صديق قنصل السودان في بريطانيا، والعقيد معاش ميرغني عثمان فقيري (الجمارك والجوازات)..الخ، وأذكر عن مدني محمد مدني أنه كان متفوقاً في دراسته ويتمتع بذكاء حادٍ وثقافة واسعة.

السجون:

أقدم أبناء كسلا الذين عملوا في السجون هو هاشم محمد الوقيع الذي ترقى في سلم إدارة السجون إلى أن وصل إلى قائد السجون في كل من كسلا والخرطوم، تمتع بشهرة واسعة في هذا الحقل، وله مكانة اجتماعية ودور فاعل في المجتمع، واشتهر بالتفاني والإخلاص في عمله وكان غيوراً على مصلحة البلاد ويعمل ليل نهار في خدمة وطنه في هذا المرفق المهم ومختلف أوجه النشاط الاجتماعي والرياضي. ومن أبناء كسلا في قوات السجون أذكر علي ياسين الذي تقلد مناصب مهمة في إدارة السجون ومشهود له بالكفاءة والإخلاص في عمله.

الفصل الخامس
كسلا بين الحرب العالمية الثانية والاستقلال

في فـترة ازدهـار الحركـة الحركـة الوطنيـة وخـلال الحربـين العالميتـين، أي في النصـف الأول مـن القـرن العشريـن، أثمـرت جهـود الحكـم الثنـائي في البـلاد وأصبـح هنـاك عائـد مـادي رغـم ضآلتـه سـاعد في تطويـر الزراعـة ودعـم الحركـة التجاريـة، مـع العمـل عـلى تطويـر زراعـة القطـن وإنشـاء مـشروع الجزيـرة. وشـهدت تلـك الفـترة تطـوراً ملحوظـاً في طـرق المواصـلات خاصـة السـكك الحديديـة مثـل خـط الشـمال مـن حلفـا إلى الخرطـوم وخـط سـواكن – بربـر، وخـط الخرطـوم – مـدني، وخـط الخرطـوم – الأبيـض، وخـط طوكـر – ترنكنـات، وخـط كسـلا – هيـا العـام 1924م.

ثـم تـم مـد خـط كسـلا ليصـل إلى القضـارف العـام 1928م، وسـنار العـام 1929م، وأمكـن عـلى ضـوء ذلـك تقديـم نـوع مـن الخدمـات الاجتماعيـة والصحيـة والإسـكان والتعليـم، وبـدأت مرحلـة تشـغيل الأيـدي العاملـة وضرورة الاسـتفادة منـه.

عندمـا تعـرض العـالم للأزمـة الاقتصاديـة في بدايـة الثلاثينيـات مـن القـرن العشريـن كان مـن الطبيعـي أن تتدهـور الأحـوال الاقتصاديـة في البـلاد، وانخفضـت أسـعار المنتجـات وقـل عائدهـا إلى أربـع أو خمـس سـنوات منـذ العـام 1930م، فانصرفـت جهـود الحكومـة لإنقـاذ موقفهـا الداخـلي وخاصـة تحسـين الأحـوال الاقتصاديـة، بالإضافـة إلى انشـغالها بتدعيـم جيوشـها الحربيـة بعـد ظهـور النازيـة والفاشـية وتهديـد هتلـر وموسـليني للسـلم العالمـي، خاصـة بعـد أن تقدمـت الجيـوش الإيطاليـة نحـو أثيوبيـا وأريتريـا وباتـت تهـدد كسـلا في شرقـي البـلاد.. كل هـذا يحـدث في وقـت تبلـورت فيـه الحركـة الوطنيـة بعـد مؤتمـر الخريجـين حيـث نمـت وتطـورت مراحـل الثـورة الوطنيـة في بدايـة الأربعينيـات.

شـهدت الفـترة مـا بـين 1940-1956م مرحلـة بنـاء القوميـة السـودانية، وازدهـار فكـرة التحـرر الوطنـي والتخلـص مـن السـيطرة الأجنبيـة بـكل أشكالهاوشـتى صورهـا وتحقيـق الحريـة والاسـتقلال. وقـد نشـطت هـذه الحركـة كنتـاج طبيعـي لمراحـل الوعـي التـي سرت وسـبقت هـذه الوثبـة الجبـارة التـي أشرنـا إليهـا عنـد الحديـث عـن بواكـير الحركـة الوطنيـة التـي سـبقت حركـة اللـواء الأبيـض العـام 1924م. وقـد أصبـح وجـود الاسـتعمار رهينـاً بمـدى تقـدم وازديـاد الوعـي القومـي في البـلاد ككل. وقـد أيقـن الإنجليـز أنفسـهم في فـترة الأربعينيـات أن وجودهـم في السـودان أصبـح محكومـاً عليـه بالفشـل والانهيـار، بـل الـزوال

الأبدي بفضل نمو وازدهار الوعي الوطني وبعث يقظة الشعب السوداني الذي عانى الاضطهاد والظلم، لا سيما وقد أنجبت البلاد القادة الأحرار في كل مراحل الكفاح والنضال وفي كل مدنها وقراها..فحمل هؤلاء راية الكفاح والنضال من أجل الحرية والنور.

وفي فترة الأربعينيات حاولت حكومة الحكم الثنائي وضع أسس وتشريعات جديدة تكفل لهم البقاء والمحافظة على مصالحهم السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، مثل الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي وغير ذلك، وقد قصد بهذه المؤسسات إشراك المواطنين في الحكم. لكن في الواقع لم تخدم هذه المؤسسات هذا الغرض لأنها لم يكن لها من السلطة ما يمكنها من إظهار وخدمة رغبات وتطلعات المواطنين، وقد كانت هذه المؤسسات بمثابة مجالس استشارية للحكام الإنجليز الذين استخدموها لتوطيد مركزهم وسلطانهم. كذلك عمل الإنجليز على تعميق مفهوم الديمقراطية الليبرالية. ويهمنا في هذا الجانب أن الأطماع الاستعمارية في البلاد ظلت تكافح لاستبقاء نفوذها ووجودها، رغم اقتناعها بأن محاولاتها يائسة وأصبح محكوماً عليها بالانهيار والزوال. وأخيراً تطور الصراع من أجل الحرية والاستقلال إلى أسلوب المفاوضات الدستورية الجادة وبداية تأسيس الأحزاب السياسية منذ مطلع الأربعينيات إلى تحقيق الاستقلال. وأدى ظهور الأحزاب السياسية في فترة الأربعينيات وبداية الخمسينيات إلى أن دخلت الحركة الوطنية في مرحلة صراع عنيف. وعندما قامت ثورة 23 يوليو في مصر استطاعت حكومة الثورة أن تعقد اتفاقية مع الحكومة البريطانية في 12 فبراير العام 1953م وأهم شروطها:

- تبدأ فترة انتقال لا تتجاوز ثلاث سنوات يتوافر فيها للسودانيين الحكم الذاتي فتكون لهم وزارة وطنية وبريطانية من مجلسين.
- يمارس الحكم العام سلطاته خلال فترة الانتقال تعاونه لجنة خماسية.
- تكوين لجنة دولية للإشراف على الانتخابات (لجنة سوكومارسن).
- تكوين لجنة للسودنة وذلك بتعيين موظفين سودانيين بدلاً عن الموظفين الإنجليز.
- الاحتفاظ بوحدة السودان شمال وجنوب بوصفه إقليماً واحداً.
- عند نهاية فترة الانتقال تنسحب القوات المصرية والبريطانية من السودان

ويـشرع السـودانيون في تقريـر مصيرهـم إمـا بالإنضـمام إلى مـصر أو الاسـتقلال التـام.

وتـم بعـد ذلـك جـلاء القـوات الأجنبيـة وأجريـت الانتخابـات وشـكلت حكومـة وطنيـة وتمـت أعـمال السـودنة، وأعلـن اسـتقلال السـودان في أول ينايـر 1956م وبعدهـا بـرز السـودان إلى الوجـود دولـة مسـتقلة.

ومـن خـلال التطـورات السياسـية والاجتماعيـة التـي أشرنـا إليهـا شـهدت كسـلا احتـلال إيطاليـا لأراضيهـا، حيـث أحـدث هـؤلاء خرابـاً ودمـاراً في المدينـة خاصـة في قريـة الختميـة ولا أدري إن كانـوا يريـدون تدمـير مقدسـاتها الدينيـة أم لا. لأن البلـدة شـهدت خرابـاً جعـل أهلهـا يجهـرون بعداوتهـم لإيطاليـا ويعلنـون تعاطفهـم ومسـاندتهم لقضيـة الحلفـاء وعـلى رأسـهم بريطانيـا.. ودخـل أبنـاء كسـلا في طـور جديـد مـن أطـوار الكفـاح والنضـال مـن أجـل طـرد الغـزاة الجـدد الذيـن احتلـوا مدينتهـم 1940-1941م وأصبـح هـذا العـام الـذي غـزا فيـه الإيطاليـون كسـلا مـن الأعـوام المشـهورة في السـودان عامـة وفي كسـلا بصفـة خاصـة، وأصبـح المواطنـون يؤرخـون بهـذا العـام (1940م) لحوادثهـم المشـهورة في التاريـخ، فيقولـون (سـنة الحرابـة) أو (سـنة التليـان).. ويقولـون مثـلاً فـلان ولـد في سـنة الحرابـة أو سـنة التليـان.. أو حـدث كـذا وكـذا في عـام الحرابـة أو التليـان.

وقـد عانـت كسـلا كثـيراً مـن ذلـك العـام الـذي احتـل فيـه الايطاليون كسـلا، إذ اشـتدت الحـرب بينهـم وبـين الإنجليـز في المنطقـة، وتخربـت المبـاني وتصدعـت أجزاؤهـا مـن جـراء قصـف إيطاليـا لهـا.. وانعـدم القـوت والغـذاء الـلازم للسـكان، فنزحـت جماعـات كثـيرة مـن كسـلا إلى خارجهـا في وسـط البـلاد وشـماله طلبـاً للأمـن والسـلامة، وكان السـيد عـلي الميرغني – طيـب اللـه ثـراه – قـد قـام بـدور كبـير في رفـع معانـاة أهـل كسـلا الذيـن أصبحـوا يعانـون نقصـاً حـاداً في الغـذاء والكسـاء. وقـد بـذل جهـداً عظيـماً في تخصيـص وتكويـن قطـار كبـير يحمـل المـؤن والإمـدادات الغذائيـة والكسـاء والـدواء لإغاثـة أهـل كسـلا ومنكوبيهـا في هـذه الحـرب اللعينـة. وقـد اشـتهر هـذا القطـار الـذي تحـرك مـن الخرطـوم إلى كسـلا باسـم (قطـار الرحمـة) وهـو مـن القطـارات المشـهورة في التاريـخ.. وقـد أشـار إليـه الدكتـور العقيـد (م) محجـوب بريـر محمـد نـور في كتابـه (تـراث وقبـس مـن الفكـر والتاريـخ)، أن السـيد عـلي الميرغنـي أشرف عـلى تجهيـزه بنفسـه، بـل قـاد الركـب في هـذا القطـار وسـافر معهـم بنفسـه إلى كسـلا حتـى يقـف عـلى أحـوال أهـل كسـلا ومواسـاتهم ومؤازرتهـم.

وأشار محجوب برير إلى أن حمولة هذا القطار كانت على نفقة السيد علي الميرغني والسيد عبدالرحمن المهدي والسيد عبدالله الفاضل والشريف يوسف الهندي والتاجر عبدالمنعم محمد ورصيفه محمد أحمد البرير والخواجة كونتو ميخالوس، هؤلاء جميعاً هم الذين تكفلوا بهذا القطار وكان بقيادة وإشراف السيد علي الميرغني.

ولما وصل قطار الرحمة إلى كسلا استقبله أهلها وكبار المسؤولين استقبالاً حافلاً لم تشهد له المدينة من قبل، ونزل السيد علي الميرغني بقرية الختمية بطبيعة الحال، وأمر بتفريغحمولة القطار وتخزينها لدى كل من آل الميرغني وآخرين.. وأشار الأخ العقيد محجوب برير أن السيد علي الميرغني أمر بتفريغ الحمولة وتخزينها لدى كل من السيد الحسن الميرغني والسيد محمد عثمان الميرغني، لكن أرجو أن يسمح لي الأخ الدكتور العقيد محجوب برير أن أوضح أمراً مهماً، وهو أن المراغنة يهتمون كثيراً بتقديم الأكبر في الأسرة، فإذا كان المقصود أن السيد علي الميرغني أمر بتفريغ الحمولة لدى أبناء السيد أحمد الميرغني فأرجو أن أصحح العبارة لتصبح هكذا: (أمر السيد علي الميرغني بتفريغ الحمولة وتخزينها لدى كل من السيد محمد عثمان ابن السيد أحمد وأخيه السيد الحسن الميرغني. وفي كسلا في ذلك الوقت كان هناك أربعة من كبار المراغنة هم: السيد الحسن بن السيد بكري الميرغني، وهو زوج السيدة نور شقيقة السيدين السيد أحمد والسيد علي الميرغني. وهناك أيضاً السيد محمد عثمان بن السيد جعفر بن السيد بكري الميرغني بالإضافة إلى السيدين محمد عثمان بن السيد أحمد وأخيه السيد الحسن الميرغني طيب الله ثراهم جميعاً).

ومهما يكن، فإنّ السيد علي الميرغني أمر أن تفرغ الحمولة وتخزن لدى كل من البكباشي المتقاعد عثمان كيلة والناظر ترك والشيخ فقيري، لتوزع على ذوي الحاجات من عامة أهل المدينة كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب (تراث وقبس من الفكر والتاريخ). وقد أشار مؤلف هذا الكتاب أيضاً أن السيد علي الميرغني مكث في كسلا خمسة أيام التقى خلالها بعمته السيدة علوية ومريدي وأتباع الطريقة الختمية.. وقد لمع اسم السيدة علوية ابنة السيد هاشم إبن الأستاذ الختم مرشد الطريقة الختمية وشقيقتها السيدة مريم. وقاومت الشريفتان الاحتلال الإيطالي لأريتريا وكسلا، وكان يطلق على السيدة اسم (علوية الحربية) وكانت ترتدي الزي الحربي وتتمنطق بطبنجة أو مسدساً.. وكانت السيدة علوية تسهم في المجهود الحربي والقتال، وتؤجج

جـذوة الكفـاح دعـماً للحلفـاء الذيـن وعـدوا بتحريـر الشـعوب المسـتعمرة إن أسـهمت في المجهـود الحـربي والقتـال وفجـروا الثـورة ضـد الاحتـلال الإيطـالي. أمـا السـيدة مريـم، فقـد تولـت بنفسـها توجيـه أتباعهـا إلى الانخـراط في التجنيـد للدفـاع عـن أرض الوطـن. وقـد عـرف عنهـا التقـوى والصـلاح وكـثرة الدعـاء واسـتجابة اللـه سـبحانه وتعـالى لدعائهـا.. وكانـت ذات نفـوذ قـوي وكلمـة مسـموعة بـين قبائـل شرق السـودان التـي يديـن معظمهـا بالـولاء لطائفـة الختميـة. وكان لزيـارة السـيد عـلي الميرغنـي وعمتـه السـيدة علويـة لمدينـة كسـلا في تلـك الأيـام العصيبـة والقاسـية عـلى المواطنـين أثرهـا الكبـير، وكانـت حدثـاً كبـيراً لـه تأثـيره القـوي عـلى مجريـات الأحـداث ورفـع الـروح المعنويـة.

أمـا في كسـلا ومـدن البـلاد الأخـرى، فقـد ظـل رواد الحركـة الوطنيـة يؤججـون جـذوة النضـال والكفـاح دعـماً للحلفـاء في حربهـم ضـد دول المحـور الثـلاثي (ألمانيـا – إيطاليـا – اليابـان)، حتـى يتـم النـصر ويفـي الإنجليـز بوعدهـم بالجـلاء والاسـتقلال. وقـد أفـرزت هـذه الحـرب (وسـنة الحرابـة بصفـة خاصـة) ملاحـم أدبيـة وأناشـيد كثـيرة تمجـد البطـولات العظيمـة التـي أبرزهـا أبنـاء الشـعب السـوداني وتضحياتهـم في سـبيل الحريـة والاسـتقلال. ويشـير محجـوب بريـر إلى أغنيـة (خطريـة) التـي نبعـت، ترجمـة لبعـض أحـداث الحـرب في تلـك الجهـات، التـي بـدأت بعـد حـادث إغـراق الباخـرة الإيطاليـة (أمبريـا) قبالـة سـاحل بورتسـودان وهـي تحمـل خمسـة آلاف طـن مـن قنابـل الطائـرات، وألفـاً وسـبعمائة طـن مـن المعـدات الحربيـة. وكان طاقـم السـفينة مؤلفـاً مـن ثمانـين ضابطـاً وبحـاراً أودعـوا رهـن الاعتقـال في بورتسـودان. ثـم حـدث أن قصفـت الطائـرات البريطانيـة مطـارات أريتريـا الكـبرى في مصـوع وأسـمرا وجـورا بقـوة بالغـة وأجـبرت بذلـك السـلاح الجـوي الإيطـالي عـلى اتخـاذ موقـف الدفـاع.. وحـول هـذه الأحـداث وانتصـارات بريطانيـة البحريـة والجويـة كان مطلـع أغنيـة (خطريـة) مـا يـلي:

خطرية

بريطانيا دولة قوية

بحري وسما

وهناك أبيات أخرى في هذه الأغنية:

طيارة جات تحوم

شايلة القنابل كوم

جات تضرب الخرطوم

ضربت حمار كلتوم

(كلتوم ست اللبن)

وأبيات أخرى:

طيارة جات من حلفا

شايلة الخبر تتلفى

موسليني قالوا اتوفى

وهتلر قليبو خف

ويشير محجوب برير أن الأغنية تؤرخ لحدث آخر، وهو الدفاع عن كبري خشم القربة الحديدة – وكان هدفاً استراتيجياً لكل من القوات الإيطالية وقوات الحلفاء – وهو بمثابة عنق الزجاجة في طريق التحرك إلى الخرطوم، وقد أشيع أن القوات الإيطالية ستعمل على احتلاله دون تخريب لصعوبة إصلاحه، ولهذا سوف تستخدم الغازات السامة في مواجهة دفاعاته، وتقول الأغنية:

جاهل صغير يا حمامة

يوم لبسوا الكمامة

يا رب يعود بي سلامة

للعاصمة..

وأشار برير أن تسمية الكبري (خشم القربة) أطلقها البكباشي عثمان كيلة لتقريب وفهم معنى اصطلاح عمق الزجاجة العسكري Bottle Neck لأهل الشرق في تلك الأصقاع، وعرف هذا الكبري بعد هذه الحوادث بهذا الاسم (خشم القربة) فرسخ كمصطلح ومسمى في الأذهان.

وتمضي كلمات أغنية خطرية كما أشار صاحب كتاب (تراث وقبس) لتحرض الناس على الحرب وتقديم التضحيات من أجل النصر، فاتخذت من الملازم طلعت فريد مثالاً، وكان يومئذ شديد الولع بالرياضة وكرة القدم، حيث ظل يمارسها في نادي الشباب بكسلا الذي تأسس العام 1937م.. ومعروف أن ضروب الرياضة المختلفة قد شهدت رواجاً كبيراً خلال سنوات الحرب، فضلاً عن صنوف الترفيه السالبة والموجبة المتعددة، فأخذت الأغنية على الملازم طلعت فريد إفراطه في ممارسة لعبة كرة القدم

خشـية أن يكـون ذلـك عـلى حسـاب أدائـه العسـكري، وتقـول الأغنيـة:

يا طلعت سيب الكورة

شوف واجب الدبورة

الإنجليز بي أسطولا

تهجم تعود منصورة.

بحري وسما..

وهنـاك إشـارة أيضـاً، وهـو أنـه عنـد هزيمـة إيطاليـا ودول المحـور بصفـة عامـة، وجـلاء القـوات الإيطاليـة عـن مدينـة كسـلا أحجـم النـاس عـن تـداول العملـة الإيطاليـة المعروفـة باسـم ارجنتـي، وكانـت وسـيلة التـداول مـا بـين احتلالهـم كسـلا حتـى جلائهـم عنهـا في الثامـن عـشر مـن ينايـر العـام 1941م، وحـول هـذا الأمـر وعـن قـروش الطليـان أصبـح النـاس في كسـلا يتنـدرون بهـذه العملـة ويقولـون: (قـروش الطليـان مـا بتجيـب مريسـة تامزينـو).. أمـا المقطـع الأخـير في أغنيـة خطريـة فيشـير إلى هزيمـة هتلـر وموسـليني وبسـالة الجنـدي السـوداني حيـث يقـول:

يا هتلر الألماني

موسليني يا الطلياني

لو تضرب السوداني تصبح..... براني

ما يسير هنا....

لم يعـر السـودانيون بـالاً أو يلقـون اهتمامـاً كبـيراً بمـن هـو المنتـصر أو المهـزوم في هـذه الحـرب، شـأنهم شـأن المناضلـين في أفريقيـا وغيرهـا، بـل كان كل تركيزهـم حـول الهـدف الأكـبر وهـو زوال أي أثـر مـن آثـار لنـدن ورومـا وباريـس مـن بلادهـم وتحقيـق الحريـة والحيـاة الكريمـة.

لقـد سـبق القـول أن الاحتـلال الإيطـالي لكسـلا اسـتمر قرابـة العـام (1940-1941م) ويقـول بعـض الـرواة أن الاحتـلال الإيطـالي لكسـلا اسـتمر حـوالي سـبعة أشـهر فقـط وانتهـى في ينايـر 1942م – شـهدت المنطقـة خـلال تلـك الفـترة دمـاراً وخرابـاً كامـلاً جـراء القصـف المتبـادل بـين القـوات الإنجليزيـة والإيطاليـة في كسـلا، وقـد هاجـر مـن هاجـر وبقـي مـن بقـي داخـل المدينـة بغـرض الدفـاع والاسـتماتة عـن الأرض والعـرض والوطـن، إلى أن يكتـب اللـه النـصر ويتـم تحريـر المدينـة.

وكان الجيش الإيطالي قد دخل كسلا في عدة محاور: من الجهة الشرقية من ناحية الأراضي الإثيوبية، ومن ناحية الأراضي الأريترية، إلا أن الأمر المحقق أن هذه القوات دخلت كسلا من بوابة الأراضي لأريترية الحالية عبر الطريق الذي يفصل جبال التاكا وجبال مكرام، وهو طريق المواصلات الحالي الذي يؤدي إلى تسني وبقية المدن والقرى الأريترية.

وإحتلال الطليان لكسلا واستمراره لعام كامل أفرز تداعيات كثيرة ووفرة في المعلومات رغم التضارب والتباين حول أحداثها.. فتكلم الرواة كثيراً، كما أفاض الباحثون والدارسون في الحديث عنها.. وأعتقد أن المجال ما يزال متسعاً أمامهم لتوخي الدقة واستقصاء الحقائق عن تلك الفترة المهمة، وقد وردت معلومات كثيرة عن احتلال إيطاليا الأول لكسلا العام 1896م والثاني العام 1940م. أشار الأخ الصديق الناصر عبدالله أبوكروق للحرب الأولى في رسالته التي حصل فيها على الماجستير في التاريخ الحديث عن إحتلال إيطاليا لكسلا والصراع بين الختمية والأنصار في كسلا في تلك الفترة، كما أشار إليها العقيد (م) محجوب برير محمد نور في كتابه (تراث وقبس من الفكر والتاريخ)، كما أفرد لها الأخ الباحث والأديب العميد (م) أحمد طه محمد الحسن حيزاً مقدراً في كتابه الذي يعده للنشر عن كسلا بعنوان: (عبقرية المكان في درة الشرق)، والذي سمح لي- جزاه الله خيراً - بالاستفادة من معلوماته القيمة قبل نشرها، هذا بجانب عدد كبير من رواة امتازوا بالدقة وعاصروا أحداث تلك الفترة أذكر منهم : عثمان الحسن محمد نور ومحمد الحسن العراقي اللذين أعانا هذا البحث بمعلومات قيمة.

لقد تباينت بعض الآراء حول موقف السيدة علوية الميرغنية التي اشتهرت في التاريخ باسم علوية الحربية، لإدارتها دفة القتال في هذه الحرب، فمنهم من أشار إلى أنها كانت تساند قضية الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا، ومنهم من ذكر أنها ساندت الإيطاليين ووقفت تساندهم منذ أن احتلوا الأراضي الإريترية وقبل زحفهم لكسلا واحتلالها العام 1940م، بل تشير الرواية أن السيدة علوية دخلت كسلات مع القوات الإيطالية واختلفت بذلك مع أفراد الأسرة الميرغنية خاصة بني عمومتها في مدينة كرن، آل السيد بكري بن السيد الحسن الميرغني، وكذلك أختها - غير الشقيقة - السيدة مريم الميرغنية التي كانت تؤجج جذوة الكفاح دعماً للإنجليز الذين وعدوا بتحرير

الشعوب المستعمرة إن أسهمت في المجهود الحربي والقتال، وحرصت بريطانيا على تكرار وتأكيد وعدها بمنح الاستقلال المرتجى لمن يشاركوها النصر وعداً غير مكذوب، لذلك ساندت السيدة مريم الميرغنية قضية الحلفاء - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - كما ساندت أعداد كبيرة من المواطنين وضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والبطولة الفذة حتى علت هاماتهم أكاليل النصر.

ويشير ا لتاريخ إلى نماذج بطولية عظيمة قدمها هؤلاء، ويشيرون إلى أعداد هائلة من الضباط الذين اشتهروا بالشجاعة وتميزوا بالبطولة والفداء منهم اللواء طلعت فريد واللواء محمد نصر عثمان وغيرهم من الذين دافعوا واستبسلوا في الدفاع عن كسلا، ونصروا قضية الحلفاء باعتبار أن فجر الحرية قد لاح ولكن ما كان أبعده..

أما السيدة علوية الحربية، التي أوردنا تفاصيل عنها، فهي بنت السيد هاشم بن السيد الحسن الميرغني من أم أريترية - كما أشار لذلك صاحب كتاب (تراث وقبس) - الذي أضاف بأن أمها من أب بحار وتاجر يمني يملك متجراً وقارباً (سنبوك) يجوب به البحر الأحمر، وتمتد جذور هذه الأم الإريترية إلى بلقيس ملكة سبأ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. ولدت الشريفة علوية في خطوملو، جوار مصوع في العاشر من رمضان العام 1875م وتوفيت إلى رحمة مولاها في العاشر من رمضان عام 1941م، ودفنت بمسقط رأسها خطوملو.. حفظت القرآن في العاشرة من عمرها ودرست علوم الدين واللغة العربية، واشتهرت بالزهد والتقى والعبادة، وقد أوكل لها أهلها ومريدوها في تلك الجهات أمر زعامتهم الدينية، فصارت بذلك زعيمة روحية تضرب لزيارتها أكباد الإبل كما اشار لذلك الدكتور العقيد (م) محجوب برير.

أما التباين في الآراء حول موقف السيدة علوية من الغزو الإيطالي للمنطقة، فيشير فريق إلى أن السيدة علوية الحربية قاومت الاحتلال الإيطالي في البداية، وأنها ارتدت زياً عسكرياً وأمرت أتباعها بإقامة المتاريس والاستعداد للذود عن الأراضي الأريترية. ولما ألمت بقوة الإيطاليين وتصميمهم على دخول المدينة عنوة، رأت أن تفاوضهم - حقناً للدماء - فوضعت شرطاً للإيطاليين وافق عليه قائد الاحتلال الإيطالي في الحال، وهو عدم استباحة الإيطاليين للمدن الأريترية وعدم المساس بالمواطنين والمنشآت، بل والإبقاء على السلطة الإدارية الوطنية القائمة مع دعمها بقيادة عسكرية إيطالية، ومن ثم دخلت القوات الإيطالية مدينة مصوع في يسر وسلام والتزم القائد الإيطالي بما وعد به.

وإزاء هـذا الموقـف دخـل معهـا بنـي عمومتهـا في مدينـة كـرن في خـلاف شـديد إزاء تسـليمها لمدينـة مصـوع للإيطاليـين.. وكانـت السـيدة علويـة تـرى أن الاحتـلال أمـر واقـع ولا سـبيل إلى وقفـه، كـما أن ميـزان القـوى العسـكرية ليـس في صالـح البـلاد. وحـدث أن رفضـت بعـض المـدن الأريتريـة الاستسـلام واختـاروا الحـرب، فـكان أن سـحقهم الجيـش الإيطـالي في وحشـية بالغـة واسـتولى عـى مدنهـم عنـوةً واقتـداراً.

وكانـت السـيدة علويـة تسـبق الجيـش الإيطـالي حتـى تقـف عـلى سـلامة أهلها وسـكان تلـك المناطـق، ولأنهـا تميـزت بالصـلاح واقـترن موقفهـا هـذا بتقـدم مسـتمر للإيطاليـين، أشـاع الإيطاليـون أن النـصر معقـود بقـدوم السـيدة علويـة وأنهـم سـيصلون منتصريـن لأي أرض تطؤهـا رجـل الشريفـة علويـة.. ومـن بعـد ذلـك رأت الشريفـة أن تقـوم بزيـارة أهلهـا في كسـلا والخرطـوم بحـري، ووصلـت بالفعـل عـلى رأس القـوات الإيطاليـة.. ولكـن هـذا القـول غـير محقـق مـن أساسـه، بـل أشـارت روايـات أخـرى أن السـيدة أقامـت معسـكراً مـع الإيطاليـين في أو قـرب حدائـق كيلـة لتتحـرك مـع القـوات الإيطاليـة مـن هنـاك إلى الخرطـوم عـبر نهـر عطـبرة والبطانـة، وربمـا هـذا يفـسر لمـاذا اعتقـل الإيطاليـون البكبـاشي عثـمان كيلـة وأرسـلوه إلى سـجون أريتريـا مـع مواطنـين آخريـن بتهمـة التجسـس لمصلحـة الإنجليـز.. إلا أن الشـيخ عبدالرحمـن مصطفـى لعلاقتـه مـع الإيطاليـين والمنطقـة الأريتريـة والحبشـية التـي كان يـتردد إليهـا بغـرض التجـارة جعلتـه يكـون ملـماً بعـدد مـن اللغـات منهـا الإيطالية والحبشـية والأمهريـة والإنجليزيـة وغيرهـا.. فاسـتطاع بذلـك أن يقنـع الإيطاليـين بإطـلاق سراح هـؤلاء ا لمواطنـين وينفـي عنهـم تهمـة العمالـة للإنجليـز.

انزعـج الإنجليـز كثـيراً للأخبـار التـي أفـادت بنيـة تقـدم الجيـش الإيطـالي وعـلى رأسـه الشريفـة علويـة، فاتصـل الجـنرال بـلات بالحاكـم العـام وطلـب منـه الاتصـال بالسـيد عـلي الميرغنـي ليمنـع امتـداد رحلـة السـيدة علويـة إلى الخرطـوم بحـري حتـى لا يـؤدي ذلـك إلى رفـع الـروح المعنويـة للجيـش الإيطـالي وانهيارهـا لـدى قـوة دفـاع السـودان. وبالفعـل أرسـل السـيد عـلي الميرغنـي يطلـب مـن عمتـه السـيدة علويـة عـدم التوجـه إلى الخرطـوم ويعـد بزيارتهـا واللقـاء بهـا في كسـلا. ولمـا كانـت مدينةكسـلا تعـاني نقصـاً في المـواد الغذائيـة، فقـد أمـر السـيد عـلي الميرغنـي بتجهيـز قطـار لأهـل كسـلا - كـما أشرنـا مـن قبـل – وأشرنـا إلى أن السـيد عـلي الميرغنـي وصـل إلى كسـلا ومكـث فيهـا خمسـة أيـام التقـى خلالهـا بعمتـه السـيدة علويـة ومريديـه وأتبـاع الطريقـة الختميـة وطلـب مـن السـيدة علويـة أن تعـود إلى

الديار الأريترية ففعلت من بعد، ثم عاد مولانا السيد علي الميرغني بالقطار نفسه إلى الخرطوم. وقد انتقلت الشريفة السيدة علوية إلى جوار ربها بعد وصولها إلى مصوع بأشهر قلائل في رمضان من العام 1941م ودفنت بمسقط رأسها قرية خطوملو (تراث وقبس من الفكر والتاريخ ص:262-265).

أما السيدة مريم في سنكات وسواكن فكان لها موقف مختلف تماماً، إذ أنها وقفت تساند قضية الحلفاء حتى كتب لهم النصر، وانتهى الأمر بهزيمة إيطاليا التي عانت كثيراً من قصف الطائرات الإنجليزية لقواتها في كسلا وأريتريا، واستعاد الإنجليز مدينة كسلا وظلوا فيها إلى أن تحقق استقلال البلاد.. وقد تغنى أهل الشرق للشريفة مريم الميرغنية وتحدثوا عن مناقبها وصلاحها في مدائح وأناشيد دينية كثيرة:

السلام يا غنية مريم الميرغنية

وبيت آخر يقول

إنتي مين يشبهوكي الختم والد أبوكي

وهناك آراء أخرى كثيرة تدور حول إحتلال إيطاليا لكسلا، منها أن أهل كسلا استقبلوا القائد الإيطالي برزياني استقبالاً عظيماً نكاية في الإنجليز الذين استعمروا بلادهم ردحاً من الزمن، كما أشار آخرون إلى أن أهل كسلا بصفة خاصة أداروا ظهرهم للاحتلال الإيطالي وساندوا قضية الإنجليز عندما تذكروا بأن موسيليني رئيس إيطاليا هو الذي أمر بإعدام المجاهد الكبير عمر المختار.. إلا أن آخرين يرون أن الإيطاليين قاموا بعدد من الإصلاحات العمرانية وأنهم أمروا قواتهم بعدم قصف قرية الختمية لمكانتها الدينية ولاعتبارهم الخاص للأسرة الميرغنية التي يكنون لها كل تقدير وتعظيم.. بل أنهم أعادوا بناء مسجد الختمية الكبير الذي كان قائد الأنصار عثمان دقنة قد قام بهدمه وتخريبه في أثناء فترة الصراع بين الختمية والأنصار إبان ظهور دولة المهدية (1885-1898م).. كما أن الرواة يتفقون على رواية ينقلها السيد أحمد الميرغني عن السلف باستمرار عن هذا المسجد وهي (عثمان يبنيه.. وعثمان يهدمه.. وعثمان يبنيه). فعثمان الأول هو السيد محمد عثمان بن السيد الحسن الميرغني، وهو والد السيد أحمد الميرغني والسيد علي الميرغني، فهو الذي قام ببنائه وتشييده. وعثمان الذي هدمه هو قائد الأنصار في شرق السودان عثمان دقنة.. أما عثمان الثالث الذي يشيده فهو في علم الغيب، وقد أشار إلى هذه الرواية أيضاً العميد والشاعر أحمد

طـه محمـد الحسـن في كتابـه (عبقريـة المـكان في درة شرق السـودان).. وللإيطاليـين في كسـلا إصلاحـات أخـرى كثـيرة منهـا القيـام بإصلاحـات في ضريـح السـيد الحسـن الميرغنـي، ومنهـا بنـاء آبـار في سـفح الجبـل المشـهور باسـم توتيـل، حيـث تتبعـوا مسـاقط المياه في تلـك الجهـة حتـى وصلـوا إلى منطقـة المنبـع في أعـلى الجبـل، ويعـرف هـذا المنبـع باسـم (جنـه جنـه)، فقـام الإيطاليـون بمـد مواسير الميـاه مـن هـذا النبـع إلى أسـفل، حيـث شـيدوا آبـاراً عديـدة منهـا لـشرب الإنسـان، وبعضهـا الآخـر لـشرب الحيـوان، كـما خصصـوا أماكـن بالقـرب مـن هـذه الآبـار لغسـل ا لملابـس والاسـتحمام.. الـخ.. وفي منطقـة جبـال التـاكا منابـع ومناطـق كثـيرة تسـتوجب الإهتـمام والعنايـة منهـا (توليـس ومـاء الخمـيرة والبـدوان) وأشـجار ذات قيمـة كبـيرة يسـتخرج منهـا عسـل النحـل، ولا تـزال هـذه المنطقـة قبلـة الـزوار والسـواح مـن كل مـكان مـن كسـلا ومـن خارجهـا. وقـد اهتمـت حكومـة ولايـة كسـلا أخـيراً بهـذا الموقـع المهـم للسـياحة والآثـار التاريخيـة، وقـد حمـل فريـق توتيـل العظيـم هـذا الاسـم مـن بـاب التيمـن والتـبرك بهـذا النبـع العظيـم الـذي يعتـبر إحـدى معجـزات وعجائـب كسـلا. وقـد اهتـم الكتـاب والأدبـاء كثـيراً بهـذا الموقـع وأشـار معظمهـم إلى توتيـل ومنابعهـا ومياههـا العذبـة، واعتقـد أن مـشروع العميـد أحمـد طـه (الصـوت والضـوء في جبـال التـاكا) وفيـه اسـتعراض لسـفح الجبـل مـن المشروعـات الحيويـة الحديثـة والمهمـة وهـي فكـرة ممتـازة، نأمـل أن تـرى النـور وتدخـل في حيـز التنفيـذ لأنهـا سـتضفي عـلى المنطقـة قيمـة وأهميـة عظيمـة في نـواحٍ عـدة، وتكسـب المدينـة مزايـا إضافيـة اقتصاديـة وثقافيـة واجتماعيـة وفنية..الـخ.

وربمـا جـاء تعـاون بعـض المواطنـين في كسـلا مـع الإيطاليـين لأنهـم اهتمـوا بالإصـلاح والجوانـب الفنيـة كـما أنهـم أصـدروا أوامرهـم بعـدم المسـاس بالمقدسـات الدينية والمنشـآت الأخـرى..

وربمـا سـاند بعضهـم إيطاليـا عـلى أسـاس أنهـا تسـاعد عـلى طـرد الإنجليـز مـن البـلاد وتحقـق لهـم الاسـتقلال، ومـن هـؤلاء عبدالمجيـد سـلطان وحـاج مختـار وغيرهـم ممـن قامـوا بمعاونـة الإيطاليـين في كسـلا وأمدوهـم بالمعلومـات الكافيـة عـن تحـركات الإنجليـز، وغـير ذلـك مـن مسـاعدات لوجسـتية وغيرهـا، وهـو الـدور نفسـه الـذي قـام بـه أنـور السـادات الـذي سـاند الألمـان ضـد الإنجليـز وذلـك عندمـا بـدأ الألمـان يتحركـون مـن شـمال أفريقيـا نحـو مـصر لاحتلالهـا، إلى أن حلـت بهـم الهزيمـة في موقعـة العلمـين المشـهورة التـي استبسـل

فيها القائد الألماني رومل (ثعلب الصحراء) وهي المعركة التي انتصر فيها القائد الإنجليزي مونتجمري الذي حالفه الحظ في الانتصار على الألمان في هذه الحرب وكانت بمثابة الضربة القاصمة وبداية النهاية لدول المحور الثلاثي في الحرب العالمية الثانية.

أما عبدالمجيد سلطان - وقد سبقت الإشارة إليه فيما سبق - فقد قبض عليه الإنجليز بعد نهاية الحرب وهزيمة الطليان في كسلا وتعرضه لتهمة الخيانة العظمى والتجسس لصالح إيطاليا، حيث حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص في بورتسودان. وقد أشار بعض الرواة أن عبدالمجيد سلطان تعاون فعلاً مع الإيطاليين في كسلا، بل وصلت به درجة الكراهية والعداء أنه كان يقف في وسط سوق كسلا وفي منتصف النهار ويطلق النار من مسدسه تجاه طائرات الإنجليز التي كانت تحلق فوق سماء كسلا.

إلا أن الأستاذ بابكر عوض الله نفى تهمة التجسس عن عبدالمجيد سلطان وذلك في لقاء له مع الأستاذ أحمد البلال الطيب في برنامج (في الواجهة)، وأضاف بابكر عوض الله بأن عبدالمجيد سلطان كان يعمل متعهد بلدية ويتعاون مع الإيطاليين كمتعهد يوفر لهم ضروريات العيش من غذاء وخبز وخلافه.. كما أشار في هذا اللقاء إلى أنه كان قاضي المحكمة العليا التي نظرت في الاستئناف المقدم من أسرته وجاء قرار المحكمة بالبراءة من تهمة التجسس ورد كل ممتلكاته وأملاكه التي صادرها الإنجليز. ويمضي بابكر عوض الله أكثر من ذلك ويعتبر أن عبدالمجيد سلطان من الشهداء على حد قوله.

أما الحاج مختار فكان هو الآخر من كبار تجار كسلا ومن شيوخ ووجهاء المدينة، وكان يتمتع بالذكاء والطرافة وحلو الحديث، مع الثراء العريض والتجارة الواسعة، واتهم أيضاً مع عبدالمجيد سلطان ووجهت له تهمة الخيانة العظمى للتجسس لمصلحة إيطاليا.. وقضت عليه المحكمة بحكم الإعدام رمياً بالرصاص مع رفيقه عبدالمجيد سلطان.. إلا أن الحاج مختار رفض هذه التهمة رفضاً باتاً كما رفض الحكم عليه بالإعدام - لأن المحكمة لا تملك هذا الحق - لأنه يحمل أرفع أوسمة الإمبراطورية البريطانية وهو وسام الملك جورج ملك بريطانيا. فأسقط في يد المحكمة وصدر في حقه قرار جديد يبرئ ساحته من التهمة والإفراج عنه في الحال.

ويحكي أهل كسلا نوادر كثيرة عن هذا الرجل الذي لمع اسمه في تلك الفترة كتاجر ثري واسع الثراء ويعتبر من ألمع رجال المجتمع في كسلا. ومن إشراقاته التي كان

يتكلم عنها أهل كسلا باستمرار أنه اتصل بالإنجليز يطلب منهم تنفيذ رغبته بشراء طائرة منهم يستخدمها في تحركاته الداخلية والخارجية، وأبدى استعداده للدفع حالاً مهما كان غلاء الطائرة وارتفاع سعرها، وعليهم فقط إعدادها وتجهيزها وتسليمها، إلا أن الأنجليز لم يتجاوبوا مع رغبة الحاج مختار، ولم يظهر منهم الحماس لتحقيق هذا الحلم العريض، هذا على حد قول أهل كسلا، وغير ذلك من نوادر وإشراقات الحاج مختار الذي اشتهر بالذكاء وخفة الدم والرشاقة.

وانتهج الإنجليز بعد نهاية الحرب العالمية الثانية سياسة البطش والقمع وشعر المواطنون أن الإنجليز قدموا لهم جزاء سنمار، فاشتعل التمرد والعصيان، ونجح الإضراب العام الذي كان بمثابة عصيان مدني العام 1948م.. وبعد أن هدأ الموقف في كسلا غدر الإنجليز بأهلها وتشكلت لجان التحقيق ومجالس التأديب للموظفين الذين نفذوا الإضراب، وترأس هذه المجالس مدير المديرية في كسلا والمعتمد في بورتسودان، كما تشكلت مجالس مماثلة في كل المراكز أو كل رئاستها للمفتش، ولم تستغرق هذه المحاكم أكثر من خمس دقائق تصدر بعدها أحكامها القاسية على المواطنين الشرفاء بقطع مرتب يومين من كل موظف – يوم جزاء ويوم عقاب – وهكذا..

وقد تعرض الكثيرون لهذا النوع من المساءلة، منهم من استغرقت محاكمته أكثر من ساعة ونصف، اشتد خلالها الجدل والنقاش الحاد بينهم وبين المدير، وانتهت الأزمة بسلام عندما علم المدير بتوتر الموقف في الخارج وتصميم الموظفين من الكتبة والمحاسبين وجمهور كبير من أهل كسلا على مواصلة أعمال العنف وإعلان الإضراب مرة أخرى إذا لم يعمل الأنجليز على تهدئة الموقف ووقف أعمال القسوة والقمع التي بدأت تمارسها على مواطني كسلا وإلغاء هذه الأحكام الجائرة والقاسية التي فرضتها على الشرفاء.

انتهت الحرب العالمية الثانية العام 1945م وانتصر الحلفاء الذين ساندهم الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية – القوتان العظيمتان في ذلك الحين – وانهزمت دول المحور الثلاثي (ألمانيا – إيطاليا – اليابان) واندحرت إيطاليا في كسلا، وخسرت معاركها في الحبشة وأريتريا. أما ألمانيا فهي الأخرى فقد تلقت ضربات قاسية في شمال إفريقيا، وفي روسيا التي ارتكب فيها هتلر أكبر حماقة عندما زحف بقواته لاحتلالها العام 1941م فاستبسل الروس في مواقع عديدة منها ستالينجراد المشهورة واستطاعوا

الانتصار على الألمان بعد أن تقهقر الجيش الألماني وتقدم الروس نحو ألمانيا ونجحوا في احتلال الجزء الشرقي منها وقاموا بتحرير كل شرقي أوروبا من السيطرة الألمانية.. وكان الروس مع الاستبسال والاستماتة قد اعتمدوا أيضاً على فصل الشتاء القارس فتذكروا عبارتهم المشهورة عندما غزا نابليون روسيا من قبل، فرددوا هذه العبارة عند غزو هتلر لبلادهم :

WE CAN NOT DEFEAT HITLER, BUT OUR MAJOR GENERAL...FEBRUARY CAN DO SO

فتساقط الجليد على الألمان وانهزموا شر هزيمة.

وكانت روسيا في ذلك الوقت أقوى دولة في العالم بغواصاتها وقنابلها الهيدروجينية وصواريخها المتطورة وهي الصواريخ التي هددوا بها انجلترا وفرنسا في حرب السويس بعد ذلك العام 1956م في العدوان الثلاثي على مصر (بريطانيا – فرنسا – إسرائيل) وذلك عندما توجهت روسيا بإنذار عرف باسم إنذار (بلقانين) المشهور، وبلقانين هو رئيس وزراء روسيا أو وزير دفاعها الذي هدد بريطانيا وفرنسا بضرب لندن وباريس بالصواريخ الموجهة عابرة القارات إذا لم تنسحب من الأراضي المصرية، فانسحبت الدول المعتدية من مصر وانتصرت الإرادة المصرية في هذه الحرب، وأصيب انطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا بالجنون بعد هذه الأزمة ثم مات كمداً.. كما أقيل رئيس فرنسا جي موليه من منصبه بعد ذلك بقليل.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فإنها تلقت ضربات قوية من اليابان التي ظلت تنتصر عليها طيلة سنوات الحرب، واستطاعت اليابان أن تضرب بالقنابل ميناء بيرل هاربور أهم موانئ أمريكا في المحيط الهادي، ولم تتمكن أمريكا من هزيمة اليابان إلا بعد استخدامها للقنابل الذرية وضرب مدن يابانية بهذه القنابل هما مدينتا هيروشيما ونجازاكي، فاضطرت اليابان للاستسلام ونجح الأمريكان دخول ألمانيا من جهة الغرب، كما دخل الروس من ناحية الشرق وكانوا الأقرب للعاصمة برلين. وعندما علم هتلر بوصول الروس مشارف العاصمة برلين انتحر مع عشيقته إيفا براون، ولما دخل الروس القصر الرئاسي في برلين كانت جثتا هتلر وعشيقته رماداً رماداً، وتم تقسيم ألمانيا إلى قسمين: ألمانيا الشرقية (حلف وارسو) وألمانيا الغربية (حلف الأطلنطي)... وانتهت الحرب العالمية بعد أن أحدثت خراباً ودماراً على كل العالم، وراح ضحية هذه الحرب التي تسبب فيها هتلر وموسيليني أكثر من سبعين مليون نفس.

ويعتبر المؤرخون والباحثون أن احتلال إيطاليا لكسلا (1940-1941م) امتداداً لاحتلال إيطاليا لكسلا العام 1896م من ناحية الدوافع السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، أما الجانب الآخر الذي تميزت به فترة الأربعينيات بجانب استمرار الحرب العالمية الثانية واحتلال الطليان لكسلا العام 1940م فهو تطور الحركة الوطنية في البلاد وظهور الأحزاب السياسية، بعضها يسمى باسم الأحزاب الاتحادية التي تنادي بالاتحاد مع مصر وعلى رأسها حزب الأشقاء.. والبعض الآخر الأحزاب الاتحادية التي شغلت الساحة السياسية في البلاد خلال تلك الفترة وحتى مطلع الخمسينيات، في ثمانية أحزاب اتحدت جميعها في حزب واحد وهو الحزب الوطني الاتحادي وذلك برعاية حكومة ثورة 23 يوليو 1952م ورئيسها اللواء محمد نجيب آنذاك، وهذه الأحزاب هي: حزب الأشقاء (جناح الأزهري)، حزب مؤتمر السودان، حزب الأشقاء (جناح محمد نور الدين)، حزب وحدة وادي النيل، حزب الاتحايين، حزب الأحرار الاتحاديين وحزب مؤتمر الخريجين.

وقد وافق رؤساء الأحزاب والهيئات الثمانية على قيام الحزب الواحد في اجتماع عقد بالقاهرة مساء يوم 31 أكتوبر 1952م، واستمر حتى الساعات الأولى من صباح الأول من نوفمبر 1952م وأجيز دستور الحزب الواحد على تسمية الحزب بالحزب الوطني الاتحادي وهو الحزب الموحد الذي شهد فترة تقرير المصير مع حزب الأمة والحزب الجمهوري الاشتراكي، فاستمر الوضع بهذا الشكل حتى إعلان استقلال السودان في أول يناير 1956م.

وشهدت هذه الفترة أيضاً قيام الجمعية التشريعية التي تخدثنا عنها وقيام مؤتمر جوبا العام 1947م الذي حسم مع الأخوة الجنوبيين أمر وحدة الشمال والجنوب. وقامت في تلك الفترة كذلك تنظيمات العمال في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات التي شهدت هي الأخرى اتفاقيات الحكم الذاتي وتقرير المصير وتكوين لجنة سوكو مارسون التي أشرفت على الانتخابات الوطنية التي أدت إلى تكوين أول حكومة وطنية للبلاد وإعلان الاستقلال في يناير العام 1956م.

وافق رؤساء الأحزاب والهيئات الاتحادية الثمانية على قيام الحزب الواحد، وعهدوا إلى لجنة ثلاثية وضع أسس الحزب واختيار هيئته العامة ولجنته التنفيذية، ثم أجيز دستور الحزب وتم التوقيع عليه في اجتماع عقد بمنزل الرئيس محمد نجيب، رئيس

جمهورية مصر بعد قيام ثورة يوليو 1952م. وقد عقد هذا الاجتماع مساء الثاني من نوفمبر العام 1952م. وقد تم الاتفاق بين الحزب الموحد وحكومة الثورة المصرية بشأن الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان، وهو ما اشرنا إليه سابقاً. وكان النظام المصري الجديد قد أبدى استعداده لمناقشة مسألة السودان بمفردها مع بريطانيا، كما قبل مبدأ الحكم الذاتي للسودان وحق السودانيين في تقرير مصيرهم. وقد ضمنت هذه المبادئ في اتفاق عقدته مصر في يناير العام 1953م مع الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة، الحزب الوطني الاتحادي، حزب الأمة، والحزب الجمهوري الاشتراكي. وإزاء هذا الموقف الموحد بين مصر والأحزاب السودانية لم تجد بريطانيا مخرجاً سوى أن تعقد مع مصر في 12 يناير 1953م الاتفاقية المصرية البريطانية الخاصة بالحكم الذاتي.

عقدت أول انتخابات وطنية في البلاد في نهاية العام 1953م، وقد أسفر عن فوز الحزب الوطني الاتحادي بأغلبية المقاعد في مجلس النواب والشيوخ.. وكون السيد إسماعيل الأزهري أول حكومة وطنية في البلاد. وفسرت بعض الدوائر نتيجة هذه الانتخابات بأنها انتصار للوحدة مع مصر، ولكنها كانت في الواقع انتصاراً لرغبة السودانيين الملحة في الخلاص من السيطرة البريطانية.. فقد نصر الناخبون الحزب الوطني الاتحادي لعدائه السافر لبريطانيا... وكان الناخب السوداني في تلك الانتخابات يأخذ على حزبي الأمة والجمهوري الاشتراكي تعاونهما مع بريطانيا. وقد وضح إجماع السودانيين على رغبتهم في الاستقلال عندما أعلن البرلمان بالإجماع استقلال السودان في ديسمبر العام 1955م، وأصبح السودان بلداً مستقلاً منذ أول يناير 1956م.

ظلت القوى الوطنية في كسلا منذ مطلع الخمسينيات تتابع مجريات الأحداث والتطورات السياسية التي تجري في البلاد، وتنتظر الفرص التاريخية المواتية لتعبر عن إرادتها وتنال حقها في التعبير عن رأيها بروح الوطنية وإرادة الأحرار.. وكانت في معظمها تساند برامج وأهداف الحزب الوطني الاتحادي الذي يلبي آمال وطموحات الأمة السودانية.. والمعروف أن كسلا – كغيرها من بلاد شرقي السودان وشماله ووسطه – تتمتع فيها طائفة الختمية بنفوذ كبير، ومركز ثقل عظيم بالنسبة للحزب الوطني الاتحادي.. فوقف الختمية يساندون الحركة الوطنية منذ ظهورها، وكان الإنجليز يعملون حساباً وتقديراً لزعماء الختمية وقادتهم لنفوذهم الكبير ولمكانتهم الدينية. وقد بذل السيد الحسن الميرغني، بتكليف من السيد علي الميرغني، جهوداً كبيرة

بوقتـه ومالـه وجهـده، ليـس في كسـلا وحدهـا، بـل في منطقـة شرقـي السـودان بصفةعامـة. وكان السـيد الحسـن الميرغنـي قبـل ذلـك بسـنوات قلائـل قـد شـيد مسـجد مدينـة وقـر عـلى نفقتـه الخاصـة في منطقـة القـاش وذهـب لافتتاحـه بنفسـه، وبـارك السـيد عـلي الميرغنـي هـذه الخطـوة المباركـة.

أخـذ السـيد الحسـن الميرغنـي عهـداً مـن السـيد إسـماعيل الأزهـري أثنـاء زيـارة الأخـير لكسـلا، قبيـل إجـراء الانتخابـات بقليـل، أن يعمـل مـن أجـل تحقيـق اسـتقلال السـودان التـام، عنـد فوزهـم في هـذه الانتخابـات وتكويـن الحكومـة الوطنيـة، فعاهـده الأزهـري بذلـك وأوفى الرجـلان بالعهـد. فالسـيد الحسـن الميرغنـي اسـتمر في دعمـه للحـزب الوطنـي الاتحـادي دعـماً لا حـدود لـه بتكليـف مـن السـيد عـلي الميرغنـي، وأبـدى نشـاطاً عظيـماً في المنطقـة بأسرهـا، حتـى أثمـرت هـذه الجهـود ولاحـت بشـائر النـصر بفـوز الحـزب الوطنـي الاتحـادي في كل دوائـر الـشرق. كـما أن السـيد إسـماعيل الأزهـري أوفى بعهـده هـو الآخـر وأعلـن اسـتقلال السـودان مـن داخـل البرلمـان.

أفـرزت الانتخابـات الوطنيـة الأولى في كسـلا العـام 1953-1954م ظهـور شـخصيات وطنيـة فـذة كان لهـا إسـهامها الواضـح والبـارز في التعبـير عـن حقهـا في الحريـة وتقريـر المصـير.. وأدى الناخبـون في كسـلا واجبهـم في التصويـت تعبـيراً عـن الـروح الديمقراطيـة وإشـاعة الحريـة في البـلاد، وأثمـرت الانتخابـات عـن فـوز مرشـحي الحـزب الوطنـي الاتحـادي بـكل دوائـر شرق السـودان، حيـث فـاز محمـد جبـارة العـوض في دائـرة كسـلا الوسـطى، كـما فـاز مرشـحو الحـزب في دوائـر الـشرق الأخـرى في القضـارف (أبوسـن)، والقـاش (أبوفاطمـة بـاكاش)، كـما فـاز الحـزب بدائـرة الأمـرأر والبشـاريين التـي اكتسـحها محمـد كـرار كجـر في منطقـة حلايـب، أمـا طوكـر فقـد فـاز فيهـا مجـذوب أبوعـلي مرشـح الحـزب الاتحـادي أيضـاً.

وكان السـيد عـلي الميرغنـي، والمراغنـة بصفـة عامـة مـع زعـماء الحـزب الوطنـي الاتحـادي الآخريـن، ينـادون بالجمهوريـة الإسـلامية في البـلاد، ويـرون أن قيامهـا هـو الحـل الأمثـل، عـلى عكـس دعـاة النظـام الملـكي الـذي يقـف مـن ورائـه الإنجليـز.. ومنـذ ذلـك الوقـت اشـتهر عـن الحـزب الوطنـي الاتحـادي بأنـه حـزب الحركـة الوطنيـة.

ذكـر لي الأخ محمـد الحسـن العراقـي بأنـه وعبدالرحمـن مصطفـى قامـا بتكليـف مـن السـيد الحسـن الميرغنـي بـإدارة هـذه الانتخابـات في كسـلا وعـددٍ مـن دوائـر الـشرق، يعاونهـما عـدد كبـير مـن رمـوز الحركـة الوطنيـة في المنطقـة، منهـم عـلى سـبيل المثـال: آل

فقـيري، آل مسـعود، آل المـرضي، آل همـد همـد، آل فـكي آدم، آل الحلنقـي، آل الباتـرة، آل الوقيـع، آل حـاج خالـد، آل إبراهيـم محمـد طـه، آل عطـا، آل عـروة وآل الحسـن محمـد نـور.. وغيرهـم.

كـما سـاند الحركـة الوطنيـة في منطقـة القـاش يوسـف الكـرف وأحمـد هاشـم، وعـدد كبـير مـن أبنـاء منطقـة القـاش في وقـر وأرومـا ومتاتيـب وتنـدلاي ومـا جاورهـا مـن بـلاد في أرض القـاش، مثـل آل دفـع اللـه السـيد وآل أبوزينـب وآل المبـارك بشـير وآل عـلي خـيري وكلهـم في وقـر بمنطقـة القـاش، وأبـشر سـليم في أرومـا.

كـما لا يفوتنـي أن أذكـر في هـذه السـانحة بعـض الأقطـاب الذيـن كان لهـم دورهـم المقـدر في السـاحة السياسـية ومجـال الحركـة الوطنيـة، فأذكـر : أحمـد الشـابك وآل العمـدة والسـيد عثـمان بـن السـيد جعفـر الميرغنـي والزبـير عبداللـه وحسـن بيومـي وآل أبوسـيف وآل هـلال وآل الشـنقيطي وآل الضيقـي وآل دنبـلاب وآل محمـد طاهـر شريـف وغيرهـم.

وكان مـن أبـرز رمـوز حـزب الأمـة البارزيـن في كسـلا – إبـان الحركـة الوطنيـة – والانتخابـات الوطنيـة الأولى مصطفـى قسـم البـاري وشـمعون وعمـر عثـمان نافـع ومحمـد إدريـس قـاضي والخـير عبدالوهـاب ومحمـد شـيخ إدريـس ومحمـد محمـود أفنـدي.

وكان للوعـي القومـي ومشـاعر النـاس الوطنيـة والسياسـية أحـد العوامـل التـي سـاعدت عـلى نجـاح التجربـة الديمقراطيـة الأولى والإقبـال عـلى صناديـق الاقـتراع بقـوة وحـماس. وكانـت الشـعارات التـي يرفعهـا أبنـاء كسـلا والهتافـات التـي يرددونهـا والليـالي التـي ينظمونهـا خـير شـاهد عـلى انتشـار الوعـي واليقظـة في المنطقـة بأسرهـا، وأعظـم دليـل عـلى نجـاح التجربـة الديمقراطيـة.

وبإعـلان اسـتقلال السـودان في الأول مـن ينايـر 1956م انتقلـت الإدارة إلى ابنـاء البـلاد، وتمـت سـودنة الوظائـف بكفـاءة عاليـة ومقـدرة فائقـة تدعـو إلى الفخـر والإعـزاز. وتـولى إدارة مديريـة كسـلا عـدد مـن أصحـاب الخـبرة الإداريـة والتجربـة الكبـيرة في مجـال الإدارة والخدمـة المدنيـة، وذلـك في منصـب المديريـن أو نوابهـم، أو الوظائـف الإداريـة الأخـرى كـوكلاء الـوزارات وغيرهـم، وفي كسـلا كان ميرغنـي الأمـين الحـاج هـو أول سـوداني يتـولى منصـب مديـر مديريـة كسـلا، وخلفـه آخـرون في هـذا المنصـب أذكـر منهـم حسـن وقيـع اللـه وداؤد عبداللطيـف وحسـن إبراهيـم قريـن وإبراهيـم الطاهـر وعثـمان جـاد الـرب.

أمـا الانتخابـات الوطنيـة الثانيـة والتـي أجريـت العـام 1957م وهـي الانتخابـات التـي

سبقت انقلاب الفريق عبود في 17 نوفمبر 1958م فقد سبق هذه الانتخابات انقسام الحزب الوطني الاتحادي إلى حزبين: حزب الشعب الديمقراطي والحزب الوطني الاتحادي. كان حزب الشعب الديمقراطي برعاية السيد علي الميرغني ورئاسة علي عبدالرحمن الأمين، بينما تولى رئاسة الحزب الوطني الاتحادي إسماعيل الأزهري.

ولم يتمكن أبناء كسلا في حزب الشعب الديمقراطي من حسم أمر اختيار مرشح لهم في دائرة كسلا الوسطى ليكون منافساً لمرشح الوطني الاتحادي محمد جبارة العوض، الأمر الذي حدا بدائرة الحزب المركزية في الخرطوم اختيار مرشح لكسلا هو الفاتح أحمد عبود المحامي. وقد سبق القول إن كسلا والشرق عامة تتمتع فيه طائفة الختمية بنفوذ كبير، فأصبح بالتالي أن يكون مركز ثقل لحزب الشعب الديمقراطي الذي فاز مرشحه الفاتح عبود بفارق كبير عن االأصوات عن مرشح الحزب الوطني الاتحادي محمد جبارة العوض، كما فاز أيضاً مرشح حزب الشعب الديمقراطي في دائرة كسلا الريفية على محمد محمد إدريس. وكان السيد محمد عثمان الميرغني - أمد الله في عمره - يتابع باهتمام بالغ سير هذه الانتخابات نيابة عن والده السيد علي الميرغني، وما يجري بالتحديد في دائرة كسلا الوسطى. وكانت إدارة ولجنة حزب الشعب الديمقراطي تتكون في البداية من عثمان سمهن رئيساً وأحمد فكي آدم سكرتيراً، ثم تلتها لجنة أخرى برئاسة محمد الحسن علي الزين ومحمد الحسن العراقي سكرتيراً. وكان من أعضاء لجنة حزب الشعب الديمقراطي البارزين في تلك الفترة، أذكر: عبدالله عثمان فقيري ومحمد الحسن محجوب ومحمد الحسن عطا ومحمد الحسن عروة والسيد أحمد السيد مسعود ومحمد الأمين فكي آدم، وبالطبع أخيه أحمد فكي آدم الذي كان على راس لإدارة.. ومنهم كذلك محمد الوقيع وعبدالله السمحوني وأحمد الحاج وأحمد الشايقي وعطا المنان حمد وطه محمد الحسن وآل حاج آغا وآل الحلنقي والشنقيطي وعمر تهامي وآل الماحي والنيل مساعد الشيخ وحسن قصير وآل الجعلي وآل مكرب وآل سمهن وآل همد همد حامد ومحمد وآل باترة محمد وإخوانه وآل عيسى دبلوك (أحمد عيسى وإخوانه).

أما أعضاء الحزب الوطني الإتحادي عند الانتخابات الوطنية الثانية فاذكر آل المرضي جبارة، وإبراهيم أحمد السيد مسعود ومحمد سيد أحمد أبوشعر وغيرهم.

أما الانتخابات الوطنية الثالثة التي أجريت في البلاد في أعقاب ثورة أكتوبر العام

1964م فقد خاضها الحزبان الشعب الديمقراطي والوطني الاتحادي في حزب واحد بعد اندماجهما مرة أخرى في حزب واحد هو الحزب الاتحادي الديمقراطي تقديراً للظروف الوطنية الملحة التي تمر بها البلاد. وفاز أيضاً الحزب الموحد (الاتحادي الديمقراطي) بدائرة كسلا الوسطى التي اكتسحها مرشح الحزب حسن أحمد الماحي... وفاز مرشح الحزب أيضاً في دائرة كسلا الريفية.

وفي الانتخابات الوطنية الرابعة التي تلت انتفاضة أبريل العام 1985 م كانت دائرة كسلا الوسطى قد انقسمت إلى قسمين: كسلا الشرقية وكسلا الغربية. أما كسلا الشرقية فهي كسلا المدينة، ويسمونها كسلا الوسطى، فقد فاز فيها مرشح الحزب الاتحادي الديمقراطي الزين حامد. أما كسلا الغربية، وهي منطقة غرب القاش التي تضم السواقي الشمالية والجنوبية ومنطقة بانت وحي الفلاتة، فقد فاز فيها مرشح حزب الأمة الأستاذ حسن محمد شيخ إدريس المحامي.. وكانت كسلا الريفية من نصيب الجبهة الإسلامية القومية وفاز فيها مرشح الجبهة حامد كفو.

الحزب الجمهوري الاشتراكي:

وبالطبع ظهرت في البلاد تنظيمات وطنية أخرى كثيرة قبل الاستقلال وبعده، وكان لها دورها في الحركة السياسية التي تموج بها البلاد وتعج بها الحركات السياسية هنا وهناك.. وقد سبقت الإشارة إلى الحزب الجمهوري الاشتراكي الذي عاصر أحزاب الحركة الوطنية: الأشقاء (الوطني الاتحادي) وحزب الأمة، وذلك منذ مطلع الخمسينيات. وقد تكون الحزب الجمهوري الاشتراكي في العام 1951م، وكانت أغلبية أعضائه من زعماء القبائل في شمال السودان. وقد أراد هؤلاء أن يحافظوا على نفوذهم الذي هدده السياسيون الوطنيون أمثال إسماعيل الأزهري وغيره من الذين تمتعوا بنفوذ قوي بين المثقفين وسكان المدن. وقد ساندت حكومة السودان - آنذاك - الحزب الجمهوري الاشتراكي ليكون مناوئاً للاتحاديين وحزب الأمة الذي بدأ في العام 1952م التفاوض مع مصر. وكان أعضاء الحزب الجمهوري الاشتراكي يرون أن حزب الأمة وزعيمه السيد عبدالرحمن المهدي يتمتعون بثراء واسع، ويعتقدون أن الإنجليز يفكرون في تنصيب السيد عبدالرحمن المهدي ملكاً على البلاد. إلا أن أهمية هذا الحزب كان مبالغاً فيها، إذ أنه لم ينل تأييداً كبيراً من السودانيين.. أما عن كسلا فلا أدري من هم زعماء القبائل الذين انضموا لهذا الحزب، والثابت أن زعماء القبائل كانوا يساندون أحزاب

الحركـة الوطنيـة الأولى، خاصـة الحـزب الوطنـي الاتحـادي، وربمـا تعـاون آخـرون مـع حـزب الأمـة.

الجبهة المعادية للاستعمار:

ظهـور حـزب الجبهـة المعاديـة للاسـتعمار، الـذي تطـور إلى الحـزب الشـيوعي فيـما بعـد، منـذ الأربعينيـات، وتنظيـم الجبهـة الديمقراطيـة في المـدارس والجامعـات أحـد روافـده المهمـة مـع تنظيـم نقابـات العـمال في البـلاد.. وقـد دوخ نشـاط هـذا الحـزب الإنجليـز بمنشـوراته ومظاهراتـه.. كـما كانـت النظـم الشـمولية التـي اسـتولت عـلى السـلطة في بعـض الفـترات تتابـع نشـاط أعضائـه باسـتمرار، فتعـرض الكثـيرون للسـجن والاعتقـال لفـترات طويلـة..

وكان حـزب الجبهـة المعاديـة للاسـتعمار، عنـد بدايـة نشـأته، قـد اعـترض عـلى الاتفاقيـة المصريـة – الإنجليزيـة التـي عقـدت في 12 ينايـر 1953م وهـي الاتفاقيـة الخاصـة بالحكـم الـذاتي. وقـد تحفـظ هـذا الحـزب عـلى اللجـان الثـلاث التـي شـكلتها هـذه الاتفاقيـة وهـي:

لجنـة الحاكـم العـام التـي تشـارك الحاكـم العـام في ممارسـة السـلطات الاسـتثنائية التـي أعطيـت لـه خـلال فـترة الانتقـال.

لجنـة الانتخابـات التـي كانـت مهمتهـا الإعـداد لانتخابـات عامـة في البـلاد لإقامـة الحكـم الـذاتي.

لجنـة السـودنة وهـي لجنـة لسـودنة الوظائـف في الخدمـة المدنيـة والبوليـس وقـوة دفـاع السـودان. ورغـم معارضـة حـزب الجبهـة المعاديـة للاسـتعمار، عقـدت أول انتخابـات في البـلاد في نهايـة 1953م، كـما سـبق القـول. وكان نشـاط هـذا الحـزب في معظـم الفـترات نشـاطاً سريـاً – تحـت الأرض – وربمـا يعـود ذلـك للوسـائل القمعيـة التـي حكمـت البـلاد. وربمـا كان يـرى أعضـاؤه أن التنظيـم يسـتفيد مـن هـذا العمـل ويعبـئ أعضـاءه وصفوفـه للنضـال بطريقـة علميـة فيهـا التخطيـط والتنظيـم الـذي يزعـج أعداءهـم ويربك حسـاباتهم، وكان هـذا الحـزب يشـترك في الانتخابـات الوطنيـة التـي تجـري في البـلاد، وكان لـه أعضـاء ونـواب في البرلمانـات مثلـما حـدث في الانتخابـات الوطنيـة الثالثـة التـي قامـت بعـد ثـورة أكتوبـر العـام 1964م. وكان للحـزب في هـذه الانتخابـات كل أو معظـم دوائـر الخريجـين، وتلـك الفـترة هـي التـي شـهدت حـل الحـزب الشـيوعي السـوداني في الجمعيـة التأسيسـية.. واسـتمر الحـال كذلـك حتـى انقـلاب مايـو 1969م ومـا شـهدته مـن أحـداث في هـذا الشـأن.

وعاد الحزب لنشاطه العلني عقب انتفاضة أبريل 1985م. ويلتقي الحزب الشيوعي مع بعض الأحزاب السياسية في البلاد في بعض المواقف السياسية، وكان له تنسيق مع حزب الشعب الديمقراطي بعد قيام ثورة أكتوبر العام 1964م الخاص بموضوع أو مسألة جنوب السودان، وهو المؤتمر الذي نظمته حكومة ثورة أكتوبر برئاسة سر الختم الخليفة، وقد تطابقت آراء الحزبين، الشعبي الديمقراطي والحزب الشيوعي السوداني في موضوع جنوب السودان. وقد وضح ذلك في الخطابين اللذين ألقاهما علي عبدالرحمن الأمين، رئيس حزب الشعب الديمقراطي، وعبدالخالق محجوب، السكرتير العام للحزب الشيوعي، خاصة فيما يتعلق بموضوع الانفصال والنظام الفيدرالي اللذين نادى وطالب بهما بعض زعماء الأحزاب الجنوبيةفي ذلك المؤتمر، مثل وليام دينق وأقري جادين وغيرهما.

وكان الحزب الشيوعي يتبنى أفكار الإشتراكية العلمية والديمقراطية والمطالبة بالإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، وخاصة فيما يتعلق بالإنتاج ووسائل الإنتاج، ويعلن مساندته للطبقات الكادحة من العمال والمزارعين، ورفع الظلم والمعاناة عن كاهلهم، وتطوير التعليم والصحة والقضاء على الفقر والمرض والجهل... وغيرها من شعارات كان يرفعها أعضاء هذا الحزب.

وكان من أعضاء هذا الحزب في كسلا منذ ظهوره في أواخر الأربعينيات تقريباً أذكر على سبيل المثال لا الحصر: مأمون محمد الأمين ويوسف عبدالله وأحمد عثمان دفوعة ومحمد سعيد القدال، وبعض أفراد أسرته، وكان من أعضائه البارزين في تنظيم الجبهة الديمقراطية خاصة المدارس الثانوية والجامعة الصديق العزيز عبدالمجيد بطران علي الذي كان نشطاً وعضواً بارزاً، بل كان سكرتيراً للتنظيم في الجامعة.

تنظيم الإخوان المسلمين في كسلا:

كانت فترة القرن التاسع عشر فترة انتصار كاسح للقوى الإسلامية منذ فجره إلى نهايته تقريباً، انتشرت فيها حركات أشار إليها المؤرخون بحركات البعث الإسلامي الحديث.. ومنها مشروعات الوحدة الإسلامية مثل الخلافة والمؤتمر الإسلامي ومشروع الجامعة الإسلامية الذي نادى به جمال الدين الأفغاني. واستمر الوضع بهذا المشروع حتى ظهور أفكار محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي ومصطفى كامل في مطلع القرن العشرين وهو يشهد ضعف تركيا، رجل أوروبا المريض، وانتشار الاستعمار التي انتابت

الدول الغربية وغيرها.. فظهرت حركات في البلاد العربية كان معظمها ينادي بالوحدة العربية لمواجهة سياسة حزب الإتحاد والترقي، الذي قبض على السلطة في تركيا، ويحاول تطبيق السياسة الطورانيةأو سياسة التتريك، خاصة تتريك الأمة العربية ومحو قوميتها ومعالمها الأساسية في اللغة والدواوين. كما كانت مشروعات الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين تنادي بالقضاء على الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي.

وكانت التيارات التي تنادي بالوحدة العربية وطرد الأتراك والاستعمار الأوروبي من بلادها عديدة ومتشعبة، أذكر منها جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد والجمعية القحطانية والحزب اللامركزي. وتبلور نشاط كل هذه الجمعيات العربية وغيرها في دمشق وبيروت والقاهرة وبغداد، إلا أنها التقت جميعها في مساندتها لثورة العرب الكبرى التي تزعمها الشريف حسين بن علي، شريف مكة، الذي قاد ثورة العام 1916م نجح من خلالها من طرد الأتراك من الحجاز وفلسطين والشام.

واستمر الحال كذلك والجمعيات والأحزاب العربية تنمو وتتطور حتى العام 1928م، حيث تأسس تنظيم الأخوان في مصر تحت لواء مرشده الشيخ حسن البنا..وهي حركة ذات توجه إسلامي صرف انضمت إليها مجموعة من الشباب في مصر وخارجها، خاصة السودان فيما بعد. وازدهرت هذه الحركة الإسلامية في فترة الأربعينيات وقبل اغتيال الشيخ حسن البنا في العام 1948م. وكان أعضاء هذا التنظيم يرون أن الإسلام هو الحل. وأنه لابد من إقامة دولة إسلامية أساسها الشرع الإسلامي ودستورها القرآن الكريم.

وفي كسلا تحمس للفكرة عدد من أبنائها، بل كان لبعضهم دور مهم وواضح في تأسيس وتنظيم ووضع أسس هذا التنظيم..أذكر على سبيل المثال البروفيسور هاشم عروة الذي اشترك في تأسيس الخلية الأولى مع عدد من الإخوان في مطلع الخمسينيات في الخرطوم. وجاء من بعد ذلك الأستاذ أحمد إدريس عبدالماجد..أما في مدينة كسلا، فقد بدأت الحركة الخلية الأولى، كما يذكر الرواة والمعاصرون، بأن الشيخ عباس حسن التوم وهو من أبناء الصبابي نقل إلى كسلا للعمل في مصلحة البريد والبرق في أواخر الخمسينيات هو الذي بشر بهذا التنظيم في المدينة..وكان من أوائل أعضائه من أبناء كسلا في تلك الفترة: إسحق مراد وعثمان مني وعلى أبوعاقلة أبوسن..ثم تلا هذه النخبة وانضم إلى التنظيم آخرون منهم عبدالله الحسن محمد نور وإبراهيم حسن

الحلنقي ونمر نقنان.. والتحق فيما بعد هاشم عبدلله والحسن الأنصاري وسعد أحمد يوسف. وظهر التيار الإسلامي في المدارس والجامعات كرافد مهم يغذي الحركة الإسلامية في البلاد، وقد عرفت الحركة الإسلامية بأسماء كثيرة منها (الإخوان المسلمون) و (جبهة الميثاق) و (الجبهة الإسلامية القومية) حتى العام 1989م.

ومن طلاب المدارس والجامعات من أبناء كسلا الذين أصبحوا زاد الحركة الإسلامية ووقودها أذكر كوكبة من الشباب في ذلك الوقت: كما وأخيه محجوب محمد الحسن عروة، وعبدالله البشرى وقطبي المهدي وعبدالماجد عثمان بخيت ومحمد عثمان محجوب.

الفصل السادس

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في كسلا

حُظيت منطقة كسلا باهتمام بالغ بالحياة الاقتصادية، خاصةً في مجالي الزراعة والتجارة، وقد برز هذاالاهتمام في الرَّخاء المادي والأدبي الذي تميزت به كسلا ردحاً من الزمن. فأدى ذلك إلى ازدهار الحياة الاجتماعية وتطور حياة الناس التي ظهرت معالمها في الترابط والتآخي والألفة والانسجام الذي ساد في حياة الناس. وقد لاحظ عدد كبير من الزوار في ذلك الحين أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية تميز كسلا عن غيرها. بل تعطي انطباعاً مهماً بأن هذه المنطقة تعتبر من أهم المناطق في السودان في هذا المجال الذي زخرت به في جوانب حياة الناس المختلفة خاصة الزراعية والتجارية والاجتماعية. كما أن كسلا كانت ولا تزال تقوم بدور الوسيط وتربط أجزاء البلاد المختلفة مع خارجها. وكانت تتجمع في كسلا بضائع تأتي من اثيوبيا وأريتريا واليمن والصومال وبلاد غربي وشرقي آسيا مثل الأقمشة والعطور والسكر والشاي والبن، كما تصل إليها الذرة والسمسم والصمغ والقطن والماشية من وسط البلاد وغربها، وقد قامت الطرق بدور كبير في التنمية وتطور وازدياد الصادرات والواردات.

وقد أدى ذلك كله إلى تجاوز شهرة مدينة كسلا الزاهرة حدود الإقليم، ودرت على المنطقة أرباحاً طائلة من تجارة الذرة والسمسم والدخن والفواكه والماشية والسيوف وأدوات الزينة. وقد أشار الكُتّاب والمؤرخون إلى ذلك منذ زمن سحيق، وجاءت هذه الأموال عن طريق تحكم الدولة في طرق التجارة الرئيسية التي تدخل كسلا من خارج الحدود أو من داخل مدن البلاد. فساعد ذلك على حسن الاستثمار ونموه واستمراره، كما ساعد استتباب الأمن آنذاك على ازدهار وانتعاش الزراعة والتجارة، خاصةً بعد قيام مشروع الجزيرة ومشروع القاش.

الزراعة :

الزراعة هي الحرفة الرئيسية لأغلب السكان في كسلا وأقاليمها المجاورة، ثم إن أراضي كسلا – أغلب أجزائها – خصبة، زراعية، كثيفة السكان، وتنتج هذه المناطق الذرة – وهي أكثر حبوبهم – ومنها يتخذون أغلب طعامهم وعليق حيواناتهم. كما تنتج منطقة كسلا السمسم والذرة الشامي والبطاطس والخضر بأنواعها المختلفة،

والفواكه ومنها البرتقال الوقريب فروت والجوافة والموز والمانجو. وكان في بعض جناين كسلا في ذلك الوقت الرمان والباباي والعنب والقشطة، كما يزرع البطيخ والشمام في مساحات ومناطق معينة على ضفاف نهر القاش. ولدى أهل كسلا ومنذ زمن بعيد، الخيول والجمال والحمير والضأن والماعز والأبقار، كما عنوا واهتموا بتربية الدواجن من دجاج وحمام.

والمعروف أن أهل كسلا وسكان الشرق بصفة عامة قد عرفوا الزراعة منذ وقت مبكر من تاريخ المنطقة، إذ أنه بالرغم من انتشار الصحراء بمساحة واسعة - كما في البطانة مثلاً - أو في مناطق البحر الأحمر ذات المرتفعات وسلاسل الجبال، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود بعض الأقاليم الخصبة ذات المياه الوفيرة أنتجت محاصيل كثيرة ومتنوعة من اشجار الفاكهة والخضر، فازدادت شهرة كسلا بمرور الزمن، ببساتينها ومراعيها ومياهها المتدفقة ومناطقها الخصبة، وهي تغطي المنطقة الممتدة على ضفاف نهر القاش ذات الجناين والبساتين والحدائق والسواقي المنتشرة على ضفتي هذا النهر خاصة السواقي الجنوبية والشمالية:

صوت السواقي الحاني
ذكرني ماضي بعيد
على الرمال آثارك
طرتني ليلة عيد
علمني قلبك ينسى
يرخص حلاوة الريد
باقي الطريق بمشيهو
خليني فيهو وحيد

وهذه هي المنطقة المعروفة بغرب القاش، إلا أن السواقي بصفة عامة كانت تنتشر في شرقي القاش وغربه..(فأغنية كسلا أشرقت بها شمس وجدي) نظمت أبياتها في حدائق كيلة في شرق القاش، وعلى أي فإن ضفاف القاش تغنى لها وبها الفنانون والأدباء والشعراء، وهي أراض خصبة تمتد في أرض واسعة تصل إلى دلتا القاش، ثم تمتد بعد ذلك إلى دلتا طوكر شرقاً.

وأشار القرآن الكريم في مواقع كثيرة إلى أهمية الماء والأرض والزرع والثمر، مثل قوله تعالى : ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من من السماء ماءً**

فأخـرج بـه مـن الثمـرات رزقـاً لكـم فـلا تجعلـوا للـه أنـداداً وأنتـم تعلمـون﴾.

وعـلى الرغـم مـن أن سـكان كسـلا والـشرق عامـة عرفـوا الزراعـة منـذ زمـن طويـل، كما سـبق القـول إلا أنهـا في البدايـة كانـت زراعـة في مناطـق محـدودة، توسـعت وتطـورت مـع مـرور الزمـن، وكانـت في بدايتهـا تعتمـد عـلى الوسـائل البدائيـة، ولكنهـم كانـوا يعتمـدون عليهـا في حياتهـم، مـع الرعـي بالطبـع وتربيـة الحيـوان، وظلـت حالـة الزراعـة عـلى هـذا الوضـع رغـم اهتـمام الأتـراك بالزراعـة في زمـن أحمـد باشـا شركـس وممتـاز باشـا. ثـم أن الزراعـة لم تتطـور في بدايـة الحكـم الثنـائي لعوامـل أهمهـا ضعـف رأس المـال ونـدرة الأمطـار وسـوء المواصـلات وبدائيـة طـرق الزراعـة وقلـة عـدد السـكان وانخفـاض مسـتوى معيشـتهم وانقسـامهم عـلى أسـس قبليـة.

وعندمـا بـدأت حكومـة الحكـم الثنـائي تهتـم بأمـر الزراعـة صادفتهـا أول مشـكلة كادت تقـضي عـلى اهتمامهـا بأمـر تطويـر الزراعـة في البـلاد، وهـي مشـكلة (تحديـد ملكيـة الأرض)، فاضطـرت إلى إصـدار عـدد مـن القوانـين لتنظيـم أمـر الزراعـة في جهـات السـودان المختلفـة، كـما أنهـا أعلنـت بعـض الأراضي مـن بينهـا أراضي القـاش وبركـة الخصبـة، ملـكاً للحكومـة. أمـا أراضي السـواقي عـلى ضفتـي القـاش الشرقيـة والغربيـة، فإنهـا فوضـت سـلطاتها لمديـر المديريـة في مطلـع القـرن العشريـن لتشـجيع أهـل كسـلا أن يتجهـوا نحـو الزراعـة وتعمـير الأرض. فقـام مديـر المديريـة بتمليـك الأرض لأهـالي كسـلا الراغبـين منهـم في الزراعـة، لزراعـة الخـضر والفاكهـة في هـذه الأراضي. ومـن ثـم ظهـرت سـواقي كسـلا المشـهورة في شرقـي القـاش وغربـه، ثـم جـاءت شـهرة غـرب القـاش وهـي السـواقي الشـمالية والجنوبيـة، لأنهـا تتميـز بمسـاحتها الواسـعة الممتـدة مـن حـدود تاجـوج الشـمالية ومنطقـة السـبيل جنوبـاً إلى مناطـق سـلام عليكـم وتكـروف وجـمام شـمالاً. فأصبحـت حدائـق وجنايـن ومشـاريع غـرب القـاش هـي الأشـهر في السـودان، بجانـب مـزارع نـوري والقُريـر والباوقـة في شـمال السـودان، وحدائـق ومـزارع السـقاي والكـدرو والجيـلي في الخرطـوم وحدائـق البـان جديـد في الأبيض..الـخ.

وليـس مـن المبالغـة في شيء أن أقـول إننـي زرت مناطـق كثـيرة عشـت فيهـا شـهوراً وسـنيناً أذكـر منهـا نـوري والقريـر والبـان جديـد في كردفـان، واسـتمتعت بجـمال تلـك الحدائـق الغنّـاء في تلـك البـلاد، كـما شـاهدت حدائـق الجيـزة والدلتـا في مـصر، وجنايـن الزبـداني وبلـودان في سـوريا، والأورانـج كاونتـي في كاليفورنيـا، فوجـدت أن حدائـق وجنايـن

غـرب القـاش لا تقـل شـأناً وعظمـة عـن تلـك الجنـات التـي أشرت إليهـا، وكل واحـدة مـن هــذه أو تلــك تمتــاز عــن الأخــرى في بعــض الجوانب..ففــي حدائــق الزبــداني شــاهدت أشـجار التفـاح الكثيفـة والعنـب والرمـان والكمـثرى، وهـي لا تختلـف كثـيراً عـن تلـك التـي شـاهدتها في الدلتـا أو الجيـزة.

أمـا حدائـق غـرب القـاش وجنائنهـا، فهـي تنفـرد دون غيرهـا بغـزارة أشـجار فاكهـة القريـب فـروت والبرتقـال والمانجـو والجوافـة والمـوز (أبونقطـة). ولذلـك فليسـمح الإخـوة الأدبـاء والشـعراء أن أجـري تعديـلاً في بيـت أحمـد شـوقي، لأقـول:

آمنت بالله واستثنيت جنته

غرب القاش روح وجنات وريحان!

لذلـك أرى أن تنصـب الجهـود لتطويـر هـذا المرفـق الحيـوي والمهـم في حيـاة النـاس، فبقليـل مـن التنظيـم يمكـن أن تكـون هـذه المنطقـة مـن أجمـل وأعظـم المناطـق، كـما أننـي أسـتطيع القـول بـأن سـلة غـذاء العـالم يمكـن أن تبـدأ مـن كسـلا، بأراضيهـا الخصبـة والشاسـعة والممتـدة كثـيراً إلى خارجهـا، فهـي تمتـد شـمالاً حتـى دلتـا طوكـر، كـما أنهـا تمتـد جنوبـاً في المنطقـة الفسـيحة الممتـدة عـبر نهـر عطـبرة وسـتيت حتـى حـدود القضـارف الشـمالية. ويتفـق معـي الكثـيرون أن في قيـام خـزان سـتيت سـتتحقق التنميـة الشـاملة والطفـرة الهائلـة والعملاقـة والمرجـوة لتوفـير حيـاة أفضـل لإنسـان الـشرق، فـالأراضي التـي يمكـن أن تسـتفيد مـن قيـام هـذا الخـزان تزيـد – حسـب علمـي – على مـا يزيد عـن (450) ألـف فـدان صالحـة لزراعـة القطـن وقصـب السـكر والقمـح، كـما تتوافـر منهـا مسـاحات كبـيرة للرعـي وتربيـة الحيوانـات. كـما يسـاعد قيـام الخـزان عـلى توليـد طاقـة كهربائيـة تغطـي كل حاجـة الـشرق بولاياتـه الثـلاث، وتزيـد عـن الحاجـة. وكل ذلـك سيسـاعد حتـماً عـلى توطـين الرحـل وتطويـر الحيـاة الاجتماعيـة وتحقيـق الاسـتقرار التـام، وتكتمـل البنيـة التحتيـة للتعليـم العـام والعـالي، وتزدهـر الصحـة والمستشـفيات في المدينـة والريـف ويعـم الرخـاء بـإذن اللـه.

حسـناً كان يفعـل آل كيلـة وأبنـاء الشـيخ محمـد عطـا (محمـد أحمـد وعـلي) وهـم يخصصـون جـزءاً مـن مزارعهـم لـلأسر والـزوار الذيـن يريـدون قضـاء يـوم جميـل مـع أسرهـم وأصدقائهـم في هـذه الحدائـق والبسـاتين دون خـوف مـن تلـف أو ضرر قـد يصيـب الأشـجار المثمـرة، وقطعـاً فـإن النـاس يقـدرون هـذا الشـعور النبيـل، وهـذا الكـرم الكبـير مـن جانـب

هـؤلاء كـما أنـه مـن الواضـح أن الضيـوف يقـدرون هـذا الجميـل وتلـك الثقـة فيسـلك هـؤلاء وذووهـم السـلوك الحضـاري بالمحافظـة عـلى الأشـجار وثمارهـا، وتسـتحق هـذه اللفتـة الطيبـة والكريمـة التـي يتفضـل بهـا أصحـاب هـذه المـزارع وغيرهـم التقديـر والثنـاء.

وتمثـل حدائـق كيلـة في فـترة الأربعينيـات عـلى وجـه التحديـد بوتقـة مهمـة وملتقـى كبـيراً لأهـل الأدب والفكـر والشـعر، فقـد جمعـت هـذه المـزارع والبسـاتين الفطاحلـة مـن الأدبـاء والشـعراء ورجـال السياسـة مـن أمثـال الدرديـري محمـد عثـمان ومحمـد أحمـد محجـوب ومبـارك زروق وخلـف اللـه بابكـر وتوفيـق صالـح جبريـل وحسـن قريـن وعثـمان كيلـة ومحمـد الحسـن الجـاك وغيرهـم، وقـد ذكـر بـأن قصيـدة الشـاعر الكبـير توفيـق صالـح جبريـل كسـلا أشرقـت بهـا شـمس وجـدي وضعـت ونظمـت أبياتهـا في حديقـة كيلـة في أثنـاء التجمـع الأدبي والفكـري لهـؤلاء الـرواد في ذلـك الوقـت.

وكان الأخ الصديـق والدفعـة كـمال عثـمان كيلـة يتيـح لنـا الفرصـة مـن وقـت لآخـر لقضـاء يـوم جميـل في هـذه الحديقـة في مطلـع السـتينيات ونحـن كوكبـة مـن الشـباب، وكان كـمال كيلـة يغمرنـا بكرمـه وشـهامته ويطـرب مسـامعنا بألحانـه العذبـة الشجية منهـا موسـيقى الجـاز الـذي بـدأ إتقانهـا وإجادتهـا منـذ ذلـك الوقـت والمثـل يقـول مـن شـابه أبـاه فـما ظلـم.

أعـود إلى القـول بـأن كسـلا مهيـأة اليـوم أكـثر مـن أي وقـت مـضى، بـأن تقـوم بـدور كبـير وفاعـل في أمـر توفـير الغـذاء، فالمنطقـة تذخـر بإمكانـات الزراعـة والتجـارة والسـياحة، وكل طـرق التجـارة والمواصـلات تلتقـي عندهـا وتتـوزع إلى الداخـل والخـارج، وأعتقـد أن الاكتفـاء الـذاتي في اللحـوم والخـضر والفواكـه قـد تحقـق منـذ وقـت طويـل تقريبـاً، ويمكـن أن تتضافـر الجهـود لتصديـر كميـات أكـبر مـن الخـضر والفاكهـة واللحـوم، ويمكـن تربيـة الماشـية والأغنـام حتـى تلبـي الطلـب داخليـاً وخارجيـاً، ونأمـل اكتـمال الجوانـب المتعلقـة بقيـام خـزان سـتيت وأبوعلقـة لأنهـما سـيحققان كل هـذه الإهـداف، وكنـت أفخـر باسـتمرار خـلال السـنوات الطويلـة التـي قضيتهـا في المملكـة العربيـة السـعودية أن اسـواقها تعـج وتزدحـم بهـا خـيرات كسـلا مـن القريـب فـروت والمـوز والليمـون والبصـل، فالتوسـع في الأرض الزراعيـة وإدخـال الوسـائل الحديثـة واسـتخدام طلمبـات الـري المتطـورة, سيسـاعد كثـيراً في تطويـر الزراعـة وازدهارهـا في المنطقـة، وحتـماً سـتحقق الطفـرة والنـماء والوفـرة والرخـاء، وهـذا يجعلنـا نفخـر بالاكتفـاء الـذاتي والتصديـر، وسـتعم الغبطـة والـسرور إن شـاء

اللـه ونحـن نـرى أن خـيرات كسـلا قـد غطـت أسـواق الـدول الأخـرى القريبـة والبعيـدة منهـا، وهـذا يجعلنـا لا نفكـر أو يـردد الآخـرون معنـا قـول الشـاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

منـذ الربـع الأول للقـرن العشريـن بـدأ أهـل كسـلا يتجهـون بأعـداد لا بـأس بهـا لامتلاك أراض أو مشـاريع زراعيـة تحقـق الغـرض المطلـوب، وبالفعـل بـدأ مـن لديهـم خـبرة في مجال الزراعـة، فلاحـة الأرض وزراعتهـا، خاصـةً تلـك الأراضي الواقعـة عـلى ضفـاف القـاش، شرقـه وغربـه، كـما اقتحـم مجـال الزراعـة عـدد مـن التجـار، وقسـم المزارعـون الأرض الزراعيـة إلى قسـمين: القسـم الأول خصـص لزراعـة الخـضر وهـي الخـضروات كالباميـة والطماطـم والملوخيـة والقـرع والبطيـخ والشـمام والبصل..الـخ، وخصـص هـذا النـوع مـن الزراعـة مـن أجـل تحقيـق العائـد السريـع.

أمـا القسـم الثـاني مـن الأرض فقـد خصصـه المزارعـون لزراعـة الفواكـه مثـل القريـب فـروت والبرتقـال والمانجـو والليمـون والجوافـة، وأفـردوا جانبـاً منهـا لزراعـة المـوز والبرسـيم، أمـا زراعـة العنـب، فقـد كانـت محـدودة النجـاح، أن هـذا النـوع يحتـاج إلى منـاخ معـين وهـو منـاخ البحـر الأبيـض المتوسـط، وهنـا مـن المزارعـين مـن اهتـم بزراعـة النخيـل، وعـلى قلتـه فـإن نخيـل كسـلا يمتـاز عـن غـيره بأنـه يثمـر بلحـاً أو تمـراً مرتـين في العـام.

ولـديّ بعـض الأسـماء لأول مـن خصصـت لهـم أراض زراعيـة في كسـلا منـذ الربـع الأول والثـاني مـن القـرن العشريـن، وحقـق الكثـير مـن هـؤلاء نجاحـاً متواصـلاً لتصبـح سـواقي كسـلا رياضـاً تـسر الناظريـن عـلى مـر الأزمـان والأجيـال، فتـوارث الأبنـاء والأحفـاد المـزارع واهتمـوا بتطويرهـا والتوسـع فيهـا، وأذكـر رواد السـواقي الأوائـل عـلى سـبيل المثـال الإمـام ودالـزاكي وآل الجعـلي وآل الماهـل وعمـر عبداللـه، وسـيد أحمـد العراقـي وأولاد كـرم (محمـد وإخوانــه)، وحســن الرتــالي، واعتقــد أن أراضي ودالرتــالي كانــت تشــمل مســاحة واســعة تمتـد مـن كوبـري كسـلا المعـروف باسـم كوبـري الأنـادي إلى الطريـق القديـم المـؤدي إلى قريـة الختميـة، وهـو طريـق كان يسـلكه المشـاة وأصحـاب العجـلات والـدواب، ولا يسـلكه أصحـاب السـيارات لوعورتـه.

لذلـك حملـت هـذه الأرض الواسـعة اسـم ود الرتـالي ودوم ود الرتـالي لكثافـة أشـجار الـدوم التـي تتغطـى بهـا هـذه المنطقـة التـي كانـت تحفهـا المخاطـر والصعـاب مـن نهـب وسـلب يتعـرض لـه النـاس مـن قطـاع الطـرق خاصـةً في أوقـات الليـل حتـى عهـد قريـب.

ومـن أوائـل مـن امتلكـوا الأرض أذكـر أيضـاً إبراهيـم محمـد طـه (شـيخ السـواقي) وأولاد شـكيلاي وآل حـاج خالـد محمـد الحسـن وعـلي وحسـب اللـه الشـفيع، ومحمـد عطـا وعثـمان كيلـة وخليفـة محجـوب وآل فقـيري وآل العـرضي وآل حمـور واصحـاب سـاقية الحديـد، ومـن هـؤلاء مـن اسـتمر يفلـح الأرض ويزرعهـا مـع أبنائـه وأحفـاده مـن بعـد حتـى يومنـا هـذا، ومنهـم مـن انشـغل عنهـا بمسـائل أخـرى، فضاعـت منهـم الأرض، فالوالـد سـيد أحمـد مـن هـذا النـوع الأخـير الـذي انشـغل عنهـا وتفـرغ لمهامـه الدينيـة في الطريقـة الختميـة، خاصـة بعـد أن منحـه السـيدان أحمـد الميرغنـي وعـلي الميرغنـي لقـب خليفـة الخلفـاء، وهـو أصـلاً مـن أسرة زراعيـة ودينيـة، كان يعتقـد أن في مقـدوره أن يمـارس الزراعـة بجانـب مهامـه الدينيـة والروحيـة، إلا أنـه لم يسـتطع ذلـك فـترك أمـر الزراعـة التـي تفـرغ لهـا ابنـه حسـين العراقـي الـذي شـق طريقـه إلى القضـارف في فـترة الأربعينيـات، فسـاعدته الظـروف أن يكـون مـن اوائـل التجـار السـودانيين الذيـن أقامـوا مشـاريع زراعيـة خاصـة بزراعـة الـذرة، ونجـح إلى حـد كبـير في تطويـر هـذه الزراعـة المطريـة - مـع غـيره بالطبـع - فأصبـح هـذا النـوع أحـد محاصيـل البـلاد النقديـة المهمـة، فقللـت مـن خطـر المجاعـات في البـلاد، وقـد تـرك ابنـه عبداللـه مهنـة التعليـم التـي بـذل فيهـا جهـداً مقـدراً في منطقـة القـاش وهـو يعلـم أبنـاء المنطقـة القـراءة والكتابـة، وتفـرغ لأمـر الزراعـة في مناطـق كسـلا والقـاش، ولا يـزال يواصـل جهـوده لتطويرهـا بالدراسـات مـع المسـؤولين واتحـاد المزارعـين في كسـلا وعليهـم جميعـاً تقـع مهمـة التطويـر ومكافحـة الآفـات، وأعـرف الـدور الـذي يقومـون بـه وأخـص الشـيخ أحمـد فـكي آدم ومـن معـه.

زراعة القطن:

تتطلـب زراعـة القطـن في كسـلا وفي منطقـة القـاش عـلى وجـه التحديـد رأس مـال كبير، في وقـت عانـت منـه ماليـة السـودان مـن عجـز اسـتمر حتـى عـام 1913م، بالإضافـة إلى قلـة الأيـدي العاملـة وعـدم نجـاح سياسـة الحكومـة في إغـراء الفلاحـين المصريـين بالهجرة إلى السـودان نظـراً لعـدم رغبتهـم في ذلـك، كـما أن المـاء لم يتوافـر في ذلـك الحـين، لأن الحكومـة لم تفكـر في تنفيـذ أي مـشروع للـري في السـودان يؤثـر عـلى حاجـة مـصر لميـاه النيـل، إلا أن مشـكلة الأيـدي العاملـة تـم حلهـا أخـيراً بجلـب أعـداد كبـيرة مـن أبنـاء نيجيريـا الذيـن اسـتقروا في السـودان واسـهموا إسـهامات فعالـة في تطـوره الاقتصـادي.

وكان مـن العسـير في ذلـك الوقـت تطويـر زراعـة القطـن في منطقـة القـاش وطوكـر، إلا إذا توفـرت المواصـلات الرخيصـة والسريعـة بربـط تلـك المناطـق بسـكك حديديـة فاسـتمر تطـور زراعـة القطـن في دلتـا القـاش بطيئـاً حتـى العـام 1924م عندمـا اكتمـل خـط سـكة حديـد كسـلا الـذي فتـح آفاقـاً جديـدة وكانـت شركـة قطـن كسـلا تبـاشر مهمتهـا حتـى العام 1924م، إلا أنهـا أمضـت عقـداً مـع الحكومـة سـلمت بموجبـه أراضي دلتـا القـاش للحكومـة مقابـل منحهـا (45000) فـدان في امتـداد الجزيـرة الغـربي، كـما أن الهدنـدوة طالبـوا بحقـوق ملكيتهـم عـلى الأرض وعارضـوا بشـدة اسـتيلاء أهـالي وسـط وشـمال السـودان عـلى المـزارع هنـاك، إلا أن اسـتيلاء الحكومـة عـلى الأرض أدى إلى تحسـين الموقـف بـدأ الهدنـدوة تدريجيـاً في قبـول المـزارع عـلى النهـج والتعديـل الجديـد، وهكـذا فقـد زرعـت منطقـة القـاش بأجـود أنـواع القطـن في العـالم، وهـو القطـن طويـل التيلـة، أمـا فيـما يختـص بالبحـث عـن محاصيل نقديـة أخـرى في كسـلا غـير الـذرة والقطـن، فـإنّ ذلـك لم يبـدأ في منطقـة كسـلا إلا في أواخـر الخمسـينيات عندمـا حاولـت حكومـة الفريـق عبـود تطويـر زراعـة بعـض المحاصيـل كزراعـة الخـروع وعبـاد الشـمس في دلتـا القـاش، واهتمـت بزراعـة الخـروع بصفـة خاصـة، وأقامـت مصنعـاً لإنتـاج الكرتـون مـن الخـروع في مدينـة أرومـا بخـبرة يوغسـلافية، إلا أن نجاحهـا في هـذا الشـأن كان محـدوداً، وأرجـو أن أذكـر بخطـورة الآفـات الزراعيـة وضرورة مكافحتهـا أولاً بـأول وقبـل أن يسـتفحل أمرهـا، وأشـير إلى آفـة التصمـغ وخطورتـه عـلى الفواكـه، خاصـة القريـب فـروت، وأنـا عـلى ثقـة بـأن وقايـة النباتـات واتحـاد المزارعـين سـتولي الأمـر عنايـة كبـيرة.

نهر القاش:

لنهـر القـاش أهميـة كـبرى بالنسـبة لحيـاة النـاس في هـذا الإقليـم وهـم يعتمـدون عليـه اعتـماداً تامـاً في الرعـي والزراعـة وتوفـير الميـاه وخصوبـة الأرض مـن الطمـي الـذي يدفـع بـه النهـر باسـتمرار... ومـا زالـت الآمـال معقـودة عـلى الاسـتفادة القصـوى مـن مياه هـذا النهـر الـذي تذهـب مياهـه هـدراً، وذلـك إمـا بإعـادة مـشروع القـاش سـيرته الأولى، وعـصره الذهبـي الـذي يتغنـى بـه أهـل الـشرق عامـة، أو بإقامـة مشروعـات طموحـة تفيـد سـكان المنطقـة، بـل تفيـد منطقـة الـشرق كلهـا، مثـل مشـاريع سـيتيت وأبي علقـة وغيرهـا، وهـذا لا يتحقـق إلا بعـد أن تكتمـل الدراسـات العلميـة المتأنيـة ودراسـة الجـدوى مـن ذلـك، وبالطريقـة التـي تحقـق الفائـدة للجميـع، وكان الإنجليـز يهتمـون كثـيراً بنهـر القـاش

لأهميتـه الكبـيرة والفائـدة التـي تـأتي مـن هـذا النهـر، خاصـة جانـب المحاصيـل النقديـة وغيرهـا مـما يسـعى الإنجليـز لتحقيقهـا لأن الهـدف الاقتصـادي كان العامـل الأسـاسي وراء اسـتعمار البـلاد مـع الأهـداف الثانويـة الأخـرى، لذلـك كانـوا يركـزون جهودهـم قبـل فصـل الخريـف بوقـتٍ كافٍ بتعميـق هـذا النهـر وإزالـة الطمـي ورواسـب العـام المـاضي كلهـا، حتـى ينسـاب المـاء في مجـراه ويسـير سـيره الطبيعـي في هـدوءٍ مـن دون أن ينجـرف ويتسـبب في الخسـائر والخـراب والدمـار، كـما أقـام الإنجليـز سـدوداً وحواجـز وموانـع في المناطـق الهشـة التـي يمكـن أن يتـسرب منهـا القـاش شرقـاً أو غربـاً، كـما اهتمـوا بحفـر مجـرى آخـر مـوازٍ لنهـر القـاش يُعـرف باسـم خـور سـوميت يتفـرع مـن نهـر القـاش في المنطقـة الغربيـة المواجهـة لمنطقـة شريفـي أو لا يبعـد كثـيراً عـن منطقـة السـبيل، ثـم يتجـه هـذا المجـرى غربـاً فيتـسرب في المنطقـة الفسـيحة المنتـشرة غربـاً حتـى نهـر عطـبرة وأراضي البطانـة، والهـدف الرئيـسي مـن وراء حفـر هـذا الجديـد هـو تخفيـف الضغـط عـلى نهـر القـاش في زمـن الفيضـان حتـى لا ينجـرف القـاش عـن مجـراه الطبيعـي وتقـع الكـوارث.

قـد يكـون للتكلفـة الماليـة الباهظـة لمـشروع تعميـق القـاش وخـور سـوميت دور كبـير وراء زوال هـذا الاهتـمام منـذ العـام 1956م. كـما كان الطمـي المتراكـم طيلـة هـذه الفـترة عامـلاً كبـيراً في اختفـاء مظهـر المجـرى الطبيعـي، فأصبـح نهـر القـاش أعـلى مـن مسـتوى المدينـة بنسـبة كبـيرة، فأصبـح نهـر القـاش هـو الأكـثر علـواً وأصبحـت مدينـة كسـلا أكـثر انخفاضـاً فتوالـت عليهـا الضربـات وتعاقبـت الكـوارث في فيضانـات 1975 – 1988 – 1992 – 2003م، وهكـذا ظلـت كسـلا تعـاني مـن كـوارث مسـتمرة ومتلاحقـة، أثـر ذلـك كثـيراً عـلى وحدتهـا ونسـيجها الاجتماعـي والثقـافي وازدهارهـا الاقتصـادي ورخائهـا الـذي اشـتهرت بـه ردحـاً مـن الزمـن.

وقـد حـكى لي أحـد أصدقـائي وزمـلائي في الجامعـة وهـو البرفيسـور البريـر عثـمان – عـالم الكـوارث والفيضانـات - بـأن مسـتقبل كسـلا وبقاءهـا كمدينـة لهـا وزنهـا وثقلهـا المعـروف يكمـن في الاهتـمام بتعميـق النهـر وإزالـة الطمـي ورواسـبه سـنوياً، والعـودة إلى الحالـة التـي كانـت عليهـا كسـلا في زمـن الإنجليـز، مـع مراقبـة المـزارع والمشـاريع الموجـودة أو التـي أقيمـت حديثـاً وعـلى مقربـة مـن ضفافـه ففيهـا ثغـرات تتـسرب منهـا الميـاه إلى الخـارج فيجـد النهـر فرصتـه وضالتـه المنشـودة فيعربـد يـضرب بقـوة يمنـة ويـسرة. والدكتور البريـر حصـل عـلى درجـة الدكتـوراة في جامعـة سـيركيوز بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة

وكانـت أطروحتـه عـن الكـوارث والفيضانـات وحالـة الدراسـة Case Study عـن نهـر القـاش، وقـام بزيـارة ميدانيـة لكسـلا عـدة مـرات عندمـا كان يجهـز لمشروعـه الكبـير الـذي حصـل فيـه عـلى درجـة الدكتـوراة العـام 1981م في أمريكا...وقامـت جامعـة سـيركيوز بنـشر هـذه الرسـالة الخاصـة بنهـر القـاش، كـما نـشرت جامعـة الملك فيصـل بالمملكـة العربية السـعودية التـي عمـل بهـا لعـدة سـنوات أبحاثـاً منهـا في مجـلات عالميـة وفيهـا تصويـر كامـل للحيـاة الاجتماعيـة والاقتصاديـة عـلى ضفـاف القـاش في كسـلا.

وقـد علمـت أن هنـاك اهتمامـاً كبـيراً وجهـوداً تُبـذل مـن قبـل الحكومـة الاتحاديـة والحكومـة الولائيـة في كسـلا لـدرء الخطـر عـن هـذه المدينـة العظيمـة وأهلهـا الطيبـين الخيْريـن بعـد كـوارث الفيضانـات الأخـيرة التـي ضربـت جـل المدينـة العـام 2003م، وقـد نمـا إلى علمـي أن إعـادة حفـر خـور سـوميت قـد اكتملـت تمامـاً، وأقيمـت سـدود عديـدة عـلى ضفـاف القـاش، خاصـة في الضفـة الغربيـة، وتتضافـر الجهـود الهندسـية والفنيـة والماليـة والإداريـة للقضـاء عـلى شـبح الكارثـة والخـوف الـذي يسـيطر عـلى النـاس.

والعشـم كبـير في إزالـة الخطـر تمامـاً وإعـادة القـاش لمجـراه الطبيعـي، الـذي حتـماً سـتكون لـه الآثـار الإنسـانية والاجتماعيـة والاقتصاديـة الكبـيرة. والإشراف والاهتـمام المتعاظم وإكـمال المشروعـات قبـل حلـول الخريـف أمـر يسـتحق الإشـادة ويجـد التقديـر، ونأمـل أن ينتهـي بذلـك الخطـر نهائيـاً وإلى الأبـد إن شـاء اللـه.

التجارة:

التجـارة هـي أهـم مـوارد الاقتصـاد في كسـلا، والاتصـال بـين كسـلا والخـارج – كـما أوضحنـا – قديـم منـذ أن ظهـر هـذا الإقليـم إلى حيـز الوجـود. ويـؤرخ لاتصـال كسـلا عـبر البحـر الأحمـر وعـبر الحـدود مـع اثيوبيـا وأريتريـا لمطلـع فـترة طويلـة متصلـة بالتبـادل التجـاري مـع تلـك البـلاد، ومعـه التأثـير الثقـافي. ولقـد تاجـرت الحجـاز واليمـن والهنـد والصومـال وأثيوبيـا وأريتريـا وغيرهـا للحصـول عـلى خـيرات هـذه البـلاد وبـلاد السـودان عامـة في الـذرة والصمـغ والقطـن والعسـل والذهـب والسمسـم والفواكـه في نظـير الأقمشـة القطنيـة والصوفيـة والحريريـة والعطـور والبخـور والزجـاج والملـح. وسـاعد توافـر الجـمال وغيرهـا مـن وسـائل الاتصـال منـذ وقـت مبكـر عـلى إنعـاش التجـارة وازديـاد الهجـرات العربية(اليمنيـة والحجازيـة) والهنديـة والإثيوبيـة إلى كسـلا وغيرهـا مـن مـدن إقليـم الـشرق كسـواكن وسـنكات.

وعمـل تحكـم كسـلا في طـرق القوافـل – عـلى الرغـم مـن أنهـا منطقـة حدوديـة – عـلى ازديـاد حركـة القوافـل وحمايتهـا، فهنالـك الطـرق القادمـة مـن الداخـل مـن القضـارف والبطانـة ومـن أواسـط البـلاد وغربهـا خاصـة منطقـة الجزيـرة وكردفـان ودارفـور، بالإضافـة إلى الطـرق التـي تـؤدي إلى البحـر الأحمـر – إلى الحجـاز واليمـن والصومـال – يضـاف إليهـا بالطبـع الطريـق الـذي يـؤدي إلى إثيوبيـا في ذلـك الحـين، إمـا عـن طريـق تسـني وطريـق الجيرة أو اللفـة، أو طريـق القلابـات مـن القضـارف إلى داخـل البـلاد الإثيوبيـة فاسـتوردت السـلع والمصنوعـات المختلفـة، وجلبـت أنـواع الثيـاب والتوابـل والتمـور مـن تلـك البـلاد، كـما كان يسـتورد السـكر والقمـح والأرز والملـح لقـاء الـذرة أو القطـن أو الماشـية. وكانـت بعـض مصنوعـات كسـلا الذهبيـة والفضيـة والسـيوف والخناجـر وبعـض الأدوات الأخـرى تجـد رواجـاً وإقبـالاً كبـير في أسـواق الداخـل والخـارج. وأصبحـت أسـواق كسـلا بالذاتتعج بالحركـة التجاريـة، ويضـم سـوق كسـلا أناسـاً مـن الأجنـاس والقبائـل كافـة في الداخـل والخـارج، كـما سـبقت الإشـارة إلى ذلـك، ومـن تلـك الأجنـاس أهـل اليمـن السـعيد ومنهـم الحضارمـة وأهـل الحجـاز والصومـال وأثيوبيـا وأريتريـا والهنـود، والهنـود اسـتوطنوا سـواكن منـذ العـام 1860م ووصلـوا كسـلا العـام 1918م، كـما أشـار إلى ذلـك الأخ لـؤي محمـد عثـمان في جريـدة (السـوداني) العـدد (169) المـؤرخ الأربعـاء 28 ربيـع أول 1427هــ الموافـق 26 أبريـل 2006م وهـو يكتـب عـن هجـرات الهنـود واسـتيطانهم بالسـودان. ويزيـد عـلى ذلـك بـأن هجـرة الهنـود في الأصـل اقتصاديـة بغـرض مزاولـة النشـاط التجـاري – وصلـوا كسـلا عـلى ظهـور الجـمال – وعملـوا في تجـارة الأقمشـة والعطـور، ومـن أشـهر الهنـود في كسـلا البنغـال والبنيـان ولهـم حـي في كسـلا يُعـرف باسـم حـي الهنـود في حلـة جديـد ولا يـزال هـذا الحـي مكانـه حتـى اليـوم.

ومـن أشـهر تجـار الهنـود في كسـلا في ذلـك الوقـت أذكـر: منسـو وهاريلال ونتـو وهاركي سـنداس دبابـو، وقـد أشـار لـؤي في مقالـه إلى أنهـم تسـودنوا تمامـاً عـلى المسـتوى الاجتماعـي وبصفةخاصـة في الأفـراح والأتـراح ويشـتركون في المناسـبات الوطنيـة والقوميـة، وهـم شـعب مسـالم يحـترم النـاس وعاداتهـم وتقاليدهـم ولا يشـير التاريـخ إلى أنهـم شـكلوا خطـراً عـلى أمـن المنطقـة وسـلامتها. وفي كسـلا جماعـات كثـيرة مـن أبنـاء غـرب أفريقيـا مـن الهوسـا والفلاتـة والبرنـو والتكاريـر، وهـؤلاء جميعـاً يطلـق عليهـم في السـودان اسـم الفلاتـة، وهـو الاسـم الشـائع في البـلاد، ولكنهـم قبائـل مختلفـة يعيشـون وسـط المواطنـين، وقـد اختلطـوا

بالنـاس وأسـهموا إسـهامات فعالـة في التطـور الاقتصـادي في البـلاد. وفي كسـلا لهـم أحيـاء خاصـة بهـم، فهنـاك حـي البرنـو في كسـلا وحـي الهوسـا في غـرب القـاش وحـي الفلاتـة في الختميـة، ولهـم نشـاط ريـاضي بـارز تمثـل في فريـق الموردة الـذي تأسـس في الخمسـينيات مـن القـرن المـاضي، ثـم تحـول الاسـم إلى فريـق القـاش، كـما أن لهـم دوراً لا بـأس بـه في الحيـاة السياسـية في زمـن الانتخابـات. أمـا أوائـل التجـار في كسـلا، الذيـن لهـم دور في ازدهـار حركـة التجـارة وانتعـاش الحيـاة الاقتصاديـة بوجـه عـام، فأذكـر عـلى سـبيل المثـال : أبوالقاسـم محمـد الأمـين وحـاج مختـار إبراهيـم وعبدالرحيـم وعمـر عبدالسـيد وعـوض الأصـم وآل أحيمـر وعـلى أزرق والبخيـت سـيد أحمـد وبخيـت الليثـي وحامـد الشـنقيطي والتيجـاني مليـح وآل أبـو سـيف وآل هـلا وبـرسي وآل سـمهن وأحمـد الشـابك وآل دنبـلاب والنـور حسـن وآل فقـيري وعبداللـه خليفـة وأحمـد الشـايقي وعبدالماجـد كمـير وعثـمان عبـاس وإبراهيـم فضـل المـولى (أرومـا) وحمـزة الخـير وآل الضيقـي وإبراهيـم يونـس وآل مسـعود وعبداللـه الحسـن محمـد نـور وآل الوقيـع ومحمـد شـيخ إدريـس (في الزراعـة والتجـارة) وعبداللـه الحجـازي ومحمـد الحسـن عطـا وكثيريـن غيرهـم.

بعض الحرف الأخرى:

اهتمـت الإدارة في كسـلا منـذ تأسـيس المدينـة عـلى يـد الأتـراك في العـام 1840م وحتـى العـصر الحديـث بتنظيـم السـوق والحـرف، فوضعـت لـكل حرفـة رئيسـاً ينظـم لهـم أمورهم ومصالحهـم، واتفـق بعـض الـرواة أن هنـاك حرفـاً مـن أهمهـا النسـيج والغـزل. وكـما سـبق القـول فـإن تجـارة الأقمشـة في كسـلا كانـت رائجـة وواسـعة الانتشـار، وكان الإقبـال عليهـا كبـيراً حيـث يـأتي إليهـا التجـار مـن مناطـق بعيـدة خصيصـاً لشرائهـا وبيعهـا في مناطقهـم. وقـد قامـت المـرأة بـدور كبـير في تطويـر هـذه الصناعـة التـي تحتـاج إلى مهـارة في التطريـز عـلى المنسـج وخياطـة الكروشـيه. وممـن اشـتهرت بعمـل المنسـج والتطريـز وفـن الخياطـة الرفيـع والمنقـوش أذكـر:

التومـة بنـت الحسـن وسـتنا عبداللـه ري ومعظـم بنـات الحـوش (نسـبة إلى حـوش الشريفـة السـيدة نـور والشريفـة السـيدة فاطمـة الميرغنيـة – طيّـب اللـه ثراهـما) وقـد نـال عـدد مـن بنـات الحـوش تعليـماً راقيـاً متقدمـاً في القـراءة والكتابـة في هـذا الحـوش بتوجيـه مـن الشريفـة السـيدة فاطمـة عـلى يـد الأسـتاذ حسـن سرالختـم الصـافي، وأذكـر منهـم آمنـة بنـت ري وأختهـا سـتنا وعرفـة بنـت البلـل، رغـم أنـه كان تعليـماً غـير نظامـي، إلا أن

المذكـورات وغيرهـن وصلـن لدرجـة متقدمـة في التعليـم وإجـادة القـراءة والكتابـة بصـورة ممتـازة، وكان آل الميرغنـي (ومـا زالـوا) يعنـون ويهتمـون بتربيـة أبنـاء وبنـات أسر الطريقـة الختميـة ومريديهـا ويتكلفـون بتربيتهـم ومعاشـهم وتعليمهـم ويتعهـدون بهـذه الرعايـة حتـى يتـم زواج هـؤلاء الأبنـاء والبنـات.

وكان الصاغـة والحـدادون (ومـا زالـوا) يتمتعـون بمهـارة عاليـة فاشـتغلوا بصناعـة الذهـب والفضـة، كـما اشـتغلوا بصناعـة الحديـد وصهـره، وعملـوا الآلات الزراعيـة والحـرث التـي كان الطلـب عليهـا متصلاً خاصـةً بعـد ازدهـار مـزارع غـرب القـاش ومـشروع القـاش وزراعـة الـذرة في القضـارف، كـما كانـت الحاجـة ملحـة ومسـتمرة إلى صناعـة الأسـلحة: مثـل السـيوف والسـكاكين والخناجـر. كـما وجـدت أيضـاً صناعـة الزينـة والحـلي النسـائية، كـما نافسـت كسـلا مدنـاً كثـيرة في صناعـة الحديـد وصهـره.

ومـن أشـهر شـيوخ السـوق في كسـلا وبعـض شـيوخ الحـرف المختلفـة أذكـر: الشـيخ عثـمان شريـف ومتـولي أبـو النجـا وعـلى مكـرب وآل قصـير ونـور الديـن أحمـد نورالديـن ومحمـد نمـيري وآل عيـسى دبلـوك وآل الباتـرة (محمـد وإبراهيـم) وطـه محمـد الحسـن وعبدالرحمـن أبورجلـة وآل الـولي وعبداللـه كابـو. وعرفـت كسـلا بتفـوق أبنائهـا ومهارتهـم وذوقهـم الرفيـع في الصناعـة المهمـة للنـاس أذكـر عـدد منهـم وهـم عبدالعزيـز عطـا المنـان ومحمـد حـاج إبراهيـم وأخـوه أحمـد وبريـر ومحمـد عبدالخـير وعـلي صديـق وعبدالقـادر فـرج اللـه وعبدالواحـد فضـل المـولى وحميـدة عبدالـرازق وحيـدر محمـد عثـمان القريـر وإبراهيـم الجـاك وجنـدي كلفـي وعمـر عبداللـه كابـو – وهنـاك الكثـير مـن غـير هـؤلاء تمتعـوا بمهـارة عاليـة وفـن رفيـع في هـذا المجـال منهـم الخواجـة الصايـغ هيراجـس، وسـاعد هـذا الأمـر في أن يكـون في كسـلا مصنوعـات ذهبيـة وفضيـة عاليـة المسـتوى وأصبـح لهـا دور كبـير في المدينـة وخارجهـا وسـمعة طيبـة وشـهرة عظيمـة في الجـودة والإتقـان وفـن النقـش في الحـلي الذهبيـة والفضيـة ويقـف أمـام كل هـؤلاء المهـرة في هـذا الـذوق والفـن الرفيـع معلـم الأجيـال الحـاج مانجيـل. فقـد امتـازت كسـلا إلى جانـب ذلـك بتفوقهـا عـلى غيرهـا في بعـض الصناعـات الجلديـة لأنهـا اسـتفادت في تلـك الأيـام مـن الوفـرة في أغنامهـا البيضـاء والحمـراء والزرقـاء ذات الجلـد الناعـم الـذي لا مثيـل لـه في بـلاد كثـيرة. فوجـدت منتوجاتهـا الجلديـة عـلى ضـوء ذلـك إقبـالاً كبـيراً لتصديرهـا، كـما كان يعمـل منـه السـجاجيد الفاخـرة والفـراء الجميـل والحـذاء المشـكل الألـوان. أمـا الأقمشـة المصبوغـة فقـد كانـت تجـد لهـا إقبـالاً لا بـأس بـه في المنطقـة ومـا حولهـا.

ولمدينـة كسـلا أسـواقها وحرفهـا المختلفـة التـي زخـرت بهـا المدينـة، وكانـت المدينـة تمـوج بالحركـة التجاريـة التـي سـاعدت عـلى ازدهـار الاقتصـاد في أشـكاله كافـة، فأسـهم الـرواج التجـاري عـلى الرخـاء المـادي والأدبي الـذي اشـتهرت بـه المدينـة في ذلـك الحـين، كـما انتـشرت الأسـواق الشـعبية، بجانـب وسـط المدينـة الرئيـسي.. فأذكـر سـوق الجلـود وسـوق الوكالـة وسـوق العيـش وسـوق النسـوان وسـوق السـعف ومحـلات الغسـالين وطواحـين الدقيـق والمنطقـة الصناعيـة وسـوق المـواشي في شرقـي المدينـة..

وكل هـذه الأسـواق بجانـب السـوق الكبـير جعـل مدينـة كسـلا مـن المـدن الزاهـرة في البـلاد، ففـي سـوق كسـلا محـلات الأقمشـة الفاخـرة والثيـاب والروائـح والعطـور والبخـور والخـردوات، كـما ظهـرت محـلات كبـيرة منـذ الثلاثينيـات والأربعينيـات إلى نهايـة الخمسـينيات وهـو مـا يُعـرف الآن باسـم (السـوبر ماركـت) التـي أقامهـا التجـار الإغريـق آنـذاك مثـل محـلات ونجيـلي وأبوزيـد المشـهورة بـل كان معظمهـا أكبر وأفخـر مـن محـلات السـوبرماركت الحاليـة، ومـن هـذه الأسـواق الكبـيرة أيضـاً الشركـة الحبشـية وصاحبهـا الخواجـة سـكراتس بابـا جورجيـو وظهـرت محـلات كبـيرة بعـد ذلـك مثـل السـودنة التـي أسسـها آل فقـيري عنـد قيـام الاسـتقلال العـام 1956م ومحـلات عبداللـه الحجـازي وآل سـمهن، ومنهـا كذلـك تجـارة الجملـة والأواني المنزليـة مثـل محـلات محمـد أحمـد دنبـلاب وفي تجـارة الجملـة ابـن عمـه محمـد خـضر دنبـلاب وغيرهـم كـثر.. وهنـاك أيضـاً محـلات إبراهيـم يونـس وعبدالمتعـال هريـدي وإخوانـه. وفي قلـب المدينـة كانـت تقـع حديقـة البلديـة المشـهورة التـي يقـضي فيهـا أبنـاء كسـلا أوقاتـاً جميلـة وهـي ملتقـى الأدبـاء والشـعراء والمثقفـين، التـي يـأتي إليهـا الـزوّار مـن كل حـدبٍ وصـوبٍ. وقـد بـذل الأسـتاذ محمـد خليـل إبراهيـم جهـداً مقـدراً في تنظيـم هـذه الحديقـة وتجميلهـا بالنجيلـة الخـضراء والزهـور الزاهيـة والملونـة. وأقـام داخلهـا ممـرات جانبيـة وعرضيـة وطوليـة سـاعدت عـلى تنظيـم حركـة الـزوار في داخلهـا، وأدت إلى الإقامـة المريحـة فيهـا. فأصبحـت هـذه الحديقـة معلـماً بـارزاً ومكانـاً جميـلاً يقـضي فيـه عامـة النـاس أوقـات فراغهـم، كـما كانـت ملتقـى يلتقـي فيـه روّاد الثقافـة والفـن والرياضـة واصبـح يؤمهـا الأدبـاء والشـعراء كـما يـأتي إليهـا الـزوّار مـن كل حـدبٍ وصـوبٍ. أمـا الريڤيـرا التـي تاسسـت بعدهـا في أوائـل السـتينيات فقـد أصبحـت هـي الأخـرى واجهـة مشرقـة للمدينـة بموقعهـا الممتـاز عـلى ضفـاف نهـر القـاش الخالـد. وقـد أضفـى عليهـا موقعهـا في مدخـل المدينـة أهميـة عظيمـة لجـذب

الـزوّار والسـواح فاكتسـبت ميـزة حضاريـة كبـيرة تتـماشى مـع النقلـة النوعيـة التـي تشـهدها المدينـة في التطـور والنـماء في ذلـك الوقـت. وجذبـت الحديقتـان الـزوّار والسـواح فأصبحـت أهـم المعـالم التـي ترمـز إلى جـمال المدينـة ووجهها الحضـاري وأخـذت الحديقـة الأولى لقـب حديقـة النجيلـة نسـبة للنجيلـة التـي زرعهـا واهتـم بهـا الأسـتاذ محمـد خليـل إبراهيـم ويطلقـون عليهـا أيضـاً لقـب حديقـة البلديـة نسـبةً إلى المجلـس البلـدي.

وفي أطـراف كسـلا الشـمالية والجنوبيـة والغربيـة المتراميـة تتزيـن المدينـة بأسـواق أخـرى صغـيرة لتلبـي حاجـات المواطنـين الضروريـة، كـما يقـع سـوق المـواشي الكبـير في شرقـي المدينـة وهـو مـن الأسـواق الكبـيرة في السـودان يسـتقبل كل المـواشي مـن أنحـاء متفرقـة مـن البـلاد مـن البطانـة ومـن الجزيـرة وكردفـان ومـن داخـل كسـلا نفسـها.. وتتمتع أسـواق كسـلا بالوفـرة في أشـياء كثـيرة خاصـةً في سـوق الخضـار المركـزي في اللحـوم والخـضر والفواكـه والدواجـن وغـير ذلـك.. وفي سـوق السـعف نجـد مصنوعـات محليـة جميلـة مـن السـبات والـبروش والأطبـاق. وهنـاك أسـواق محليـة في أحيـاء كسـلا المختلفـة مثـل سـوق غـرب القـاش وبانـت والختميـة، أراحـت النـاس كثـيراً مـن الذهـاب للمدينـة لوفـرة الأشـياء الضروريـة فيها..وكانـت بكسـلا في فـترة الأربعينيـات والخمسـينيات طاحونتـان مـن طواحـين الدقيـق الكبـيرة إحـدى هـذه الطواحـين يديرهـا الأخ محمـد الحسـن العراقـي وكان الأكـبر والأشـهر في المنطقـة، وكانـت تـأتي إليهـا أعـداد كبـيرة مـن داخـل المدينـة وخارجهـا في أرض القـاش ومنطقـة البطانـة وحتـى المصالـح الحكوميـة الكبـيرة كالسـجون والشرطـة والحاميـة تـأتي إليهـا. وتنفـرد هـذه الطاحونـة بطحـن مـا يـأتي إليهـا مـن ذرة ودخـن، وموقعهـا في قلـب سـوق كسـلا. وأعتقـد أن آثـار هـذه الطاحونـة مـا زالـت موجـودة في مكانهـا. وكان ملحـق بهـا غربـال لنظافـة وتنقيـة الدقيـق. كـما كان في كسـلا مصنـع كبـير للثلـج يوفـر إحتياجـات النـاس مـن الثلـج خاصـةً في شـهر رمضـان العظيـم. وقـد سـمعنا بوجـود معـاصر للزيـوت في وقـت سـابق للخمسـينيات تقـوم بطحـن السمسـم لاسـتخراج الزيـوت ولكننـا لم نشـاهدها في فـترة الخمسـينيات، وقامـت طاحونـة الخواجـة خريسـتو هـي الأخـرى بـدور كبـير بالطحـن في كسـلا، واشـتهرت كسـلا بمحـلات الفواكـه المسـتوردة كالتفـاح والعنـب والبرتقـال والبابـاي والقشـطة والمـوز، وكان عنـب وتفـاح لبنـان هـو الأشهر..واشـتهر عـن ودالتـوم وإبراهيـم طـه وسر الختـم كـرار ومحمـد عثـمان الأمـين (كرنكـة) وغيرهـم بأنهـم مـن أشـهر تجـار الفواكـه في كسـلا ولهـم صـلات تجاريـة في هـذا النـوع مـع تجـار الخرطـوم

الذيـن يجلبـون لهـم أحسـن الفواكـه وأفخرهـا. ومـن تجـار الفواكـه المشـهورين الذيـن يرسـلون الفواكـه إلى كسـلا ويصـدرون المـوز مـن كسـلا إلى خارجهـا أذكـر الأم درمـاني الكبـير مـن الحسـن إبراهيـم الـذي كانـت لـه صـلات حميمـة مـع أهـل كسـلا، وخاصـةً فريـق التـاكا الريـاضي الـذي كان يجلـب لـه أحسـن اللاعبـين مـن أم درمـان مـن أمثـال السـمع (مصطفـى حـاج حمـد) والدميـج وعبدالواحـد مصطفـى وغيرهـم.. وسـيأتي تفصيـل ذلـك في الحديـث عـن الحركـة الرياضيـة في كسـلا.. نشـأتها وتطورهـا إن شـاء اللـه، كـما كان في كسـلا منـذ مطلـع الخمسـينيات أجزخانـة خاصـة تُعـرف باسـم مخـازن أدويـة ثـم ازداد عـدد الأجزخانـات الكبـيرة في كسـلا في مـا بعـد. ومنـذ الأربعينيـات ظهـرت مكتبـة إبراهيـم داؤد ثـم تلتهـا مكتبـة كبـاشي ثـم مكتبـة نـاصر حـاج أمـان، فقامـت هـذه المكتبـات بـدورٍ كبـيرٍ في نقـل المعرفـة والثقافـة في المنطقـة.

اشـتهرت كسـلا بأحيائهـا الكبـيرة والمنظمـة التـي تسـكنها قبائـل وأجنـاس مختلفـة أدت إلى ذلـك النسـيج الاجتماعـي الفريـد في الاختـلاط والمصاهـرة الأمـر الـذي لـوّن الحيـاة العامـة بأزهـى الألـوان وسـاعد عـلى رقـي الحيـاة الاجتماعيـة والثقافية..الـخ.

ومـن أحيـاء كسـلا المشـهورة في ذلـك الوقـت وربمـا حتـى الوقـت الحـاضر، أذكـر حـي الختميـة وحـي الميرغنيـة وحـي السـوريبة وحـي جديـد وحـي بانـت وحـي الشـايقية وحـي البنـك وهـو مـن الأحيـاء الجديـدة والقديمـة معـاً، وهـو أحـدث الأحيـاء القديمـة، وحـي الباشـكاتب وحـي الحلنقـة بكسـلا وحـي الحلنقـة بحـي الختميـة وربمـا كانـا مـن أقـدم الأحيـاء في كسـلا عـلى الإطـلاق، وحـي الـكارة. وهنـاك أحيـاء كبـيرة مثـل غـرب القـاش والسـوريبة وحـي أبوخمسـة وحـي دردق وحـي البرنـو ومسـتورة، وفي أقـصى شرق كسـلا ومـن وراء جبـل التـاكا يقـع حـي عـواض وفي الجنـوب منـه تقـع منطقـة ود شريفـي.. أمـا تاجـوج فيبـدو أنهـا تقـع بضعـة أميـال مـن كسـلا في جنـوب جبـال أبي قمـل وقلسـة وفي غـربي مدينـة كسـلا توجـد مسـتورة وأحيـاء الزبيديـة أو الرشـايدة الممتـدة جنوبـاً حتـى الملويـة والحاجـز.

وكسـلا معروفـة بـل تـأتي شـهرتها مـن شـموخ جبالهـا المعروفـة في التاريـخ أو عـلى مـر الأزمـان والأجيـال والمشـهور عنهـا طولهـا وصخرتهـا الشـماء الصلبـة، ومنهـا جبـل التـاكا الـذي يتوسـط الجبـال، وفي أقـصى جنوبـه يقـع جبـل اللـوز وهـو الـذي تقـع في أسـفله توتيـل ذات النبـع المشـهور الـذي تتفجـر ينابيعـه مـن أعـلى تلـك الجبـال، وقـد تتبـع

الإيطاليـون عنـد احتلالهـم لكسـلا مصـدر هـذه الميـاه المتدفقـة مـن أعـلى وأقامـوا خطـاً مائيـاً بالمواسـير مـن أعـلى إلى أسـفل لتصـب الميـاه في آبـار صمموهـا للـشرب، بعضهـا لـشرب الإنسـان والآخـر لـشرب الحيـوان، كـما خصصـوا أماكـن لغسـل الملابـس وغـير ذلـك، وهـي منطقـة سـياحية وتسـتحق الاهتـمام أكـثر، ومـن جبـال كسـلا المشـهورة جبـل مكـرام الـذي يقـع في الجهـة الشـمالية ويشـتهر عنـه وفـرة المعـادن ومنهـا الجرانيـت الـذي يسـتخدم في الرخـام، وهنـاك اعتقـاد كبـير بـأن هـذه السلسـلة الجبليـة تزخـر بمعـادن نفيسـة كالذهـب والحديـد وربمـا الفوسـفات واليورانيـوم والبـترول في باطنـه، كـما أن جبـال كسـلا تتمتـع بجمالهـا مـن حيـث الارتفـاع والأشـجار التـي تغطـي حجارتهـا، وتكسـوها تلـك الخـضرة في زمـن الخريـف كـما يغطـي الضبـاب أوالشـبورة الـذي يسـميه النـاس هنـاك بالعفـرت وهـو ضبـاب كثيـف يظهـر في زمـن الخريـف ويعطـي المنطقـة بهـاءً وجـمالاً، وفي بعـض سـفوح هـذه الجبـال يوجـد ميـدان مسـطح في الجهـة الجنوبيـة الشرقيـة مـن توتيـل، وهـو ميـدان تحفـه الأشـجار مـن جوانبـه الأربعـة كأنـه ملعـب للكـرة يعـرف باسـم البـدوان ولا أدري لأي الأغـراض اسـتخدم هـذا الميـدان الفسـيح والمسـطح في أعـلى هـذا الجبـل وربمـا كان لأغـراض دينيـة أو اجتماعيـة.. وربمـا.. الـخ. وهنـاك نبـع توليـس في أعـلى سـفح الجبـل أو الصخـرة التـي تقـع في شرقـي مسـجد وضريـح السـيد الحسـن، وفيـه نبـع لمـاء عـذب، وهنـاك أيضـاً نبـع يعـرف باسـم مـاء الخمـيرة في أسـفل جبـل اللـوز.. وكلهـا مناطـق يتوافـر فيهـا المـاء معظـم فـترات العـام.

ويحـكي أهـل كسـلا كثـيراً عـن الأشـجار الكثيفـة التـي تغطـي جبـال كسـلا في قديـم الزمـان، ويتكلمـون عـن الفواكـه وأشـجار التـين، وقـد شـاهدنا عنـب الديـك وثمـار طماطـم جبـل تشـبه القضيـم، ويحـكي النـاس عـن شـجرة الإكسـير التـي نـشر فيهـا الأسـتاذ هاشـم سر الختـم الصـافي كتابـاً سـماه (شـجرة الإكسـير) نـشره مكتـب النـشر في بدايـة الخمسـينيات كـما أفـرد لهـا الأخ أحمـد طـه وصفـاً شـيقاً في كتابـه (عبقريـة الزمـان).

واشـتهر عـن كسـلا في ذلـك الوقـت التخطيـط الجيـد فيهـا ونظافتهـا وتطـور صحـة البيئـة فيهـا كـما اشـتهرت بالوفـرة في أعـداد موظفـي وعـمال الصحـة الذيـن يبذلـون جهـداً كبـيراً في النظافـة والقضـاء عـلى النامـوس والباعـوض الـذي يتكاثـر في الـبرك والخـيران، ويـترددون عـلى المنـازل لرشـها بالمبيـدات وعرفـت كسـلا بمطاعمهـا المشـهورة ذات الأكلات الشـهية والطاعمـة والطهـي الجيـد والممتـاز مثـل مطاعـم المرحـوم الجـاك وعطيـة ومحمـد

محمـود ومطعـم الـوادي ومطعـم أبوطيـارة، ومطعـم أحمـد طيـارة (أحمـد محمـد خليفـة طيـارة).

كـما أنـه لا أحـد ينـسى مطاعـم الفـول المشـهورة عـلى نطـاق واسـع، وهـي تمتـاز عـلى مطاعـم كثـيرة في البـلاد مثـل مطاعـم ود عكـر وفـول ود أحمـد، كـما ظهـرت فيهـا في مطلـع الخمسـينيات مطاعـم السندوتشـات والوجبـات السريعـة مثـل محـلات السـنوسي سـعيد وخـيرات لصاحبهـا الـسر عبيـد أو الـسر خـيرات الـذي اشـتهر بهـذا الاسـم، كـما أن أحـداً لا ينـسى كـرار قمريـة صاحـب السـلات (الشـواء أو الكبـاب عنـد المصريـين) وهـو شـواء عـلى الجمـر يُعـرف في شرق السـودان باسـم السـلات ولا تجـده عنـد أشـهر المطاعـم في القاهـرة مثـل أبوشـقرة وحـاتي الجيـش في بـاب اللـوق أو الدهـان في سـيدنا الحسـين، يُضـاف إلى هـذا السـلات الـذي بـرع فيـه كـرار قمريـة وغـيره أيضـاً القـرار في كسـلا، ومنـذ زمـن طويل اشـتهر رجـل في كسـلا عـرف بتجويـده وإتقانـه لهـذا النـوع مـن الطعـام يعـرف هـذا الرجـل باسـم فـكي أورو (ودالفـكي) وهـو الـذي تـدرب كـرار قمريـة عـلى يديـه وكان أحـد تلاميـذه الذيـن اشـتهروا بهـذه المهمـة مـن بعـده لزمـنٍ طويـلٍ.

وتـأتي للسـلات والقـرار جماعـات كثـيرة مـن المدينـة وخارجهـا، فأصبـح مـن الأكلات والوجبـات المحببـة والمفضلـة لـدى الكثيريـن (ولا أحـلى)، وهنـاك أيضـاً مـكان خـاص لطهـي رأس الخـروف المعـروف بالنيفـة واشـتهر بـه طبـاخ كسـلا وهـو عطـا المنـان وقـد أصبـح بارعـاً ومعلـماً لطهـي رأس الخـروف أو النيفـة بطريقـة جميلـة (وعـلى مسـتوى) وهنـاك محـلات البـان جديـد للحلويـات التـي أسسـها بشـير العـوض في بدايـة الخمسـينيات.. واعتقـد أن حلـواني البـان جديـد لا يـزال في مكانـه ومحافظـاً عـلى سـمعته التـي اكتسـبها منـذ أكـثر مـن خمسـين عامـاً، وكانـت حدائـق البـان جديـد الغنـاء قـد ظهـرت في الأبيـض عاصمـة كردفـان قبـل الخمسـينيات بقليـل، وهـي حدائـق ومـزارع للفاكهـة وتعتـبر مـن أجـل الحدائـق في السـودان، وهـي التـي تغنـى لهـا الفنـان الكبـير عثـمان الشـفيع مـن قصيـدة الشـاعر الكبـير محمـد عـوض الكريـم القـرشي الرائعـة (البـان جديـد)، فأخـذ بشـير العـوض هـذا الاسـم الجميـل مـن بـاب التيمـن وأطلقـه عـلى هـذا المحـل المشـهور بأطيـب أنـواع الحلويـات في كسـلا، واعتقـد أن الأخ مصطفـى العـوض يـشرف ويقـوم بإدارتـه اليـوم كأحسـن مـا يكـون الأداء، وأذكـر أيضـاً محـلات الزهـرة باشـا الخاصـة بتقديـم عصـير الليمـون والبرتقـال الـذي اشـتهر عنـده عصـير الليمـون والبرتقـال بنكهـة خاصـة وطعـم جميـل، وكان محلـه يقـع

في شـمال سـوق الوكالـة المشـهورة، والوكالـة كانـت عالمـاً بذاتـه، وكان هـذا المحـل يزدحـم بالأفـراد والجماعـات الذيـن يأتـون إليـه مـن كل مـكان في كسـلا، كـما اشـتهرت في كسـلا مقـاهٍ كثـيرة تعتـبر ملتقـىً مهـماً لأهـل كسـلا والمشـهور منهـا: قهـوة يوسـف ودالنجـار وقهـوة أرامـي وقهـوة عثـمان وقـر ومقهـى عـم عيـسى، والمقاهـي الأخـيرة يضمهـا سـوق الوكالـة الكبـير المشـهور بكـثرة أسـواقه، ومنهـا محـلات ود أب شـعر وسـوبر ماركـت عبداللـه الحجـازي ومحـلات محمـد الحسـن عطـا ومحـلات ردو وعـلي نقنـاق، ووكالـة العيـش ومحـلات السندوتشـات والعصائـر السـياحية، بجانـب محـلات الحلاقـين المشـهورة ومنهـا محـل الحكـش للحلاقـة وظهـرت أماكـن فاخـرة وحديثـة لبيـع الثلاجـات ومحـلات الأدوات الكهربائيـة منهـا الراديـو والفونوغـراف وذلـك منـذ منتصـف الأربعينيـات، واشـتهر الخواجـة ألفـي تـادرس ببيـع الثلاجـات الفاخـرة منهـا أدمـيرال ذات الحجـم الكبـير، ويجـاور هـذا ا لمـكان مـكان الإسـبيرات المعـروف في كسـلا منـذ الأربعينيـات أيضـاً، واعتقـد أنـه أول مـكان يُخصـص لبيـع اسـبيرات العربـات ووابـورات اللسـتر المخصصـة لسـحب المـاء مـن الآبـار في سـواقي غـرب القـاش التـي حلـت محـل السـواقي (ويسـمونها المـترة)، كـما اشـتهر عـن إبراهيم أحمد السيد مسعود استجلاب واستيراد الفونوغراف والراديوهات H I S MASTER VOICEالتـي تعمـل ببطاريـة السـيارات في ذلـك الحـين، وظهـر هـذا المـكان مع ظهـور إذاعـة هنـا أم درمـان، كـما كان في كسـلا معامـل كبـيرة لتصنيـع الليمونـادة وصاحبهـا الخواجـة كوسـتا آراماكـس، وكان هـذا المصنـع يغطـي حاجـة كسـلا ومـا حولهـا مـن عصـير الليمونـادة، وقـد أشـارت الروايـات إلى أن هـذا المصنـع ظهـر في كسـلا منـذ الثلاثينيـات مـن القـرن المـاضي.

والراجـح أن بعـض هـذه الأماكـن لا يـزال موجـوداً في مكانـه، وربمـا ظـل بعضهـا محافظـاً عـلى مكانتـه وجودتـه مثـل البـان جديـد ومحـلات خـيرات، والجديـر بالذكـر أن محـلات خـيرات التـي ظهـرت في منتصـف الخمسـينيات قـد جـاءت فكرتهـا مـن محـلات زكي ومرهـج وسـويت روزانـا بالسـوق الأفرنجـي بالخرطـوم، التـي تأسسـت جميعهـا في الأربعينيـات تقريبـاً.

وقـد روى لي الأخ أحمـد طـه بـأن محـل عطـا المنـان للنيفـة لا يـزال موجـوداً في مكانـه ومحافظـاً عـلى جودتـه، ومـا أحـلى النيفـة في ذلـك المـكان.

إلا أن معظـم الأماكـن التـي أشرنـا إليهـا في هـذا السـياق أصبحـت تاريخـاً، بـل أصبحـت

جـزءاً مـن الذاكـرة والماضي المجيـد مثـل محـلات ودعكـر ومرحـوم الجـاك وعطيـة والـوادي ومحمـد محمـود وغيرهـم.

لم تعـرف كسـلا الفنـادق واللوكنـدات إلا في فـترة متأخـرة مـن تاريخهـا، وكنـا نسـمع بفنـدق أو لوكونـدة أبـو طيـارة وهـي مختصـة للضيـوف الأجانـب مـن أثيوبيـين وإيطاليـين وهنـود يـترددون عـلى كسـلا مـن وقـتٍ لآخـر، كـما أن فكـرة قضـاء شـهر العسـل لم تظهـر في كسـلا ولا في السـودان كلـه إلا بعـد نهايـة الخمسـينيات وبدايـة السـتينيات، وكنـا نسـمع بأركويـت وبـيروت وأسـمرا وهكـذا.. وكان الـزواج في الغالـب يبـدأ في منـزل العريـس ثـم ينتهـي في منـزل العـروس ويسـتمر لأسـبوع ويقولـون الأسـبوع أو أسـبوع العريـس.. إلا أن كسـلا اشـتهرت بهـذا النـوع مـن العطـلات (عطلـة أو شـهر العسـل) في فـترة السـتينيات ومـا بعـد ذلـك، فاتجهـت الأنظـار إلى كسـلا خاصـةً في موسـم الخريـف، فأصبحـت كسـلا هـي الأنسـب دون غيرهـا مـن البـلاد لقضـاء هـذه العطلـة والعطـلات الأخـرى، وسـاعد عـلى ازديـاد عـدد الفنـادق الجميلـة عـلى زيـادة أعـداد الـزوار والسـياح بصفـة عامـة، وحلـت كسـلا محـل أركويـت واسـمرا وبـيروت.

وتنشـيط وتطويـر السـياحة وأماكنهـا أمـر مهـم وضروري لجـذب السـيّاح والـزوّار، وأصبحـت السـياحة في العـالم كلـه صناعـة مهمـة ومتطـورة وعلـماً قائمـاً بذاتـه في الجامعـات ودراسـاتها العليـا.. ويتابـع الجميـع جهـود ولايـة كسـلا وإدارة السـياحة بصفـة خاصـة وعـلى رأسـها حسـن اللـه جابـو ومعاونـوه وإدارة العلاقـات العامـة فيهـا بإعـداد أماكـن السـياحة ومناطـق الآثـار المختلفـة في شرقـي كسـلا وشـمالها، خاصـة وأن كسـلا هـذه الأيـام تعـج وتزدحـم بزوارهـا في فصـل الخريـف وانسـياب ميـاه نهـر القـاش، خاصـةً الأجانـب الذيـن وفـدوا إلى المدينـة الجميلـة بعـد اتفاقيـة السـلام التـي أصبحـت تتهيـأ للتنميـة والتطـور بعـد أن عـمّ السـلام والأمـن في ربـوع البـلاد.

وتشـهد كسـلا التخطيـط لقيـام مشروعـات طموحـة في مجـال السـياحة قامـت إدارة السـياحة بدراسـتها والبـدء في تنفيذهـا مثـل مـدن الملاهـي وتهيئـة الفنـادق الممتـازة والنظيفـة والمجهـزة بأجـود أنـواع التأثيـث، وملاعـب الأطفـال والحدائـق العامـة في داخـل المدينـة وعـلى طـول ضفـاف القـاش وحتـى منطقـة جـمام ومـا بعدهـا. هـذا بالإضافـة إلى الكازينوهـات والكافتيريـات، وتطويـر آثـار مامـان وغيرهـا مـن مناطـق أثريـة مهمـة تحـكي وتصـور تاريـخ كسـلا وحضارتهـا المغمـورة منـذ أكـثر مـن سـتة آلاف سـنة، كـما أن منطقـة

جـمام الجميلـة، التـي اكتشـف الإنجليـز جمالهـا وروعتهـا وبهاءهـا وكانـوا يقضـون فيهـا عطلاتهـم، فهـي الأخـرى تسـتحق العنايـة فهـي منطقـة سـياحية جذابـة تكتـسي الخـضرة ربوعهـا، وتـزدان جـمالاً بأشـجارها الكثيفـة ومياههـا المتدفقـة باسـتمرار، وقـد أعدهـا الإنجليـز بصـورة تتناسـب وجمالهـا وموقعهـا الفريـد عـلى الضفـة الغربيـة لنهر القـاش، وكان طـلاب المـدارس والكشـافة يعسـكرون في ذلـك المـكان الزاهـي بالخـضرة والجـمال. ويمكـن لإدارة السـياحة بالاتفـاق مـع الجهـات ذات الاختصـاص إصـلاح الطريـق القديـم المـؤدي لهـذه المنطقـة السـياحية الجذابـة وتعبيـده حتـى يسـهم في دفـع عمليـة التنميـة مـن جهـة وتطويـر السـياحة مـن جهـة أخـرى، ويمكـن أن تسـهم (شركـة جـمام للتنميـة) التـي أسسـها اللـواء سـليمان جوهـر وأطلـق عليهـا هـذا الاسـم مـن بـاب التيمـن بذلـك المـكان الجميـل، يمكـن أن تسـهم في أعـمال تنميـة هـذه المنطقـة، ولـلأخ سـليمان جوهـر اهتمامـات كثـيرة بتطويـر كسـلا ومرافقهـا المختلفـة، ولـه نشـاط اجتماعـي واسـع يمكـن أن يزينـه بنشـاط اقتصـادي كبـير في هـذه النواحـي السـياحية وجوانـب التنميـة والتطـور في كسـلا.

المصالح الحكومية في كسلا:

دخلـت الإدارة الحديثـة وفكـرة المصالـح الحكوميـة في كسـلا مـع دخـول الأتـراك هـذه المنطقـة، وقـد سـبقت الإشـارة إلى أن أحمـد باشـا شركـس (أبـو ودان)، الـذي أصبـح حاكـماً عـلى السـودان هـو الـذي شـهدت فـترة حكمـه فتـح مديريـة جديـدة في السـودان، هـي مديريـة التـاكا وعاصمتهـا كسـلا التـي كانـت معروفـة بهـذا الاسـم عنـد دخـول الأتـراك إليهـا. وقـد قـاد هـذا الحاكـم جيشـاً ينفسـه غـزا بـه أرض التـاكا العـام 1840م حيـث نجـح في الاسـتيلاء عليهـا وضمهـا لـلإدارة المصريـة منـذ ذلـك التاريـخ، ومـن ثـم بـدأ الأتـراك في وضـع اللبنـات الإداريـة الأولى وإدخـال وسـائل وأسـاليب الحكـم الحديثـة التـي بـدأ بهـا الباشـا محمـد عـلي حكمـه في مـصر منـذ العـام 1804م وعـلى هـذا الأسـاس صـدرت الأوامـر لمديـر كسـلا بتشـييد مبـاني الدوائـر الحكوميـة، حيـث تـم بنـاء مبـاني المديريـة في مكانهـا الحـالي والطبجيـة التـي كانـت في بدايـة نشـأتها وقيامهـا تشـغل مبـاني مصلحـة الأشـغال الحاليـة، ثـم شرعـوا بعـد ذلـك في بنـاء حاميـة كسـلا، كـما بـدأوا التوسـع في بنـاء دوائـر الحكومـة المختلفـة ومنـازل كبـار الإداريـين والموظفـين في المنطقـة المعروفـة باسـم الـكارة. وأضـاف الحكمـدار ممتـاز باشـا الـذي خلـف أحمـد باشـا شركـس المسـلة الموجـودة حتـى اليـوم داخـل حاميـة كسـلا لأغـراض اقتصاديـة وأخـرى عسـكرية. فالحكمـدار ممتـاز باشـا

هـو الـذي أدخـل زراعـة القطـن في البـلاد وفي مديريـة التـاكا في دلتـا القـاش عـلى وجـه الخصـوص، فشـيد المسـلة خصيصـاً لهـذا الغـرض المرتبـط بزراعـة القطـن ولتكـون مدخنـة تسـاعد في أعـمال إنتـاج القطـن، وتقـوم في نفـس الوقـت بمهمـة أخـرى تتعلـق بالأمـن وبعـض الجوانـب العسـكرية الأخـرى ومراقبـة حـدود البـلاد ورصـد الأعـداء الذيـن كانـوا يشـكلون خطـراً عـلى البـلاد مـن الناحيـة الشرقيـة.

أمـا المصالـح الحكوميـة المختلفـة التـي أقامهـا الأتـراك في كسـلا وأدخـل عليهـا الإنجليـز تعديـلات وإضافـات مختلفـة، فأذكـر منهـا الطبجيـة التـي بـدأت عملهـا في منطقـة الأشـغال الحاليـة، مبـاني القضـاء والعـدل التـي كانـت تشـغل مكانهـا الحـالي ثـم توسـعته فيـما بعـد. وقـد سـبق القـول أن الأتـراك أنشـأوا مدرسـة أوليـة وابتدائيـة وهـي التـي عرفـت بمدرسـة كسـلا الأوليـة أو مدرسـة كسـلا الأميريـة في زمـن الإنجليـز، وقـد شـيِّدت في منطقـة حـي الحلنقـة بكسـلا أو آخـر حـي الـكارة شـمالاً، وهـي المدرسـة التـي تلقـى معظـم أبنـاء كسـلا تعليمهـم فيهـا عـلى يـد شـيوخ جهابـذة في العلـم ويعتـبرون مـن الفقهـاء والعلـماء.. وقـد بـدأ الإنجليـز خـلال فـترة حكمهـم للبـلاد (1899-1956م) في وضـع هيـاكل جديـدة تواكـب التطـور والمدنيـة الحديثـة، فبـدأوا في إعـادة مديريـة كسـلا عـلى أسـس جديـدة حتـى تتمكـن مـن تلبيـة احتياجـات المواطـن وتسـهل لـه عمليـة كسـب العيـش حسـب تخطيـط جديـد في التنميـة الزراعيـة والتجاريـة والتعليميـة. وكان مديـر المديريـة هـو السـلطة الأعـلى في كسـلا يعاونـه مفتشـون إنجليـز ومآمـير مصريـون. وكان السـكرتير الإداري في الخرطـوم هـو المسـؤول الأول عـن شـؤون المديريـات، وكان لـه حـق إصـدار الرخـص للتجـار، كـما أن مـن أهـم واجباتـه نقـل وترقيـات موظفـي الحكومـة، كـما كان مسـؤولاً عـن السـجون والبوليـس.. وكان المصريـون قـد تولـوا في بدايـة الحكـم الثنـائي أمـر الشرطـة، إلا أن الإنجليـز قامـوا باسـتبدالهم بسـودانيين تدريجيـاً..

وبجانـب البوليـس وجـد أيضـاً الخفـراء الذيـن اسـتخدموا لحراسـة المـدن، ولتوصيـل رسـائل العمـد الأسـبوعية للمآمـير. وكان مـن أشـهر مـن تـولى أمـر الإدارات الأمنيـة والإشراف عليهـا مـن السـودانيين في تلـك الفـترة الكـودة ومحمـد الأمـين، وقـد اتصـف الاثنـان بالحـزم والدقـة في أداء هـذه المهـام التـي يمتـزج فيهـا الجانـب الإداري بالقضـائي بكل أمانـةٍ وإخلاصٍ.

وتطـورت الهيئـة القضائيـة المحليـة في زمـن الإنجليـز أكـثر مـما كانـت عليـه في زمـن الأتـراك. وقـد تكونـت هـذه الهيئـة في بدايـة نشـأتها في كسـلا مـن البريطانيـين، ثـم انضمـت

إليهم مجموعة ذات كفاءة عالية من السودانيين من أمثال الدرديري محمد عثمان ومحمد أحمد محجوب والدرديري أحمد إسماعيل، وكان يتردد عليهم من وقتٍ لآخر في جوانب متعلقة بالقضاء مبارك زروق.

ويعتبر مدير المديرية قاضياً من الدرجة الأولى ومفتشوا المراكز قضاة من الدرجة الثانية، ومآمير المراكز من الدرجة الثالثة، رغم أن هؤلاء جميعاً لم يؤهلوا تأهيلاً قانونياً - ما عدا السكرتير القضائي وهو بريطاني الأصل - بالإضافة إلى القضاة السودانيين المشار إليهم. وقد أشرف السكرتير القضائي على القضاء المدني والشرعي والقبلي والعرفي. كما أنشيء جهاز للمخابرات في كسلا وفي غيرها من المدن التي يتطلب فيها الأمر وجود هذا الجهاز الأمني المهم.

وقد أسند الإشراف العام على هذا الجهاز للسيد ونجت حاكم السودان. وكان ونجت قد شغل منصب مدير المخابرات في السودان منذ العام 1895م حتى تعيينه حاكماً للسودان العام 1900م خلفاً للورد كتشنر. فأصبح ضابط المخابرات في المديريات يتبع المخابرات في الخرطوم. وكان مديرو مديرية كسلا المستر همفري وهانكوك وبرودين هم الذين وضعوا الهياكل االإدارية الجديدة في كسلا التي يمكن أن تلائم طبيعة المرحلة، حيث قسموا مديرية كسلا إلى عددٍ من المراكز التي تشمل مدن كسلا والقضارف وبورتسودان وأروما وطوكر وسنكات وسواكن وحلايب. وفي كل مركز من هذه المراكز مفتش بريطاني. كما قسم كل مركز من هذه المراكز إلى عدد من الأقسام الإدارية عين على كل منها مأمور. وقد شغل البريطانيون كل وظائف المديرية ومفتشي المراكز وعلى المآمير تقع مسؤوليةحفظ الأمن وجمع الضرائب وإدارة جهاز القضاء فيها. وكان مدير مديرية كسلا يقوم بتنفيذ ما تطلبه منه الحكومة المركزية مثل الاهتمام بتطوير الموارد الزراعية والصناعية وتطوير الريف والإشراف على ميناء بورتسودان والجمارك، ويخضع معتمد البحر الأحمر في بورتسودان لمدير مديرية كسلا. وقد منع مديرو المديرية في كسلا من شراء الأراضي الزراعية في القاش ودلتا طوكر وسواقي غرب القاش، كما منع المديرون من العمل بالتجارة وقبول الهدايا من السودانيين وإقامة العلاقات مع نساء مناطقهم.

لقد اتسمت فترة النصفين الأول والثاني من القرن العشرين في كسلا بالتخطيط الدقيق المتقن واللازم لتطوير المديرية في شتى النواحي منها ترقية المرافق المختلفة

في الصحـة والتعليـم وإقامـة الطـرق والجسـور والاهتـمام بزراعـة الأرض وإقامـة الحدائـق والبسـاتين والعنايـة بأمـر الغابـات. وقـد أنشـأ الإنجليـز إدارة خاصـة للبسـاتين والغابـات تـولى أمرهـا والعنايـة بهـا سـودانيون أكفـاء تحـت إشراف وخـبرة بريطانيـة، واسـتمرت هـذه العنايـة مسـتمرة إلى مـا بعـد فـترة الاسـتقلال. وأذكـر رواد هـذا المجـال في الغابـات محمـد الحسـن سـيد أحمـد في الغابـات وكامـل الحـاج في البسـاتين. وكامـل الحـاج شـغل منصـب سـكرتير الاتحـاد المحـلي لكـرة القـدم في كسـلا عـدة سـنوات، وكان لـه دور بـارز وكبـير في تقـدم وتطـور الرياضـة في هـذه المدينـة. وكان الإنجليـز قـد عهـدوا للمسـتر تشـارتون مفتـش المركـز في كسـلا بتأسـيس دار الرياضـة الحاليـة بصفتـه راعيـاً للنشـاط الريـاضي في منطقـة كسـلا.

وبالفعـل بـدأ العمـل في بنـاء دار الرياضـة في كسـلا العـام 1946م واسـتغرق البنـاء عامـاً كامـلاً حيـث اكتمـل في العـام 1947م، وتـم الافتتـاح رسـمياً في احتفـال كبـير أقيـم في شـهر مـارس تقريبـاً بـدأ بمهرجـان ضخـم تبـارت فيـه الفـرق الكـبرى الميرغنـي والتـاكا والشـباب وتوتيـل والجيـش الإنجليـزي.

أمـا الحديـث عـن ا لإدارة في مديريـة كسـلا، فيمكـن القـول بأنهـا بـدأت تمـارس مهامهـا وفـق المتطلبـات الجديـدة التـي رسـمتها السـلطات البريطانيـة مـع الاسـتعانة بالخـبرات السـودانية في هـذا المجـال. وكان مـن أوائـل الإداريـين السـودانيين الذيـن شـغلوا مناصـب إداريـة كبـيرة مثـل منصـب الباشـكاتب والمأمـور ورئيـس المحاسـبين والكتبـة، فقـد سـبقت الإشـارة إلى أن المـرضى جبـارة كان أول مـن شـغل منصـب باشـكاتب مديريـة كسـلا، ولفـترة طويلـة ارتبـط اسـمه بهـذا المنصـب الإداري المهـم والكبـير في ذلـك الوقـت، لدرجـة أن أهـل كسـلا أطلقـوا عـلى أحـد أحيـاء المدينة اسـم (حـي الباشـكاتب) نسـبة إلى العوض الباشـكاتب الـذي صـار أمينـاً للـمال في أم درمـان عقـب سـقوط مدينـة كسـلا في أيـدي جيـوش المهـدي. وأصبـح هـذا الحـي مـن الأحيـاء المعروفـة في كسـلا، ومـا زالـت تقيـم فيـه أسرة الباشـكاتب وأحفـاده. كـما أن الخليفـة محجـوب تـولى منصـب المأمـور في تلـك الفـترة، وتقلـد هـذا المنصـب أيضـاً عثـمان عـلي كيلـة، وهـو أصـلاً مـن ضبـاط قـوة دفـاع السـودان، ولمـا أحيـل للتقاعـد مـن الخدمـة العسـكرية أسـند إليـه الإنجليـز وظيفـة مأمـور كسـلا. وأذكـر في هـذا المقـام أصحـاب الوظائـف الكبـيرة مـن السـودانيين محمـد الأمـين والكـودة وتوفيـق صالـح جبريـل الأديـب والشـاعر الـذي تـولى وظائـف إداريـة مهمـة في كسـلا. كـما تـدرج حسـن إبراهيـم قريـن في الوظائـف والسـلك الإداري في كسـلا وغيرهـا إلى أن أصبـح مديـراً لمديريـة

كسلا في أواخر الخمسينات وأوائل الستينيات (1959-1962م)، أما خلف الله بابكر الشاعر والأديب، فهو الآخر قد تقلد منصب مدير عام الصحة في كسلا منذ أوائل الأربعينيات وعاصر رواد الحركة الوطنية والنهضة الأدبية الذين أثروا الحياة الثقافية والأدبية والشعرية في كسلا في تلك الفترة. وكان له دور كبير في الرقي بالمرافق الصحية والاهتمام بالصحة وتطوير البيئة خلال مرحلة الأربعينيات الزاخرة بالأحداث الوطنية والثقافية والتاريخية المختلفة.

كانت مصلحة الموازين والمكاييل من المصالح المهمة التي اهتمت بها الحكومة في ذلك الوقت، وهي هيئة حكومية تعنى بشؤون السوق ومراقبة المكاييل والموازين وضبط الجودة، ويبدو أن إدارتها كانت تتبع لمدير المديرية مباشرة وهي تشبه في مهامها وظيفة الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، خاصةً فيما يتعلق بأمر السوق، وقد أشرف على هذه الإدارة خلال تلك الفترة عبدالله محمد الحسن وهو من أوائل خريجي المدارس الثانوية في ذلك الوقت تخرج في مدرسة وادي سيدنا الثانوية في العام 1950م، وتدرّج في الإدارة في مواقع مختلفة منها سودان بتاكو ومصلحة الموازين والمكاييل في كسلا، ولما تقاعد للمعاش كان يشغل أمين عام الخطوط البحرية السودانية. والطريف أن مصلحة الموازين والمكاييل ارتبط بها، واشتهر بالعمل فيها الفنان المشهور والمسرحي المعروف عبدالمحمود الأمين الذي كان صاحب فكاهة وظرف وخفة في الروح وطيب في المعشر، كان يجيد التمثيل على المسرح في الدراما والكوميديا. من أشهر روائعه دوره في فيلم تاجوج المشهور. وعن الحديث عن الإدارة ورموزها المعروفين آنذاك، أذكر أيضاً جعفر علي الحاج الذي تولى وظائف إدارية عديدة. وهو من أوائل خريجي الشرطة حيث تخرج العام 1955م وتدرج في هذه الوظائف المختلفة وأحيل للتقاعد برتبة ملازم أول، حيث عمل لشركة بلدمور بالقضارف واتجه بعدها للزراعة المطرية والبستانية.

وكل هؤلاء وغيرهم ممن عملوا في زمن الإدارة البريطانية أو في ظل الحكومات الوطنية المتعاقبة نجحوا في أداء دورهم المنوط بهم خير قيام، وكانوا جميعاً من طراز الإداريين الفريد في الكفاءة والمقدرة الإدارية، ومهّدوا بذلك الطريق إلى السودنة، ووضعوا اساساً ثابتاً ومتيناً لمن جاء من بعدهم وحذا حذوهم، بل من هؤلاء من وصل إلى منصب مدير المديرية ومنصب الوزير.

ولا بـد مـن الإشـارة في هـذا المقـام أيضـاً إلى الباشـكاتب المشـهور بالحـزم والدقـة في أداء عملـه، وهـو عثـمان عبدالعظيـم وهـو الـذي شـغل هـذا المنصـب في مديريـة كسـلا فـترة مـن الزمـن وعمـل معـه عـدد مـن الكتبـة ورؤسـاء المكاتـب والمحاسـبين، أذكـر منهـم أمـين المخـازن عبدالرحمـن عثـمان مختـار وعبداللـه الشـابك وأخيـه تـاج الـسر ومولانـا الخليفـة عبداللـه الحسـن الباتـرة. كـما لا يفوتنـي أن أذكـر مديـر شـؤون الخدمـة والموظفـين والمعاشـات في كسـلا مولانـا الأخ نافـع محمـود حامـد الـذي عمـل عـلى تنظيـم هـذه الأمانـة بـكل تفـان ومسـؤولية.

وفي جانـب القضـاء المـدني والشرعـي في كسـلا، الـذي اشـتهر بالحيـدة والعدالـة، واتصف بالنزاهـة وتطبيـق القوانـين بحذافيرهـا حتـى عـلى الإنجليـز أنفسـهم، لابـد أن نذكـر القـاضي الدرديـري محمـد عثـمان الـذي شـغل منصـب قـاضي محكمـة في كل مـن بورتسـودان وكسـلا خـلال فـترة الثلاثينيـات والأربعينيـات، الـذي عـرف عنـه الحـزم والصرامـة في تطبيـق العدالـة ولا تأخـذه في الحـق لومـة لائـم، والمشـهور عنـه أنـه أمـر بجلـد أحـد البريطانيـين في وسـط سـوق المدينـة بعـد أن أدانتـه المحكمـة واعتبرتـه مذنبـاً لاعتدائـه عـلى أحـد أو بعـض المواطنـين، وتـم تنفيـذ العقوبـة بالجلـد عـلى البريطـاني كـما أمـر القـاضي الدرديـري بذلـك، وقـد أشـار القـاضي الدرديـري محمـد عثـمان إلى هـذه الواقعـة في كتابـه (مذكـراتي)، كـما أشـار إلى غضـب الإنجليـز عليـه، إلا أنهـم كـما أشـار لم يحركـوا سـاكناً، وكظمـوا غيظهـم، وهـذا يعتـبر في حـد ذاتـه اعترافـاً منهـم بالخطـأ الـذي ارتكبـه أحـد رعاياهـم. والدرديـري محمـد عثـمان هـو عضـو ورئيـس أول مجلـس سـيادة تكـون في السـودان بعـد تكويـن الحكومـة الوطنيـة الأولى التـي ترأسـها إسـماعيل الأزهـري (1954-1956م)، والـده محمـد عثـمان وجـده خالـد كانـا سـفيرين لدولـة المهديـة في الحبشـة، كان والـده محمـد عثـمان خالـد سـفيراً للخليفـة عبداللـه للحبشـة، كـما كان جـده خالـد سـفيراً قبـل ذلـك للمهـدي في نفـس الدولـة، كـما أن جـدة والدتـه مـن آل سـوار الدهـب، لذلـك فهـو مـن أسرتـين كبيرتـين، فـآل سـوار الدهـب مـن كبـار رجـال الختميـة، وأجـداده لأبويـه مـن كبـار رجـالات المهديـة، لذلـك أهلتـه هـذه الصفـة أن يجمـع بـين السـيدين السـيد عـلي الميرغنـي والسـيد عبدالرحمـن المهـدي في لقـاء السـيدين المشـهور في العـام 1957م، حيـث أزال هـذا اللقـاء أسـباب التوتـر بـين البيتـين الكبيريـن وتحقيـق الصفـاء الـذي كانـت تحتـاج إليـه البـلاد في تلـك المرحلـة التاريخيـة المهمـة مـن حيـاة الأمـة السـودانية. وكانـت فـترة الدرديـري

محمد عثمان في كسلا فترة مهمة وهي فترة الأربعينيات التي كانت تشتعل بالأحداث التاريخية الكبرى مثل استمرار الحرب العالمية الثانية واحتلال الطليان لكسلا وبلوغ الحركة الوطنية ذروتها بالنضال ضد الاستعمار ومرحلة قيام الأحزاب في البلاد.. فازدانت هذه المرحلة في كسلا بالنهضة الأدبية والثقافية التي اشتعلت جذوتها في ذلك الحين، وكان الدرديري يعقد جلسات الأدب في كسلا ويقرض الشعر الجزيل، ويُنظم مع أقرانه جلسات المناظرة في الأدب والشعر من أمثال محمد أحمد محجوب وخلف الله بابكر وعبدالرحمن مصطفى والدريري أحمد إسماعيل وشاعر الدهليز المأمور توفيق صالح جبريل ومبارك زروق الذي كان يزور كسلا بين الفينة والأخرى في مهام تتعلق بالقضاء وسير بعض القضايا في كسلا. واشتهرت المنطقة الفسيحة الممتدة من منطقة شيخ اسحق حتى البادوب خلف الجبل بأنها المنطقة التي كانت تنظم فيها حلقات الشعر وجلسات الأدب والمناظرة، وكان يؤم ويحضر هذه المناظرات والمبارزات الشعرية كثيرون من أبناء كسلا، حيث كان يفتتن هؤلاء في إلقاء قصائدهم الوطنية والعاطفية، وتذخر كلها بالفصاحة والشعر البليغ الرصين. وكانت حدائق كيلة - كما سبقت الإشارة إليها - هي الأخرى امتداداً لجلسات الأدب والفكر. لذلك يعتبر أهل الأدب والشعر أن تلك الفترة (فترة الأربعينيات) هي مرحلة ازدهار الأدب والثقافة، بل يعتبرها هؤلاء أنها قمة العصر الذهبي للأدب والثقافة في كسلا.

أما القضاة الآخرون الذين اشتغلوا في هذا المنصب المهم والرفيع، فيذكر منهم محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الأسبق الذي عمل في كسلا لعدة سنوات خلال فترة الأربعينيات، وكذلك زار كسلا لنفس الغرض - ولعدة مرات - القانوني الضليع والسياسي البارز مبارك زروق وزير المواصلات في أول حكومة وطنية (حكومة الحزب الوطني الإتحادي الأول) (1954-1956م)، ووزير المالية في حكومة أكتوبر الأولى العام (1964-1965م).

ومن القضاة الشرعيين الذين عملوا في كسلا خلال تلك الفترة الشيخ عبدالله الترابي والد الدكتور حسن الترابي الذي ولد في كسلا إبان عمل والده بالقضاء الشرعي هناك وأطلق عليه والده اسم حسن تيمناً بالسيد الحسن الميرغني، وأيضاً القاضي الشرعي العميري والشيخ الأمين الطيب أبو قناية. كما ظهرت نخبة من القضاة بعد ذلك تعتبر من خيرة القضاة - ومعظمهم من أبناء كسلا - بعضهم تولى منصب

القاضي والبعض الآخر اختار جانب المحاماة، أذكر منهم على سبيل المثال: عبدالرحمن عبده وعبدالله أبوعاقلة أبوسن وحسين عبدالله السمحوني وحسن أحمد الماحي وهاشم عبدالله ومحمد عثمان محمد سعيد ومولانا الشيخ عبدالرحيم صباحي والد القاضي المعروف محمد عبدالرحيم صباحي والشاعر مرتضى وهو من أهالي العيلفون، وأيضاً سيد خضر أبوسيف.

ويبدو أنني أشرت فيما سبق إلى كبار الإداريين من البريطانيين والوطنيين ممن تولوا منصب مدير مديرية كسلا ونوابه.. ومنهم:

همفري وهانكوك وبروديه وهندرسون وتشارلستون وأندروبول صاحب كتاب (تاريخ البجا في السودان) وأسندت بريطانيا لأحد موظفيها في السودان وهو الإداري همفري أوبلك منصب ممثل الإمبراطورية في كسلا، أو يقولون ممثل بريطانيا العظمى في كسلا. أما أصحاب المناصب العليا الذين تقلدوا منصب مدير المديرية أو نائبه، فأذكر ميرغني الأمين الحاج الذي كان هو أول مدير لمديرية كسلا بعد الاستقلال أو أنه شغل المنصب في الفترة الإنتقالية العام 1954م واستمر فيه إلى أن رفع علم الإستقلال العام 1956م.

وبعبارة أدق أنه هو الذي تسلم إدارة مديرية كسلا من آخر إداري بريطاني فيها. وتوالى على كسلا بعد ذلك عدد من المديرين ونوابهم وأذكر منهم داؤد عبداللطيف وحسن دفع الله وعلي بلدو وحسن قرين وإبراهيم الطاهر وعثمان جاد الرب. أما داوود الخليفة عبدالله فهو الإداري الذي قام بمهام أعمال سودنة الوظائف في كسلا وهي التي اشتهرت في تاريخ السودان باسم (السودنة) وقام داؤد الخليفة بسودنة وظائف كسلا خير قيام، فتحولت الإدارة تلقائياً من البريطانيين إلى الوطنيين.

المجلس البلدي:

نشأ المجلس البلدي في كسلا منذ مطلع القرن العشرين من أجل النهوض بالبيئة وتطوير المرافق المختلفة وتحقيق الأهداف الخاصة بالتنمية والتخطيط السليم، وهو يلي المديرية في الأهمية الإدارية والتنفيذية، كما يقوم بتنفيذ السياسة العامة للمديرية في المدينة، لذلك يعتبر المجلس البلدي الذراع الأيمن للمديرية من حيث العمل على ازدهار الحياة العامة وتطوير مجالات الزراعة والتجارة والصحة وتطوير البيئة الاجتماعية بوجه عام، وقد بذلت إدارة المجلس البلدي في كسلا منذ قيامها جهوداً

منية حتى كللت هذه الجهود بالنجاح وتنظيم أحيائها بصورة لائقة منذ وقتٍ بعيدٍ.

وقد عمل في مجلس كسلا البلدي منذ قيامه ضباط تنفيذيون يتمتعون بخبرة واسعة في العمل الإداري والتنفيذي، وبذلوا ما في وسعهم، ما يمكن أن يؤدي إلى تطوير المدينة والنهوض بمرافقها المهمة. وقد ساعدت الحنكة والخبرة والإخلاص والتفاني على تحقيق الأهداف المنشودة في التطور والازدهار.

كما مكنت سلطاتهم الواسعة التي منحت لهم من تنظيم السوق والبيوع، وضبط الجودة والإهتمام بتنظيم الطرق وإقامة الجسور في داخل المدينة وفي أحيائها المختلفة، فتمشى كل ذلك وتلائم مع الاهتمام والعناية بالصحة والنظافة العامة وتشجيع أبناء المواطنين على التعليم الابتدائي وتقديم يد العون لأبناء الفقراء الذين يلتحقون بالمدارس الوسطى والثانوية، وكانت العوائد والضرائب المختلفة تقع ضمن اختصاص هذا المجلس. ولدى المجلس جماعة من المشرفين والإداريين الذين يتولون أمر جبايتها وتحصيلها. وفي المجلس البلدي هيئات تشريعية وتنفيذية وإدارية، وله مجلس تشريعي يتمتع بسلطات واسعة في الإشراف والتخطيط والتطوير والمراقبة ووضع الخطوط العامة للسياسة والتوجه، الذي ينبغي أن يؤدي لتلبية احتياجات المواطنين والاهتمام بنواحي الحياة المختلفة في المدينة.

وواضح منذ البداية أن هيئة المجلس البلدي وضباطه التنفيذيين كانوا يعملون بانسجام تام وبكل تفانٍ وإخلاص ومسؤولية حتى أضحت كسلا في الخمسينيات مدينة جميلة لا يضاهيها في هذا الجمال إلا العاصمة الخرطوم، بل إن مدينة كسلا في ذلك الوقت البعيد تمتاز على الخرطوم بجمال الطبيعة فيها. وقد نجح المسؤولون في هذا المجلس على تعبيد الطرق وإقامة الشوارع الطويلة مثل شارع المحطة الذي يؤدي إلى وسط المدينة بعد تشييد كوبري القاش وفروعه المختلفة التي تؤدي إلى أطراف المدينة، وتوسعوا في إنارة هذه الطرق، وأقاموا الجسور في المناطق المهمة التي تساعد على المرور والعبور إلى أحياء المدينة المختلفة.

ولابد من الإشارة إلى ثلاثة رجال من رجال المجلس البلدي الذين لمع اسمهم وذاع صيتهم وارتبط اسمهم بالنهضة والتطور الذي تتمتع به مدينة كسلا وأحياؤها المتناثرة، أخلصوا وأبدعوا وتفانوا وأجادوا فكان التخطيط السليم والإشراف الواعي على كل مرفق من مرافق الحياة المختلفة، وقد وضع فيهم أهل كسلا الثقة المطلقة،

وأوكلوا لهم أمر البناء والتطوير وعقدوا لهم لواء القيادة والإشراف التام، ومنحوهم ما يحقق رغبات وتطلعات أبناء كسلا لتحقيق التنمية وتوفير الحياة الكريمة.

لقد ارتبط البناء وازدهار الحياة في المدينة باثنين من التشريعيين هما محمد الحسن فقيري وعبدالرحمن مصطفى، والثالث تنفيذي هو محمود فرج مالك.. فقد بذل هؤلاء الثلاثة مجهوداً كبيراً في تخطيط مدينة كسلا على أسس حديثة، فكانت الشوارع والحدائق الجميلة التي ازدانت بها المدينة مثل حديقة البلدية (حديقة النجيلة) وحدائق المجلس البلدي المجاورة للجامع الكبير وحدائق المديرية وملعب التنس وتخطيط حي البنك وبنائه على أحدث طراز. كما اعتنى هؤلاء بالصحة والثقافة العامة في المدينة والأحياء، وقد سبقت الإشارة لدور عبدالرحمن مصطفى وآل فقيري مع غيرهم في بناء مدرسة كسلا الوسطى (مدرسة المؤتمر) لتكون بذلك أول مدرسة وسطى في كسلا، شيدها رجال الحركة الوطنية في كسلا - رغم أنف المستعمر - وبناءً على رغبة مؤتمر الخريجين الذي دعا إلى الاهتمام بالتعليم وبناء المدارس ونشر الوعي فكانت مدرسة كسلا الأهلية رائدة التعليم في البلاد بأسرها وقامت بدورٍ كبيرٍ في دعم مسيرة الحركة الوطنية ومناهضة الاستعمار.

وقد اهتم هؤلاء بتطوير المدارس الأولية والوسطى وتأثيثها بالأثاث المناسب وتطوير مكتبات هذه المدارس وتزويدها بالكتب المفيدة، وهي في هذا الجانب تقوم بدور فاعل مع وزارة التربية ومكاتبها الإقليمية في ذلك الوقت من أجل المعرفة ونشر الوعي والثقافة. وقائمة الشرف الموجودة في المجلس البلدي وثيقة تاريخية مهمة توضح الدور الذي قام به الثلاثة بالطبع مع غيرهم، في دعم مسيرة المجلس البلدي ليقوم بدوره من أجل رفاهية أبناء كسلا ورفعة المنطقة وتقدمها.. وكان لعبدالرحمن مصطفى جائزة تقديرية للأبناء المتفوقين في التعليم، وتقدم لأول الشهادة (الأولية) تشجيعاً وحافزاً للبذل والاجتهاد وظلت هذه الجائزة القيمة قائمة حتى وفاته - يرحمه الله- العام 1960م. وقد أشار الأستاذ سليمان حسن محجوب مدير تعليم مرحلة الأساس بولاية كسلا في خطابه الموجه إلى مديري تعليم المحليات برغبة أسرة المرحوم عبدالرحمن مصطفى وأبنائه في إحياء تلك السنة الحميدة التي استنها والدهم حتى تكون هذه الجائزة حافزاً لأبناء كسلا وبناتها في البذل والعطاء والاجتهاد. وقد ولد الشيخ عبدالرحمن مصطفى بحي الختمية ودرس بالمدرسة الأميرية الأم التي أشرنا

إليها كثيراً، وامتد عطاؤه في المنطقة بأسرها وكان له دور وطني كبير في الحركة الوطنية وأثناء احتلال الإيطاليين لكسلا، وقد ظل رئيساً للمجلس البلدي في كسلا حتى سنة وفاته العام 1960م، بعد سنوات قضاها في العمل الصالح ومن أجل رفاهية كسلا وتقدم أبنائها، واتسمت فترة عطائه في كسلا رغم قصرها بجلائل الأعمال وعظائم الأفعال الإنسانية، وقد أطلق أهل كسلا اسم الشيخ عبدالرحمن مصطفى على إحدى قاعات المجلس البلدي تخليداً لذكراه.

أما محمد الحسن فقيري، فقد تفانى هو الآخر في خدمة كسلا وعمل ما في وسعه من أجل تطويرها وتقدمها، وكان له دور كبير مع أخويه عبدالله وعثمان في الحركة الوطنية، وكنا نسمع ونحن في المدرسة الأولية مطلع الخمسينيات بملامح حبه لعمل الخير وخدمة مواطنيه، ويبدو أن تلك الفترة هي التي انتقل فيها إلى جوارِ ربه، فعرفنا من أهل كسلا أنه كان سباقاً لكل عمل خير وامتد عطاؤه لبقية سكان المدينة، وقد ارتبط اسمه بالمجلس البلدي والتخطيط والتنفيذ والبناء حتى تصل كسلا لمصاف المدن الكبيرة، كما كان يعتقد مثل عبدالرحمن مصطفى بأن لا تقدم ولا رفعة لأمة إلا بالعلم.

لقد انتقل محمد الحسن فقيري - إلى جوار ربه - في فترة مبكرة ولكنه ترك بصمات واضحة وإنجازات هائلة يحكي بها أبناء كسلا ردحاً من الزمن، وقد أطلق أهل كسلا اسمه على أحد شوارع المدينة المهمة وفي قلبها - وهو شارع محمد الحسن فقيري - لأعماله العظيمة وتخليداً لذكراه العطرة، وقد اقترن اسمه مع عبدالرحمن مصطفى بالإصلاح وبناء النهضة الحديثة في كسلا. وكنا ونحن صغار نشاهد عبدالرحمن مصطفى وهو يقف مع العمال والمهندسين الذين يقومون ببناء الجسور وتعبيد الطرق خاصة طريق كسلا - الختمية الطويل. ويشرف بنفسه على حفر المجاري والخيران وإقامة الكباري عليها مثل كبري الأنادي وجسر حلة جديد - السوق وجسور حي الختمية العديدة.

أما الرجل الثالث، فهو الضابط التنفيذي الذي يسميه أهل كسلا - ضابط المجلس - محمود فرج مالك، فهو من أسرة آل فرج مالك المشهورة في كسلا، ويعتبر محمود فرج مالك من أشهر ضباط المجالس في السودان، اشتهر بالحزم والإخلاص والوفاء لكسلا، وهو من بناة نهضة كسلا الحديثة أيضاً وأحد مؤسسيها على أسس

حديثة وطراز جديد، ساعدته الخبرة الإدارية على تخطيط وبناء كسلا على أساس جديد يتمشى مع التطور وروح العصر، وكان السوق وأقسامه المختلفة تشير إلى تلك الملامح والعناية والمتابعة الدقيقة التي كان يقوم بها عبدالحميد فرج مالك ويشير الرواة إلى أن معظم حدائق كسلا مثل حديقة البلدية وحديقة الريڤيرا التي ظهرت في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كان وراء تنفيذها محمود فرج مالك وخلفه أحمد مصطفى الطاهر وكان أهل كسلا يشيدون دائماً بالخبرة الإدارية والعزم والحزم التي تمتع بها وساعدته هذه في تنفيذ مشروعات تطوير مدينة كسلا، ويذكرون أنه كان مخلصاً في عمله، غيوراً على مصلحة كسلا وأهلها، كما أنه كان يتمتع بوطنية صادقة وله محبة خاصة وشعبية كبيرة في كسلا تقديراً لإخلاصه وعمله الدؤوب من أجل رفعة المنطقة وإسعاد أبنائها..

ولا أنسى فجر الاستقلال (أول يناير 1956م) والموكب الكبير الذي تقدمه محمود فرج مالك من المجلس البلدي إلى المديرية وجموع الجماهير تسير خلفه وهي تهتف عبارتها المعروفة في ذلك الحين (عاش السودان حراً مستقلاً)، وأذكر أن إدارة مدرسة كسلا الأهلية الوسطى قد طالبت من كل المدرسة الحضور مبكراً إلى المدرسة في صباح ذلك اليوم المجيد، وكنا من طلاب السنة الأولى في العام الدراسي 1955-1956م ونحن في طريقنا إلى المدرسة عن طريق المجلس البلدي شاهدنا محمود فرج مالك ضابط المجلس بمفرده داخل المجلس ويتجه إلى حيث المكان الذي توجد فيه (صافرة المجلس البلدي) صاحبة الصوت المدوي الذي يهز أركان كسلا، صباحاً وظهراً في كل يوم إيذاناً ببداية العمل ونهاية العمل في الثانية ظهراً. رأينا محمود فرج مالك الضابط الكبير يتجه بنفسه إلى مكان صفارة المجلس المشهورة ويطلق بنفسه تلك الصافرة المدوية التي هزت أركان المدينة وأرجاءها هزاً عنيفاً بصوتها المدوي لتعلن على الملأ بزوغ فجر جديد في تاريخ السودان وهو فجر الحرية والاستقلال وما هي إلا لحظات حتى امتلأ وسط المدينة بآلاف المواطنين لينتظموا في مواكب عظيمة يقودها محمود فرج مالك إلى حيث يقوم الاحتفال في المديرية ودار الرياضة بكسلا.

انضم موكب مدرسة كسلا الأهلية إلى موكب المواطنين الذي انتظم بقيادة محمود فرج مالك وكان ناظر المدرسة المناضل الأستاذ حسن بيومي - عليه رحمة الله - قد أمر بتنظيم الطابور الذي كان يتوسطه الناظر والمدرسون من حوله، ثم ألقى الأستاذ

حسن بيومي كلمة قصيرة تمجد الاستقلال العظيم الذي تحقق بالكفاح والنضال، وألقى الأستاذ حسن أحمد (القاتل) قصيدة قوية ورائعة تصور نضال الأمة من أجل العزة والكرامة، بعد ذلك طلب ناظر المدرسة من الطالب محمد عثمان مصطفى وكان من ضمن طلاب الفرقة الأولى أن يتقدم إلى حيث منصة الاحتفال التي كان يتوسطها صارٍ طويل وطلب الناظر من الطالب (صغير السن والحجم) أن يرفع علم السودان إلى أعلى الصاري وكانت لحظات عظيمة وكنا نحس بعظمتها وجلالها رغم صغر السن في ذلك الوقت، ورفع محمد عثمان علم السودان إلى أعلى مع الهتافات والتصفيق الحاد، وهو العلم الأول ذو الألوان الثلاثة: الأخضر والأصفر والأزرق الذي تم استبداله بالعلم الحالي في زمن حكومة الرئيس الأسبق جعفر محمد نميري، وانضم موكب المدرسة إلى موكب جماهير مدينة كسلا الذي يقوده الضابط الكبير محمود فرج مالك حتى وصل هذا الموكب العظيم إلى حدائق مديرية كسلا ثم إلى دار الرياضة، حيث ألقى السيد ميرغني الأمين الحاج أول مدير لمديرية كسلا بعد السودنة كلمة ضافية بمناسبة الاستقلال العظيم وجماهير كسلا وطوائفها المختلفة تُحيي هذا اليوم الخالد في تاريخ الأمة السودانية وترد هتافاتها (عاش السودان حراً مستقلاً) وتندد بالاستعمار باللغتين العربية والإنجليزية يسقط الاستعمار.

طلاب الفرقة الأولى بمدرسة كسلا الأهلية الوسطى في أول يناير 1956م:

عبدالله الباترة والخير محمد الحسن محجوب وعثمان الشايقي وميرغني أحمد أوشيخ ومدني محمد مدني وأحمد فقيري وصلاح عجب وسعيد إسحق القدال وحسين إدريس وكمال همشري ومحمد عبدالسلام محجوب والحاج خضر ومحجوب عثمان مختار وعلي أحمد حترة وسيد أحمد كمير ومحمد أمين عبده وعبدالله الحسن شمس وجعفر مكرب والأمين عبدالله ميرغني ومحمد صالح عبدالله وعبداللطيف شريف وإبراهيم عبدالعزيز أبو النجا وعبدالرحمن وراق وفرح خريف الأمين وإبراهيم نديم وعبدالقادر كيلة وجعفر عوض الله وعلي محجوب أحمد وعبدالله علي رمرم وأبوعبيدة يوسف بشير ومحجوب محمد عثمان العراقي وإبراهيم عباس الفكي ومعتصم عبدالرحمن وعوض محمد الحسن علي الزين وأحمد ياسين صالح وعلي عثمان قدور وبابكر محمود النور ومحجوب حاج عثمان وعبدالله عثمان ومحمود زكي وأمين فؤاد والنعيم سليمان وبيومي وحسين جمعان وحسن أحمد محمود وعثمان

علي عبدالجليل وحسن عبدالرحمن محجوب محمد خير وأحمد عبدالله العوض وفاروق بابكر محمد أحمد الحاج..

ومن طلاب الفرقة الثانية، أذكر: عثمان السمحوني وجعفر عثمان بخيت وتاج السر عبدالله الشيخ والدمياطي.. أما طلاب السنة الثالثة فمنهم: عبدالكريم محجوب وعبدالعظيم عبدالله يوسف (حركة) وأنس العاقب والأبوابي أحمد ومحجوب الوقيع وسليمان جوهر وأحمد الشيخ محمد علي وإبراهيم عبدالرحيم وعبدالمطلب سيد أحمد وباشري..ومن طلاب السنة الرابعة: كان هناك عبدالرحيم الشيخ وعبدالله أحمد الشابك وعبدالله عثمان مختار ومحمود محمد الأمين.

هذه أمثلة ونماذج لعدد من طلاب مدرسة كسلا الأهلية الوسطى في المراحل المختلفة والتي كان لها شرف الاشتراك في الاحتفال بيوم النصر، وحضور ذلك اليوم العظيم أول يناير 1956م، ويمكن القول أن المجلس البلدي بكسلا قام بدور طليعي بارز وكبير في الحركة الوطنية مثل دوره في البناء وتطوير الأداء، وتفاني أعضاؤه في خدمة مواطني المنطقة وتطويرها في المجالات الاقتصادية والتجارية والزراعية والتعليمية كافة، ولابد من الإشارة إلى عدد آخر ممن عمل مع الثلاثة جنباً إلى جنب ممن سبقت الإشارة إليهم ويعتبر أهل كسلا أن الضابط الأول في المجلس البلدي الذي خلف محمود فرج مالك، الذي عمل مكملاً لأعماله في النهضة التي شهدتها المدينة هو أحمد مصطفى الطاهر الذي عمل بكل أمانة وإخلاص وكان بحق متمماً لأعمال الثلاثة، فشهدت مدينة كسلا في نهاية الخمسينيات تطوراً كبيراً في بنيتها الأساسية، وتحولاً مهماً في الجوانب الحضارية المختلفة، وعمل في المجلس عدد آخر مثل أحمد عبدالرحمن محمد وعمر أحمد جعفر وعثمان حسن يوسف وعلي الهداب وزهراء الطيب أحمد والصادق بانقا الشيخ وجعفر يوسف عبود. والأمانة تقتضي القول إن هناك عدداً آخر من موظفي هذا المجلس عاصر هذه النهضة الحديثة وكان له دور فاعل في قيامها منهم: عباس الفكي وعبدالباسط أحمد وعلي خليفة طه وعثمان مختار ومحمد دين وعمر الحسن الأمين وعثمان عيسى دبلوك وأبوالقاسم سمهن وطه الباشكاتب وأحمد الطاهر وأبوالقاسم محمد طاهر شريف وإبراهيم عباس ويعقوب محمد نور ومحمد عثمان عمر وعمر بين ومصطفى جرنوس وكان لكل واحد من هؤلاء دور لا يستهان به في ضبط الجودة والإتقان والأداء المتميز الأمر الذي أسهم بشكل واضح في ترقية الخدمات وتطويرها.

ومهما يكن من أمر، فإن مجلس بلدي كسلا كان يعتبر من مجالس البلاد التي تمتعت بالشهرة والإنجاز والتخطيط السليم في مجال تطوير الجوانب الاجتماعية والاهتمام بالبيئة بوجهٍ عام، وكان ضباط المجالس ومساعدو الضباط يتمنون العمل في هذا المجلس والنقل إلى كسلا للعمل في مجلسها الكبير ذي الشهرة الواسعة، وكان لهذا المجلس اهتمام كبير في مجال الرياضة والنهوض بها لا يقل عن دوره البارز دوماً في مجال النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأذكر أنه خصص كأساً كبيرة بل كان من أكبر الكؤوس في كسلا يُعرف باسم (كأس المجلس البلدي) تتبارى وتتنافس عليه فرق كسلا الكبيرة في ذلك الوقت، وكان يشرف المباراة النهائية مدير المديرية ورئيس مجلسها البلدي وضباطه وكبار المسؤولين في المدينة ويقوم رئيس المجلس البلدي بتقديم الكأس للفريق الفائز، كما يقدم الهدايا والجوائز المختلفة للاعبي الفريقين وقد سبقت الإشارة إلى أن المجلس البلدي كان يقدم باستمرار مساعدات مالية لعدد كبير من أبناء كسلا لتشجيعهم على مواصلة تعليمهم الثانوي والجامعي.

التحق عدد كبير من أبناء كسلا من خريجي الجامعات الحكومية المحلية واشتغلوا في وظائف ضباط المجلس البلدي في مدن البلاد المختلفة وتدرج عدد منهم في الوظائف الإدارية حتى وصل بعضهم إلى مناصب رفيعة في الدولة كمنصب الوالي أو الوزير أو مدير المديرية..الخ. وأذكر من أبناء كسلا في هذا المجال حامد علي شاش وسليمان عثمان فقيري وعمر أحمد جعفر وكرم محمد كرم ومحمد علي زمر وجعفر عثمان بخيت ومحمد بابكر (ود العو) وكان الجميع موضع التقدير والإشادة، امتازوا بالأمانة والدقة والجودة والعمل الدؤوب الذي يساعد على التطور والتقدم المنشود.

مصلحة الأشغال:

يتولى أمر إدارة هذه المصلحة منذ قيامها في زمن الإنجليز مهندس إداري يعرف باسم (باشمهندس الأشغال)، وهي وظيفة هندسية وإدارية مهمة وكبيرة، ومن مهام هذه المصلحة تشييد دور الحكومة والمصالح المختلفة في المنطقة، ويقع عليها في معظم الأحيان بناء المدارس والمستشفيات وتشييد المنازل الحكومية، والقيام بصيانة هذه المرافق وتأثيثها بالأثاث اللازم. ومن يشغل وظيفة الباشمهندس ونوابه ومساعدوه لابد أن يكونوا من خريجي كلية الهندسة سواء في جامعة الخرطوم أو المعهد الفني في ذلك الوقت. ويتمتع باشمهندس الأشغال في المدينة بأهمية كبيرة وله نفوذ وهيبة

لا تقل في الأهمية عن مدير المديرية أو ضابط المجلس البلدي في ذلك الحين. ولا أذكر أحداً شغل هذه الوظيفة في كسلا في زمن الإنجليز، إلا أنه تعاقب عليها عدد كبير من أصحاب الكفاءة العلمية بعد العام 1956م، فازدهرت في زمنهم مصلحة الأشغال التي أضافت فناً رفيعاً في هندسة المعمار في البناء على الحجر والطوب الفاخر أو من النجارة والنقش على الخشب الذي كانت تظهر ملامحه في الأبواب والنوافذ التي تتزين بها مباني المصالح الحكومية والمنازل والمدارس والمستشفيات.. الخ.

ومن شغل وظيفة باشمهندس الأشغال منذ الاستقلال ولاحقاً، أذكر: الصاوي ومحمد جمعة وعبدالعزيز ومحمد صادق ومحمد سيد أحمد، وشغل المهندس محمود مكي وظيفة نائب باشمهندس الأشغال في زمن عبدالعزيز محمد صادق. وقد أسهم كل هؤلاء في الحياة العامة مثل دورهم الفاعل في المجتمع والنهضة الثقافية والرياضية التي بدأت تزدهر في كسلا في ذلك الوقت. فكانوا أعضاءً بارزين في نادي كسلا الثقافي، كما كان بعضهم عضواً بارزاً في أحد الأندية الرياضية الكبيرة، فالصاوي شغل وظيفة إدارية كبيرة في نادي الميرغني، كما كان محمد جمعة من أعضاء نادي الشباب البارزين، وكان يتفانى في حبه للشباب والعمل على تقدمه.

أما الباشمهندس عبدالعزيز محمد صادق، فقد كان رئيساً لاتحاد كرة القدم المحلي في كسلا، وبذل جهوداً عظيمة في تطوير الرياضة، وحث الفرق على النهوض بالرياضة وتطورها. وقام مع محمد كرار النور بالإصلاحات الهائلة التي لا تزال عليها دار الرياضة في كسلا حتى اليوم، من ناحية التوسع في المساطب الجانبية والمقصورة وتحسين صورة الملعب، وفي عهده تم زراعة ملعب الكرة بالنجيلة لأول مرة في تاريخ دار الرياضة بكسلا العام 1963م، كما تم إنشاء ملعب كرة السلة في ذلك الوقت في الناحية الشمالية الشرقية من الملعب والدرابزين والتسوير وبناء مساطب جديدة في الجهة الشرقية للملعب. كما قام محمد كرار النور ومن بعده عبدالعزيز محمد صادق بتقديم مساعدات مالية للأندية حتى تتمكن من ترقية الأداء وتطوير كرة القدم وصقل المواهب وتدريبها. وأذكر أن عبدالعزيز محمد صادق كان دائم الزيارة للأندية وتشجيعها كي تقدم أفضل ما لديها. لذلك يمكن أن أقول إن الرياضة تطورت كثيراً في كسلا ووصلت مرحلة متقدمة نتيجة الاهتمام والرعاية التي كانت تجدها من هؤلاء المهندسين والإداريين في مواقع مختلفة، محمد كرار النور في السكة الحديد، والصاوي محمد جمعة وعبدالعزيز محمد

الصادق في الأشغال وكامل الحاج في إدارة البساتين، فساعد ذلك كثيراً على النهوض بفنون مختلفة في كسلا كالرياضة والثقافة..الخ.

يضاف إلى هؤلاء المهندسين عدد آخر من الفنيين والإداريين الذين اشتهروا بالعمل في مصلحة الأشغال في وظائف مختلفة مثل يوسف عبدالله بحر المشهور بموهبته في فنون (ألأرابيسك) والنجارة والنقش على الخشب والموبيليا الفاخرة، وكان معلماً لأجيال كثيرة استفادت من موهبته وفنه الرفيع، كما أذكر رؤساء الإدارة الآخرين ورؤساء المحاسبين أمثال عمر بشير وعثمان الحسن وأحمد فتح الرحمن الإداري الكبير الرياضي المطبوع الذي شغل هو الآخر وظائف إدارية عديدة في نادي التاكا في منصب الرئيس أو السكرتير..الخ. ومن موظفي الأشغال في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات عبدالسيد عبدالله بطران وعمر الشاعر والنعيم سليمان وحسن محمد الماحي وأحمد سليمان الخير.. وكانت شركة النور (شركة الكهرباء والمياه) تتبع لمصلحة الأشغال في ذلك الوقت. ومن أبرز مهندسي الشركة في فترة الخمسينيات والستينيات المهندس حسين مكي شقيق المهندس محمود مكي نائب باشمهندس الأشغال. وأذكر أن باشمهندس الأشغال عبدالعزيز محمد صادق ونائبه المهندس محمود مكي قد استنّ سنة حميدة في الأشغال وفكرة ممتازة لم تجد من يطورها ويسير على نهجها بعد ذلك، وهي فكرة الاستفادة من طلاب الجامعات في التخصصات المختلفة أثناء العطلة الصيفية، فكانا يشجعان الطلاب من أبناء كسلا في الجامعات للعمل بمصلحة الأشغال، كل حسب تخصصه ويتم توزيعهم على أقسام الأشغال المختلفة، وكنت أحد الذين وقع عليهم الاختيار للعمل في وظيفة إدارية طيلة أشهر العطلة الصيفية ضمن مجموعة أخرى وقع عليها الاختيار للعمل في أقسام هذه المصلحة الكبيرة، فأذكر من طلاب الهندسة عمر محمد الحسن فقيري وعثمان أحمد الشايقي وكمال سليمان قمر الأنبياء، ومن كلية الاقتصاد، اذكر فيصل يوسف مهيوب. وأذكر في هذا المقام أن مصلحة الأشغال كانت تستقبلنا بكل الود والترحاب أثناء فترة العطلة الصيفية. وليت المصالح الحكومية ودوائرها المختلفة تنتهج مثل هذا الأسلوب الذي له آثار إيجابية كثير وفوائد عظيمة تجني ثمارها كافة الأطراف.

السكة الحديد والمواصلات الأخرى:

افتتح خط سكة حديد الخرطوم – كسلا – للعمل في العام 1924م، ودخل أول

قطار مدينة كسلا في هذا التاريخ بعد أن اكتمل بناء الجسور والكباري التي أقيمت على أنهار النيل الأزرق والدندر والرهد ونهر عطبرة في خشم القربة. وقد قيل إن الإيطاليين هم الذين شيدوا كوبري خشم القربة تمهيداً للتحرك عن طريقه من كسلا إلى الخرطوم لاحتلالها.. ولكن الصحيح أن الإنجليز هم الذين شيدوا هذا الجسر قبل العام 1924م أي قبل افتتاح خط سكة حديد – الخرطوم – كسلا بوقت قصير، وهنالك رواية تشير إلى أن خط سكة حديد الخرطوم – كسلا قد تم افتتاحه أثناء افتتاح خزان سنار عندما طلب الإنجليز من السيد أحمد الميرغني القيام بافتتاحه، فتحرك السيد أحمد من كسلا إلى سنار وافتتح هذا المشروع العظيم.

ولما احتل الطليان كسلا العام 1940م كانوا يعتزمون احتلال الخرطوم والتحرك إليها من كسلا، وربما كانوا يفكرون في توسيع كوبري خشم القربة حتى يسهل لهم عملية العبور بآلياتهم الضخمة في طريقهم إلى الخرطوم. وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك سباقاً محموماً بين بريطانيا وإيطاليا للسيطرة والاستيلاء على كوبري خشم القربة أثناء الحرب العالمية الثانية لموقعه الاستراتيجي، حتى أطلق على هذه المنطقة اسم خشم القربة في ذلك الوقت لأنها تمثل عنق الزجاجة Bottle Neck، إلا أن الإيطاليين فشلوا في تحقيق أهدافهم الاستعمارية في كسلا، بل في المنطقة بأسرها، ولم يدم احتلالهم لكسلا أكثر من سبعة أشهربدأ في العام 1940م وانتهى في يناير 1941م.

أدخل وصول السكة الحديد إلى كسلا فائدة كبيرة للمنطقة من نواح عديدة: اقتصادية واجتماعية وثقافية، فاستفادت المنطقة كثيراً من دخول قطارات الركاب والبضاعة إليها، فانتعشت الزراعة وتطورت الصناعة وازدهر الاقتصاد، كما ساعد ذلك على تسرب المؤثرات الثقافية بصورة أوسع عما كانت عليه من قبل، فتوافرت الكتب الأدبية والمجلات والصحف اليومية، فأصبح أبناء كسلا يتابعون مجريات الأحداث في الداخل والخارج، ويواكبون التطورات الحديثة – سياسية كانت أم علمية – وكان أبناء كسلا يتقاطرون بأعداد كبيرة في صباح اليوم التالي من وصول القطار نحو مكتبة الحاج إبراهيم داؤد صاحب أول مكتبة ظهرت في كسلا في نهاية الأربعينيات، وذلك للحصول على الصحف والمجلات وشراء الكتب التي كانت تصل من وقت لآخر مع هذه الصحف في تلك المكتبة. وكان السفر بالقطار يدخل البهجة والسرور في نفوس الكثيرين لأنه كان بمثابة الترويح والسياحة (القطر.. القطر.. نويت السفر)، كما أن

الذهاب لمحطة قطار كسلا وحده، بل كل قطارات البلاد، أتاح لركابها الفرصة لإقامة علاقات اجتماعية وثيقة وصداقات حميمة ووطيدة تنتهي في بعض الأحيان بالزواج الميمون. وواضح أن معظم اغاني الحقيبة والحديثة صورت الروائع في هذا الجانب، وظهرت ملاحم أدبية كثيرة كان القطار العامل الرئيسي في صياغتها، ومنها ما يصور ذكريات القطار وأيامه المجيدة بالحياة الفاضلة والزاهرة في عمر الإنسان. (ودعت الحبيب للسكة الحديد).. (أنت شلته تجيبو يا القطار)..

ولا يزال الناس يذكرون خط سكة حديد - كسلا الخرطوم - ومحطاته المختلفة، وجمال الطبيعة التي تكسو جانبي هذا الخط، ولا ينسى الركاب مناظر الغابات والأشجار الكثيفة التي تغطي الطرق في مناطق ودالحوري والمتنا وقلع النحل والحواتة والدندر والرهد والسوكي وسنار وحتى مدني والخرطوم، ويشاهدون الحيوانات البرية الأليفة منها والمفترسة، يشاهدون الزراف والغزلان والنعام وحمار الوحش وظبية الوادي التي ترعى في خمائلها، ويقطع القطار هذه المسافات ويعبر خلالها أنهار عطبرة والرهد والدندر والنيل الأزرق.

(قطار الشوق متين ترحل تودينا... نشوف بلداً حنان أهلها.. ترسى هناك ترسينا..). وشهدت محطة كسلا تطوراً كبيراً، خاصةً في فترة الخمسينيات والفترة التي تلت ذلك، فأدخلت التعديلات والإصلاحات الكفيلة بجعل محطة كسلا لا تقل روعةً وجمالاً عن محطة السكة الحديد في عطبرة، لأن هذا الخط (بورتسودان - كسلا - الخرطوم) من الطرق الحيوية والمهمة بالنسبة لمرفق السكة الحديد والبلاد بأسرها ومن أبرز رؤساء الإدارة في كسلا وكان لهم الدور الأعظم في هذا التطور والإنجاز والعمل على راحة الركاب ومودعيهم ومستقبليهم بالتنظيم وإنشاء الاستراحات والمقاعد والكنب في المحطة، وأضافوا لمسات جميلة على مباني المحطة - أذكر هؤلاء : حسين عثمان والخير عبدالمجيد ومحمد كرار النور، فهؤلاء ومن معهم من الإداريين والمهندسين والفنيين بذلوا جهوداً عظيمة في تطوير محطة كسلا والارتقاء بها، لذلك كان أبناء كسلا يتجهون نحو محطة السكة الحديد كلما شعروا بالفراغ أو أحسوا بالملل يتسرب إليهم من وقت لآخر، فيقضون وقتاً جميلاً مع المسافرين حتى لحظة تحرك القطار الذي لا يتأخر قيامه أو وصوله ولو لثانية واحدة. وكان قطار الحجاج لبورتسودان ووداعهم له طابع خاص تكتسي به محطة كسلا حلة زاهية تحمل آية من آيات

العظمة البهاء. ومن أبناء كسلا الذين برعوا في قيادة القطار وتمتعوا بكفاءة ودرجة عالية في المهارة والبراعة والدقة أشير إلى أبي كروق وخضر عثمان وإبراهيم بخيت ومطر تركمان.

وقطارات كسلا التي كانت لها شهرتها التاريخية كثيرة. منها قطار الرحمة الذي كان على رأسه السيد علي الميرغني وعليه المؤن والغذاء والكساء لأهل كسلا أثناء احتلال الطليان لكسلا، ليخفف بذلك الضائقة التي ألمت بمواطني كسلا بسبب تلك الحرب. ولا ينسى أهل كسلا قطار كسلا المشهور الذي حمل أهل كسلا إلى الخرطوم بقيادة الأستاذ محمد جبارة العوض لمساندة ثوار أكتوبر في الخرطوم العام 1964م.

اللواري التجارية:

ظهرت اللواري التجارية منذ وقت مبكر من القرن العشرين مثل القندرانات والشاحنات الكبيرة واللواري التجارية كالفورد والبدفورد والدوتش والتيمس وغيرها، ومنذ العشرينيات والثلاثينيات قامت هذه الأداة بدور كبير في دفع عجلة التنمية الاقتصادية وتطوير التجارة وإنعاش حركة الزراعة والصناعة في البلاد كلها. وارتبطت كسلا مع غيرها من مدن البلاد بشبكة من الطرق البرية التي تؤدي إلى ربط وسط البلاد وشرقها وغربها. وكانت تصل حاصلات البلاد المختلفة من صادرات القطن والصمغ والسمسم والذرة والماشية، في طريقها إلى ميناء البلاد في ساحل البحر الأحمر، كما تصل عن طريق كسلا في كثير من الأحيان الواردات من خارج البلاد كالسكر والبن والشاي والقمح والدقيق والأقمشة والعطور... الخ.

وظهر عدد من أبناء كسلا من اصحاب اللواري، والذين برعوا في قيادة هذه الشاحنات واللواري الكبيرة، وكانوا على معرفة تامة بالطرق السهلة والمسالك الطبيعية التي تؤدي إلى الوصول في يسر وأمان.. وممن اشتهروا في هذا المجال ومنذ وقت مبكر وساعدوا بمهارتهم وخبرتهم ودرايتهم بالتجارة ومسالكها المهمة حتى تصل البضاعة إلى ذويها، وأسهموا مع السكة الحديد في ازدهار اقتصاديات البلاد ورفع الضائقة عن المواطنين، أذكر:

عثمان بشير ومحمد مصطفى وعثمان علي ناصر وأخيه محمد الحسن وحسون قسم السيد وفضل عثمان وعلي الشيخ ومحمد الحسن مكي وكرار محمد أحمد وعبدالرضي أحمد يماني ومحجوب حاج بابكر وعبدالله العكام وأحمد علي عمر

وعبدالعظيم عبدالغني (أبوالزاكي) وفضل الله مرجان ومحمد مرسال ورحمة الله كوكو وكشيب (محمد العراقي) وحسن حاج إسماعيل وأحمد حسن الحلنقي (حداد)، ومن هؤلاء من استفاد فائدة كبيرة في هذا العمل التجاري العظيم، ودرت عليهم أموالاً طائلة قاموا بتوظيفها خير توظيف في العمل التجاري والزراعي وافتتاح المحلات التجارية وشراء المشاريع الزراعية، فاقتحموا مجال الاستثمار وتطوير العمل التجاري. ومن أصحاب هذه الوسائل أذكر أيضاً مهدي قسم الباري وسليمان الخير وسرالختم ودنوري وهؤلاء جميعاً أسهموا بدور كبير مع الآخرين في تسهيل ونقل موارد البلاد.

كان الناس في كسلا وغيرها يعانون كثيراً في فصل الخريف بسبب نقص المؤن الضرورية لحياة الناس كالسكر والألبان والدقيق والذرة واللحوم.. ويأتي هذا بعد هطول الأمطار الغزيرة وانقطاع خطوط السكك الحديدية في معظم أنحاء البلاد، فيحول ذلك دون وصول المؤن الضرورية إلى مناطق كثيرة، كما كانت السلطات البريطانية في ذلك الوقت تحظر سفر هذه الوسائل التجارية، وتشدد عقوباتها الصارمة ضد كل من يخالف هذه الأوامر والسفر خلال الفترة التي يحظر فيها السفر وهي من (7/15 إلى 10/15) وفي ذلك يردد أهل كسلا عند بداية كل خريف قولتهم المشهورة:

يجي الخريف واللواري تقيف

ولدوافع إنسانية نبيلة كان أصحاب الخبرة والمعرفة بالطرق الآمنة والوعرة، يغامرون من أجل إسعاد الآخرين ورفع المعاناة والضائقة التي كان يعاني منها الناس في زمن الخريف خاصة الأطفال والمرضى والضعفاء، ويتحرك هؤلاء تحت ضغط الدوافع الإنسانية والهمة والمروءة بشاحناتهم إلى الوسط وإلى الغرب وإلى الشرق، وكانوا يسلكون طرقاً بعينها تقودهم إلى بر الأمان، وكانت لديهم مصطلحات وأسماء مناطق معينة يعرفون أنها تؤدي بهم إلى بر السلامة والأمان ويعرفون الأماكن التي تهطل فيها الأمطار بغزارة وتلك التي لا يهطل فيها المطر إلا في أيام بعينها، فمثلاُ يقولون اليوم نمشي عن طريق الساساريب وعن طريق ود كابو، وغداً يقولون حنسلك اليوم طريق ريرة والصفية وطريق تمبول، ونمشي بالعقبة، وهذا يوضح في حد ذاته أن هؤلاء لهم معرفة أيضاً بعالم النجوم وقراءة الفلك ومظاهره قراءة جيدة تنم عن الذكاء والفطرة.

وبالفعل يتمكن هؤلاء من الوصول إلى المناطق التي ينشدونها دون أن يتعرضوا لى تأخير أو أذى أو ضرر يقع عليهم وعلى بضاعتهم، فيصل القوت الضروري مثل الذرة والدقيق والماشية والعجوة أو التمور بأنواعها والمحببة لأهل الشرق بصفة عامة. وفي فترة وجيزة تكون ضروريات الحياة في متناول أيدي الناس. وكان كبار التجار في ذلك الوقت يضعون ثقتهم الكاملة في هؤلاء السائقين لأمانتهم وحرصهم من جهة، ولدرايتهم ومعرفتهم بالمسالك التي تمكن من وصول الصادر أو الوارد بكل سهولة وسلامة.

وساعد سرعة هذا الاتصال والتطور الذي حدث في حركة المواصلات أن ازدادت المعرفة وتنوعت الثقافة وتطورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية وازدهرت الحياة الأدبية والسياسية بعد أن أصبحت أدوات الثقافة والمعرفة في أيدي الجميع. وكان يمكن للقارئ أن يذهب صباح كل يوم لمكتبة الحاج إبراهيم داؤد والأساتذة كباشي الأمين ونصار حاج أمان فيجد أحدث نسخة من المجلات والكتب الحديثة أو اية إصدارات تفيد القراء في نواحي المعرفة المختلفة لذلك يمكن القول إن اللواري التجارية والبص السريع الذي دخل كسلا العام 1960م لأول مرة أدت كلها دوراً مهماً ومؤثراً وفعالاً في حل مشكلات البلاد الاقتصادية، وأدت إلى نقلة كبيرة في الحياة الاجتماعية والثقافية، وخففت العبء عن السكة الحديد، بل حلت مكانها وورثت دورها بعد أن انتهى أمرها تماماً.

مستشفى كسلا:

ظهر مستشفى كسلا في الربع الأول من القرن العشرين، ومنذ نشأته اشتهر بنظافتة الفائقةوحسن التنظيم، وزخر في كل مراحله التاريخية بعددٍ كبيرٍ من الأطباء ذوي الخبرة والكفاءة وأصحاب النبوغ.. كل في مجاله وتخصصه.. وربما تعدى البعض منهم إلى أكثر من تخصص تفوق فيها كلها، كما تمتع هؤلاء الأطباء بالسمعة الطيبة والأخلاق الفاضلة والكريمة في معاملة المرضى وذويهم، وكانت لهؤلاء مكانة مرموقة وشهرة كبيرة في المجتمع، كما ساعد اهتمامهم والالتفاف حولهم في تحقيق المزيد من النجاح في هذا المجال المهم، والإسهام البارز في حقل الطب وفروعه الأخرى.

ويعتبر مستشفى كسلا من أوائل المستشفيات الحديثة في البلاد، وحوى هذا المستشفى منذ نشأته وظهوره عدداً من الأقسام المهمة التي ظلت تتطور مع

الزمن وتواكب النهضة العلمية والطبية في مجال الطب والعلوم المختلفة. وهي أقسام الباطنية والعيون والجراحة والعظام والأطفال، كما تم إنشاء قسم للحوادث في فترة لاحقة. وقد ضم المستشفى صيدلية لصرف الدواء ومعمل ضخم للفحص. وكانت عنابر المرضى تتوفر فيها الراحة التامة من حيث عدد الأسرة والغذاء اللازم لعلاج المريض والعدد الكافي من الممرضين والفراشين الذين يجوبون المستشفى وعنابرها في كل ساعات اليوم.

واشتهر عن مستشفى كسلا أنه ضم عدداً من الأطباء يعتبرون من أفضل الأطباء، ومنهم من تعدت شهرته حدود البلاد إلى خارجها، ولا يزال الكثير منهم تستفيد منهم دول الخليج وغيرها لكفاءتهم وخبرتهم. ومن الأطباء الذين عملوا في كسلا ومنذ وقت مبكر ويذكرهم أهل كسلا بالخير، عدد منهم عمل في فترة الأربعينيات والخمسينيات وآخر عمل بعد ذلك، فاذكر على سبيل المثال الدكتور عباس والدكتور سيد وهؤلاء من أطباء فترة الأربعينيات إلى مطلع الخمسينيات، وظهر بعد ذلك الدكتور حداد عمر كروم أستاذ أمراض النساء والولادة بكلية الطب حالياً.

كما ظهرت كوكبة أخرى في هذا المجال منهم عبدالله الحاج موسى وعبدالله خوجلي وأحمد الباشا وهاشم مانجيل وجرتلي وحسن فضل الله أحمد وحسن كمير وحسن عواض ومحمد صديق وباشاب والفاضل محمد عثمان وحسب الرسول صديق وعبدالعزيز حسين وحسن الأنصاري والسيد أحمد الميرغني وعبدالله الزبيدي وعبدالعزيز محمد همد وزوجته نادية علي صالح داؤد وإخلاص سليمان الخير، وانتهز هذه الفرصة لأتقدم بالتهنئة الحارة للدكتورة إخلاص بمناسبة تفوقها ونجاحها الباهر في التخصص النادر في أمراض السكر وحصولها على شهادة كبيرة أهنئها بإخلاص.. وذلك حسب ما أفادت به أخبار المملكة الأردنية الهاشمية.. وهكذا هم أبناء كسلا يرفعون الرؤوس دائماً، ويضيفون رصيداً هائلاً للمعرفة الإنسانية.

كذلك عمل في مستشفى كسلا عدد من الأطباء المميزون من خارج البلاد، جاءوا من مصر الشقيقة، وعملوا في فترة من الفترات في هذا المستشفى وأضافوا بخبرتهم فائدة كبيرة للمستشفى، جاءوا من القصر العيني والإسكندرية وعين شمس، ويبدو أن المستشفى ضم في بداية نشأته عدداً من الأطباء البريطانيين والهنود. ولا يفوتني أن أذكر عدداً من الأطباء الذين عملوا في هذا المستشفى بكل تفانٍ وإخلاص في أداء هذه

المهمـة الإنسـانية مثـل أوهـاج محمـد مـوسى أوشـيخ ومحمـد عثـمان قـدور وحمـزة هـارون استشـاري أمـراض الـكلى، كـما اشـتهر عـن عـدد مـن أطبـاء المستشـفى أنهـم سـاهموا مـع إخوانهـم الأسـاتذة في كليـة الطـب بجامعـة كسـلا، وأسـهموا معهـم إسـهامات فعالـة وعملـوا عـلى سـد النقـص في بعـض التخصصـات التـي كان الحصـول عليهـا صعبـاً ويتطلـب مـالاً وجهـداً، فقـام هـؤلاء بالمهمـة خـير قيـام.

كان المسـاعد الطبـي والممـرض ولا يـزالان عامـلاً مهـماً في تطـور المستشـفيات ونجاحهـا في أداء مهمتهـا، وقـد ظهـر هـذا النـوع الكـفء في كسـلا منـذ دخـول المستشـفى تاريخهـا الحديـث. واشـتهر عـن عـدد كبـير أنهـم اسـهموا في عـلاج المـرضى في هـذا المستشـفى مـع الأطبـاء، أو في شـفخانات الأحيـاء (المراكـز الصحيـة اليـوم). وكانـوا يعالجـون حـالات الرمـد والتراكومـا والحميـات والكسـور والجـروح وآلام البطـن..وكان لمتابعـة المسـاعد الطبـي ومراقبتـه المسـتمرة ووجـوده الدائـم مـع الطبيـب مـع موهبتـه، كلهـا عوامـل سـاعدت عـلى نجـاح هـؤلاء في عـلاج المـرضى نيابـة عـن الطبيـب بالصـورة المطلوبـة، لذلـك كان المـرضى لا يفكـرون في الذهـاب إلى المستشـفى الكبـير إلا في الحـالات التـي تسـتدعي ذلـك، فأصبـح النـاس يعتقـدون في كفـاءة هـؤلاء بـل يعتبرونهـم مـن طبقـة الأطبـاء للمكانـة والصـورة التـي ارتبطـت في أذهـان النـاس عـن مقـدرة هـؤلاء في عـلاج النـاس. لذلـك كانـت شـفخانات الأحيـاء تغنيهـم عـن الذهـاب إلى المستشـفى وتوفـر لهـم مشـقة الترحـال.

وقـد ازدادت شـهرة المسـاعد الطبـي والممرضـين في فـترة الأربعينيـات والخمسـينيات مـن القـرن المـاضي فكـثر اعتقـاد النـاس فيهـم. فـكان المريـض الـذي يحـس بـالألم يـسرع في صبـاح ذلـك اليـوم إلى شـفخانة الحـي ولسـان حالـه يـردد أغنيـة اشـتهرت في الأربعينيـات أو جـزءاً منهـا:

أنا عاوز أموت يا التمرجي...جرعة بزموت يال التمرجي..

البنسلين يا التمرجي... نادوا الحكيم يا التمرجي..

الحمى جات ياالتمرجي...هاك الصفات يا التمرجي

وفي هـذا دلالـة واضحـة لمكانـة هـؤلاء في نظـر النـاس. وفي هـذه الأغنيـة أو ذلـك البيـت الـذي كان يتغنـى بـه النـاس في كسـلا آنـذاك ويرددونـه باسـتمرار اكـثر مـن معنـى ومغـزى، ويتحمـل اكـثر مـن تفسـير.. وفيـه تعظيـم لمكانـة الطبيـب (الحكيـم) والممـرض (التمرجـي).

ومـن مسـاعدي الأطبـاء الذيـن ذاع صيتهـم في كسـلا في ذلـك الوقـت البعيـد عـدد كبـير

تميز بالخبرة والمعرفة الطبية اللازمة للعلاج من أمثال حسن عبدالقادر وعيد ناصر وصالح بيرق وسيد أحمد السمحوني وعلي حميدان وإدريس آدم وعمر كرار والأمين يوسف أحمد مني وإمام أحمد ومحمد علي والأمين عبدالقادر، وبالطبع فإن هناك الكثير من الذين برعوا ونبغوا في هذا المجال مما لا تسعف الذاكرة لإضافتهم، إلا أنني اذكر ايضاً الأخوين حسن وبابكر محمد الطيب ايضاً أصحاب خبرة طويلة في هذا المجال.

ومهما يكن من أمر، فإن مستشفى كسلا قام بدور كبير في أداء مهمته بالصورة المشرفة والمثلى، ونأمل أن يجد الدعم اللازم حتى يتطور أكثر وأكثر ليقوم بوظيفته المنوط بها على أكمل وجه، وحتى يصبح سنداً قوياً لكلية الطب في كسلا، فهما مكملان لبعضهما البعض في المهمة العلاجية والعلمية والأكاديمية، كما يمكن للمستشفى أن يكون مستشفى جامعي، أو مستشفىً تعليمياً أو يساعد في ذلك. ونأمل أن يعمل الجميع على نشر المعرفة الطبية والتطور المضطرد والسريع في علم الطب في مجالاته كافة، والعمل يداً واحدة على اكتساب الخبرة والتجربة العلمية والعملية.. ونتمنى أن تعود للمستشفى سيرته الأولى التي اكتسبها من سمعة أطبائه وكفاءتهم، وتزدهر فيه نواحي التطور وملامح النجاح الذي لازم المستشفى ردحاً من الزمن، فكان أطباؤه مضرب المثل بمكانتهم العلمية وخبرتهم المقدرة التي أسهمت كثيراً في ارتفاع شأنه وعلو مكانته وشهرته بين مستشفيات البلاد.

إدارة التعليم في كسلا:

أوجد الإنجليز وظيفة مفتش التعليم في كسلا منذ وقت مبكر، وكان المفتش الإنجليزي هو الذي يتولى أمر التعليم في المديرية، وكان إشراف هذا المفتش يقتصر على تنفيذ السياسة العامة التي تضعها الإدارة البريطانية، بالصورة التي تتماشى مع الأهداف الاستعمارية. وكان التوسع في التعليم بطيئاً، خاصةً التعليم الأوسط والثانوي، وكان المفتش الإنجليزي يمنح صلاحياته لبعض المعلمين من أبناء المنطقة، وكان عبدالقادر أوكير وهو من أبناء الهدندوة يشرف على المدارس الأولية نيابةً عن المفتش الإنجليزي ويتفقدها من وقت لآخر. ولا يمكن أن يتحدث الناس عن التعليم في كسلا في ذلك الوقت دون الإشارة إلى الأستاذ أوكير.

وعندما نالت البلاد استقلالها، أنشئت مكاتب التعليم في عواصم المديريات. ومنذ ذلك الحين ظهر مكتب التعليم في كسلا، وكان قبل ذلك إدارة صغيرة، ولكنها توسعت

بعـد الاسـتقلال وأصبحـت تتبـع في إدارتهـا لـوزارة التربيـة والتعليـم في الخرطـوم، إلا أن صلاحيـات هـذا المكتـب ظلـت محـدودة، ولم تتعـد الإشراف عـلى المـدارس الأوليـة ورواتـب المعلمـين وامتحانـات الدخـول للمـدارس الوسـطى، ومـا عـدا ذلك فـإن وزارة التربيـة والتعليم في الخرطـوم هـي التـي تتـولى نقـل المعلمـين إلى مناطـق السـودان المختلفـة، وتشرف بنفسـها عـلى امتحانـات الدخـول للمـدارس الثانويـة والجامعـة. ومـا أن ظهـر النظـام اللامركـزي تدريجيـاً منـذ أيـام حكومـة مايـو، بـدأ الحـال يتغـير في التعليـم مـن المركزيـة إلى اللامركزيـة، ورغـم ذلـك ظلـت وزارة التربيـة والتعليـم هـي صاحبـة الشـأن في كثـير مـن الأمـور، بـل أن إدارة هـذا المكتـب كانـت تـأتي مـن وزارة التربيـة والتعليـم في الخرطـوم، وأذكـر بعض رؤسـاء الإدارة الذيـن تعاقبـوا عـلى إدارة مكتـب تعليـم كسـلا، وكانـوا مـن الرعيـل الأول الذيـن تخرجـت عـلى ايديهـم أجيـال كثـيرة، وقدمـوا للتعليـم خدمـات جليلـة مـن أمثـال الأسـاتذة الأجـلاء عـلي صالـح داؤد ويوسـف الخـير وشرف الديـن عبـادي، ويبـدو أن إبراهيـم محمـود النـور يقـوم عـلى رأس هـذه الإدارة في هـذا المكتـب، وكان الأسـتاذ أبـوذر بابكـر درويـش مـن نـواب ومسـاعدي هـؤلاء الإداريـين. كـما كان للأسـاتذة الأجـلاء أحمـد محجـوب ثـوري (كتـا) وإبراهيـم حسـن الحلنقـي دور في تأسـيس كليـات البنـات، ولسـليمان حسـن محجـوب دور في إدارة وتأسـيس مرحلـة الأسـاس. أمـا إدارة تعليـم الكبـار، فهـي الأخـرى قامـت بواجبهـا تمامـاً في نشرألويـة المعرفـة وتعليـم الكبـار مـن الجنسـين، ومحاولـة القضـاء عـلى الأميـة بصـورة طيبـة، ويمكـن للأسـتاذة سـنية عبداللـه مختـار التـي عملـت في هـذا الحقـل مـع عـدد مـن المتعلـمات مـن أمثـال إحسـان عبداللـه بـن عـوف موافاتنـا بصـورة متكاملـة عـن أهـداف ومنجـزات هـذه الإدارة العملاقـة، مـع أسـماء المعلـمات الـلاتي أسـهمن معهـن في تحقيـق هـذا الإنجـاز الكبـير ذي الهـدف الإنسـاني النبيـل.

إدارة تعليم البنات في كسلا:

تأسسـت هـذه الإدارة حديثـاً في العـام 2002م بعـد أن صـدر قـرار جمهـوري يقـضي بـضرورة تعليـم البنـات في السـودان وإنفـاذاً لإتفاقيـة التعليـم للجميـع. فتـم عـلى إثـر هـذا القـرار إنشـاء إدارة بـوزارة التعليـم العـام الاتحاديـة تعنـي يتعليـم البنـات في السـودان، ومـن ثـم اختيـار إدارة تعليـم البنـات في كل الولايـات، وبنـاءً عـلى ذلـك فقـد تاسسـت الإدارة في ولايـة كسـلا في عهـد الأسـتاذ أحمـد تـرك وزيـر التربيـة والتعليـم بولايـة كسـلا، وأسـندت إدارتهـا للأسـتاذة إشراقـة عبدالحليـم مختـار التـي أصبحـت أول مديـرة لإدارة تعليـم البنـات

في كسلا. وأدت هذه الإدارة دوراً مهماً وبارزاً في تحقيق أهدافها في الوعي وضرورة تعليم البنات في الولاية، وقد أثمرت هذه الجهود التي بذلتها الإدارة في تقليل الفجوة الكبيرة التي كانت في السابق بين تعليم البنات والأولاد. ويمكن أن نلخص الأهداف التي أنشئت من أجلها إدارة تعليم البنات في كسلا في ما يأتي:

1. زيادة استيعاب البنات في الولاية وسد الفجوة في تعليم الجنسين.
2. تقليل التسرب والفاقد التربوي.

ومن الدراسة االي قامت بها إدارة البنات في كسلا، وجدت أن المشاكل التي تحول دون التحاق البنات بالمدارس في مرحلة الأساس تتلخص في الآتي:

1. العادات والتقاليد، خاصة وأن الولاية تسكنها قبائل كثيرة تتمسك بعادات وتقاليد تجاه خروج المرأة خاصةً بين قبائل البجا.
2. الفقر الذي يؤدي إلى تقديم تعليم الأولاد على البنات، وإعطاء هذا الجانب الأولوية في ذلك.
3. التعليم المختلط المنتشر في ريف الولاية يجعل البنت تنسحب من الصف الرابع من قبل أولياء الأمور.
4. الحرب والنزوح.
5. الزواج المبكر.
6. عدم ملاءمة المنهج للبنت الريفية، وعدم تلبية هذا المنهج لمتطلباتها وطموحاتها. كما يمكن إعطاء صورة موجزة لمجهودات وإنجازات برامج تعليم البنات بكسلا منها:
7. تحريك وتشجيع المجتمعات بكسلا، خاصةً في مناطق همشكوريب نحو تعليم البنات.
8. زيادة استيعاب البنات من (24%) إلى (32%).
9. استقطاب الدعم من قبل منظمة اليونسيف وبلان سودن لدعم مدارس البنات.

وما زالت جهود إدارة تعليم البنات في كسلا وعلى رأسها مديرة هذه الإدارة الأستاذة إشراقة عبدالحليم مختار - حتى كتابة هذه السطور - تتواصل خاصة تجاه توفير كل المدخلات المدرسية، ونتمنى لهذه الإدارة الوليدة كل نجاح وتقدم لتحقيق هذه الأهداف الإنسانية والرسالة العظيمة ذات الأغراض السامية والنبيلة.

مدارس كسلا الثانوية (بنين وبنات):

تاسست المدرستان في العام 1963م ضمن خطة وضعتها وزارة التربية والتعليم في حكومة الرئيس إبراهيم عبود للتوسع في التعليم الثانوي وزيادة عدد المدارس في عدد من مدن البلاد. وكان اللواء محمد طلعت فريد وزير التربية والتعليم هو الذي له الدور الرائد في تنفيذ هذا المشروع الكبير. وكان الأستاذ علي النصري حمزة هو مؤسس مدرسة كسلا الثانوية بنين وأول نظارها الذين وضعوا اللبنات الأساسية الثابتة لقيام هذه المدرسة حتى تكون في مصاف المدارس الكبرى في ذلك الوقت مثل وادي سيدنا وحنتوب وخور طقت والخرطوم الثانوية وبورتسودان الثانوية..الخ. وكان أول اهتمامات النصري ومن ضمن أولوياتهوضع أسس الانضباط والقيود اللازمة لفرض النظام والانتظام وتهيئة المناخ اللازم وتوفير البيئة المدرسية اللازمة لتحقيق الاستقرار ومن ثم النجاح والازدهار.. كما بذل هذا الناظر جهداً مقدراً في فرض وتسهيل سبل توحيد الزي المدرسي وتوفير الكتاب وتطوير معامل المدرسة واختيار المعلم صاحب الكفاءة العالية والخبرة التربوية التي تحقق أهداف النجاح والتفوق.. وقد نجح الأستاذ النصري في ذلك الحين حتى أصبحت هذه المدرسة وفي فترة وجيزة تحقق النجاح الباهر تلو النجاح. وقد تبوأت أعداد كبير من خريجي هذه المدرسة مواقعها في الجامعات المشهورة وفي مختلف التخصصات.

وقد أشرت في الجزء الخاص بالتعليم في كسلا إلى عدد من خريجي هذه المدرسة الذين تخصصوا في الطب والهندسة والصيدلة والعلوم والآداب والاقتصاد والبيطرة والزراعة..الخ. إلا أنه يكفي هذه المدرسة فخراً أن أحد خريجيها ذوالشهرة الواسعة والمكانة العلمية الرفيعة هو النابغة صالح عثمان دفوعة عالم الرياضيات المشهور الذي تخرج في جامعة الخرطوم، وواصل دراساته العليا حتى حصل على درجة الدكتوراة والأستاذية في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل في عدد من الجامعات المشهورة، وهو الآن أستاذ في جامعة الملك فهد للمعادن والبترول بالدمام في المملكة العربية السعودية. وكذلك محجوب علي عبدالقادر الذي نبغ في الفيزياء وعلوم الفضاء وهو الآن في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا).

وخلف الأستاذ علي النصري حمزة في إدارة المدرسة عدد كبير من جيل الرعيل الأول في التربية والتعليم، حافظوا على مكانة المدرسة وتفوقها وتطورها ومستواها العلمي

والمتميز ومن هؤلاء الأساتذة الأفاضل إبراهيم علي والزين حامد محمد علي اللذين نجحا في المحافظة على المستوى الذي وصلت إليه المدرسة وزادا عليه. وأذكر أن الأستاذ إبراهيم علي كان يقيم علاقات تربوية مع المدارس الثانوية الكبيرة في ذلك الوقت مثل وادي سيدنا وحنتوب والخرطوم الثانوية، للاستفادة من خبرة هذه المدارس الطويلة في نواحٍ شتى، وكثيراً ما كان الأستاذ محمد الغزالي السراج ناظر مدرسة الخرطوم الثانوية يلبي حاجة مدرسة كسلا الثانوية بنين ويتبادل معها الخبرات في مجالات الفنون والإبداع والموسيقى والتدريب العسكري وكرة القدم، وضمت هذه المدرسة نخبة مختارة من المعلمين في الفروع والتخصصات كافة، وأدى أساتذة المدرستين دوراً كبيراً في الحياة الثقافية والأدبية والاجتماعية في كسلا، وتفاعل هؤلاء مع حركة المجتمع، وكان لهم تأثيرهم الفاعل والمؤثر في الحياة العامة وتنمية المجتمع.. فازدهرت الآداب والفنون ونشطت الحركة الأدبية وأقيمت الندوات والمجالس الفكرية والعلمية والليالي الشعرية. ويمكن القول إن مدرسة كسلا بنين وشقيقتها كسلا الثانوية بنات وأساتذة المدرستين فيهما ورثوا الدور الذي كانت تقوم به المدارس التاريخية في كسلا مثل مدرسة المؤتمر (الأهلية) والمدرسة الأميرية والمعهد العلمي في البعد الوطني واستمرار ازدهار الحياة العامة في جوانبها المختلفة.

وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة أستاذ الجيل والمربي الفاضل الزين حامد محمد علي، الذي كان مدرسة تربوية وعلمية فريدة قائمة بذاتها، وهو يعتبر أحد بناة ومؤسس نهضة التعليم. أخذنا على يديه علم الرياضيات بفروعها المختلفة. وكان نعم الأستاذ والمربي الفاضل الجليل، يتمتع بحزم بغير شدة ولينٍ في غير ضعفٍ. ويشهد له أبناء كسلا دائماً بالكفاءة والحزم والخلق الرفيع والجوانب الإنسانية المتعددة..الخ. بذل جهداً كبيراً في تطوير مدرسة كسلا الثانوية معلماً ومربياً ونائباً للناظر ثم ناظراً لها، فازداد عدد المتفوقين والنوابغ في عهده زيادة ملحوظة لحزمه وحرصه وإخلاصه في أداء مهمته بكل تفان، فامتلأت جامعات الخرطوم والقاهرة والإسكندرية وعين شمس بأبناء كسلا المتوفوقين من مدرسة كسلا الثانوية.. والأمانة تقتضي الإشارة إلى عددٍ كبيرٍ آخر ممن أجادوا وأخلصوا فكان التفوق والنجاح الكبير مثل: عبدالسلام الشريف وأحمدون والناصر أبو كروق ومختار عبدالله وإبراهيم عكاشة وسليمان عبدالعظيم وهاشم شرشار وإدريس إبراهيم والهادي عبدالله وعلي الطيب الحاج ومحمد عبدالسيد ومحمد طاهر (في المدرستين) وعثمان ضمرة..الخ.

أما مدرسة كسلا الثانوية بنات فهي الأخرى تأسست في العام 1963م. وأول نظار هذه المدرسة ومن مؤسسيها هو الأستاذ محمد عبدالمجيد طلسم، وهو من الرعيل الأول في التربية والتعليم، بذل مجهوداً كبيراً في تأسيس المدرسة على نمط حديث حتى أصبحت في فترة وجيزة من المدارس المشهورة في البلاد والمعروفة بتفوق طالباتها في العلوم المختلفة. وقد خلف الأستاذ طلسم عدد من النظار المعروفين الذين كانت لهم شهرتهم في وزارة التربية والتعليم من أمثال الأستاذ محمد عبدالله الترابي الذي اشتهر بالحزم والدقة والانضباط وكذلك محمد سليمان كتا وحسن سليمان نصر، والجميع من أساتذة البلاد المشهورين وعملوا بتفانٍ من أجل تطوير مدرسة كسلا الثانوية بنات وضمت المدرسة أساتذة كانوا على جانب كبير من التفوق في تخصصاتهم ومقدرتهم العلمية، أذكر منهم : عبدالباقي عبدالغني عبدالجليل الكاروري وعبدالرحيم الشيخ والكتيابي وأبشر الإمام ومحمد الحسن ومحمد خير الحسن وعثمان إبراهيم ونعمات مصطفى وأمونة شنقراي.. وقد اضطلعت المدرستان بدورهما كاملاً في تربية النشء وتخريج طلبة وطالبات أسهموا مع غيرهم في دفع عجلة التنمية والبناء في البلاد كافة وبمختلف تخصصاتهم ومواقع عملهم. كما كان للمدرستين دور بارز في الحياة العامة بوجه عام في تطوير المجتمع والبيئة المحلية، فازدهرت الحياة الفكرية والأدبية، ونشطت العلاقات الإجتماعية والثقافية، هذا مع بروز العامل الوطني والبعد القومي الذي كان بارزاً في كل مراحل التعليم وفتراته التاريخية الزاهرة والمعروفة التي امتدت حتى التاريخ المعاصر.

جامعة كسلا:

لمع اسم جامعة كسر في فترة وجيزة، وتخرج فيها عدد لا بأس به من كليات الطب والزراعة والاقتصاد والإدارة والتربية، ولكن لا يزال ينتظر الجامعة دور مهم ومؤثر يُضاف إلى مهامها العملية والأكاديمية، وهو مجال التنمية البشرية وتطوير المجتمع، الذي خطت فيه الجامعات الكبيرة خطوات عظيمة لذلك ينبغي للجامعة أن تفكر بصورة جادة في إنشاء مراكز ومعاهد خدمة المجتمع وتطويرها، وهو ما يُعرف اليوم بمراكز خدمة المجتمع أو تطوير الموارد البشرية. وقد بدأت جامعة الخرطوم تنفيذ هذه الفكرة بإنشاء معهد الدراسات الإضافية، ثم تلتها جامعة أم درمان الإسلامية التي أنشأت هي الأخرى معهداً للتعليم الإضافي الذي كان لي شرف تأسيسه في العام

1982م، الـذي تحـول تدريجياً إلى أن أصبـح اليـوم كليـة كبـيرة في الجامعـة الإسـلامية تُعـرف باسـم (كليـة تنميـة المـوارد البشريـة). وقـد زرت عـدداً مـن الجامعـات التـي سـبقت في مجـال تأسـيس مراكـز تعنـى بتطويـر خدمـة المجتمـع مثـل عـدد مـن جامعـات مـصر مثـل القاهـرة والإسـكندرية وعـين شـمس والمنصـورة، كـما أتيحـت لي الفرصـة لزيـارة عـدد مـن مراكـز وجامعـات الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في خـلال عامـي 87-1988م ووقفـت عـلى مـدى مـا وصلـت إليـه مـن تطـور في مجـال تنميـة المجتمـع TheCommunity Development Centers وتحقيـق الأهـداف الخاصـة بربـط الجامعـة بالمجتمـع.. وقـد تطـورت كليـة تنميـة المـوارد البشريـة وأصبحـت مـن الكليـات العملاقـة بالبـلاد، بـدأت تحويلهـا إلى كليـة تمنـح دبلـوم السـنتين، ثـم تطـور الأمـر إلى تحويـل المتفوقـين في تخصصاتهـم المختلفـة إلى مرحلـة البكالوريـوس وأصبحـت للكليـة فـروع كثـيرة في مناطـق البـلاد ومدنهـا المختلفـة. وأعتقـد أنـه آن الآوان أن تقتحـم جامعـة كسـلا هـذا المجـال المهـم لتطويـر البيئـة ورفـع درجـة الكفـاءة في الخدمـة المدنيـة وغيرهـا، خاصـةً في الجوانـب التـي تربـط الجامعـة بالمجتمـع وتأهيـل قـدرات الفـرد والجماعـة قـدر المسـتطاع في مجـالات بعينهـا عـن طريـق إقامـة دورات قصـيرة في الإدارة والاقتصـاد والإحصـاء والمحاسـبة والبنـوك والإعـلام والكمبيوتـر وعـالم الانترنيـت واللغـة الإنجليزية..الـخ. كـما يمكـن للجامعـة أن تنـشيء مركـزاً آخـر للثقافـة الإسـلامية أو الحضـارة الإسـلامية، ويمكـن أن يطلـق عليـه اسـم (مركـز الحضـارة الإسـلامية) أو (مركـز الدراسـات والبحـوث الإسـلامية)، وتكـون أهـداف هـذا المركـز ومجـالات عملـه حسـب مـا يـرد في لائحتـه ونظامـه الأسـاسي مـا يـأتي:

- إقامـة دورات في الثقافـة الإسـلامية (القـرآن الكريـم وعلومـه) – التفسـير – الحديث – الفقـه (عبـادات ومعامـلات) – العقيـدة والتوحيـد – الحضارة الإسـلامية.
- يهتـم المركـز بـكل مـا لـه علاقـة بالثقافـة الإسـلامية وتنميتهـا، وكذلـك مسـاعدة الجهـات والأفـراد للإرتقـاء بمسـتوى الثقافـة وصـولاً إلى الصحـة والدقـة في المفاهيـم الإسـلامية.
- التدريـب عـلى الخطابـة وتنميـة المهـارات اللازمـة لتـلاوة القـرآن الكريـم ودراسـة الحديـث النبـوي الشريـف.
- عقـد دورات تدريبيـة مختصـة في بعـض فـروع العلـوم الإسـلامية مثـل: أحـكام الأسرة، المعامـلات الاقتصاديـة الحديثـة.

- تنظيم دورات في المأذونية.
- تقديم الفتوى والمشورة على مدار الأسبوع للإفتاء في الأمور الشرعية من الأساتذة المختصين.
- تقديم المشورة في مجالات البحوث والدراسات الإسلامية والرد على الاستفسارات الشرعية بصفة دورية. ويمكن أن يقوم على أمر إدارة هذين المركزين نخبة من العلماء المهتمين بالشؤون الإسلامية من داخل جامعة كسلا وخارجها. ويمكن أن تكون للمركزين فروع في أروما ووقر وخشم القربة وحلفا الجديدة وهمشكوريب، أو حسب ما تراه الجامعة مناسباً وحسب إمكاناتها المتاحة، وأنا على ثقة في أن ذلك سيحقق أهدافاً وفائدة عظيمة في التنمية البشرية وتطوير المجتمع، وتعمل على تحقيق رسالة الجامعة الخاصة بتطوير الأداء ورفع درجة الكفاءة العلمية والإدارية ومجالات الثقافة الأخرى ويؤدي كل ذلك إلى ازدياد الوعي والتثقيف ونشر ثقافة إسلامية عريضة، كما تقضي على البطالة باستيعاب عدد أكبر من خريجي المدارس المتوسطة والثانوية في هذه المراكز حسب ما تقضي به اللوائح والنظم الأساسية. كما يساعد هذا المشروع خريجي الجامعات من حملة البكالوريوس في الإدارة والاقتصاد والتربية على إيجاد وظائف والعمل بصورة أوسع وأسرع.

كلية الشرق الأهلية في كسلا:

خطت هذه الجامعة خطوات ثابتة وبشكل متميز في المجال العلمي والأكاديمي، وتتوسع بطريقة علمية متأنية، ورغم قصر الفترة. إذ أن تأسيسها جاء في العام 1996م، إلا أنها فترة حافلة بالإنجاز والعطاء وتخرج في أقسامها عدد لا بأس به من الخريجين في مجال الاقتصاد والإدارة والمحاسبة وعلوم الحاسوب، ونأمل لها أن تسير بنفس الأسلوب حتى تستمر في مواكبة العصر، وأن تعمل على مراجعة مناهجها من وقت لآخر وتتوسع بطريقة علمية هادئة تتلاءم مع المتطلبات العصرية، وحسب علمي أن للجامعة نشاطاً واسعاً في المجالات الثقافية والعلمية وتنمية المجتمع.

معهد التربية:

قام بدور كبير في أداء مهمته التربوية والتعليمية ومجال التأهيل والتدريب، وهو عمل منذ تأسيسه على استيعاب طلاب المرحلة المتوسطة شأنه في ذلك شأن المعاهد

التي سبقته في هذا المجال مثل بخت الرضا وشندي والدلنج وتخريج معلمين (بنظام السنتين) للعمل في المدارس الابتدائية، وقد نجح في ذلك وأدى مهمته أيضاً في التدريب وتخريج كوادر مؤهلة خير قيام.

تعليم الرحل في كسلا:

تبذل إدارة هذا المرفق التربوي المهم جهوداً مضنية للنهوض بنشر المعرفة وسط المناطق الريفية وأطراف كسلا المتناثرة وبواديها المنتشرة في مساحات واسعة، متسعة الأرجاء ومترامية الأطراف، لذلك تبذل هذه الإدارة التي على رأسها الأستاذ محمد علي سليمان مدير إدارة تعليم الرحل في كسلا مجهوداً كبيراً في تغطية هذه المناطق بسلاح العلم والقضاء على الأمية بين قطاعات كبيرة من الرحل ونشر الوعي وتعليم أكبر عدد من أبنائها القراءة والكتابة، وهو مجهود يستحق التقدير والدعم المتواصل لتطوير الأداء حتى يتمكن القائمون بهذا الأمر من تحقيق هذه المهمة الإنسانية بنجاحٍ تامٍ، ونتمنى أن يزدهر التعليم وينتشر الوعي ويعم الرخاء ربوع كسلا.

الفصل السابع
الثقافة والفن والرياضة

أولاً : النهضة الأدبية والفنية:

يرجع تاريخ وظهور الحركة الثقافية وأهمية التعليم والتربية في كسلا ومنطقة الشرق بوجهٍ عامٍ إلى الإسلام، حيث بدأ معه التعليم الإلزامي، إذ فرض الوالد على أولاده حفظ القرآن وكتابته على اللوح، مع تعليمهم أمور الدين، وتربيتهم التربية الصالحة، لتنشئة جيل قوي متمسك بدينه وعلمه، وبدأت على إثر ذلك ظاهرة تعليم القراءة والكتابة، مع فرض الصلاة المكتوبة التي تؤكد على المسلم قراءة آيات من الذكر الحكيم. ويعتبر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أول صرح تعليمي أكد على مكافحة الجهل والأمية، لذلك حذت حذوه البلاد التي دخل فيها الإسلام، فتأسست الخلاوي والزوايا في منطقة الشرق منذ زمن الفونج ثم الأتراك من بعدهم، حيث بدأ ظهور الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة، إلى أن برز الاهتمام الكبير بالتعليم الابتدائي الموسّع، ثم الأوسط ثم الثانوي، ثم التعليم الجامعي.

ولم يقتصر الدور التعليمي على الكتاتيب والمساجد ومجالس العلم والأدب، والمدارس التي انتشرت، بل نشطت حلقات التدريس في الزوايا والمراكز الثقافية المختلفة، والحياة العلمية والثقافية في كسلا. وبلاد شرق السودان بصفة عامة مرت بمراحل مهمة في تاريخها الطويل الممتد منذ فجر الحضارة الإنسانية إلى وقتنا المعاصر، على أنها بدأت في التطور والازدهار بدخول الإسلام في المنطقة.

وصلت الثقافة أعلى الذروة في العصر الحديث الذي يمثل مرحلة الازدهار الثقافي والعلمي، مع انتشار المساجد ودورها في ربط عجلة التعليم بالزوايا والحلقات، وهي ترفد المدارس وتسهم في كثرتها وشيوعها، مما كان له الأثر الفاعل في النهوض بالحركة الأدبية والثقافية التي بدأت أولاً بظهور ما عرف بالثقافة الدينية والنهل من العلوم النقلية، فتعددت مجالات التعليم وتنوعت بالإلقاء المباشر، إلى أن أصبحت مرحلة ازدهار ثقافي وعلمي وأدبي واسع ومميز، حيث كان للندوات والمجالس العلمية والسياسية أكبر الأثر في نشر الثقافة وذيوع العلم وارتقاء الذوق العلمي في الأوساط الثقافية، فقد تنوعت هذه المجالس، ونافست المساجد والمدارس، ومثلت مظهراً

رائعاً من مظاهر اليقظة الفكرية، وقد سبقت الإشارة إلى الدور الذي قام به نادي كسلا (نادي الخريجين) كما كانوا يسمونه في كسلا آنذاك. ودور الأندية الرياضية ومنازل الشيوخ وزعماء القبائل ومدارس كسلا الأولية والابتدائية (الوسطى). وكانت تلك المجالس والندوات التي يحضرها الخاصة وكذلك العامة أشبه بالمباريات العلمية والأدبية، حتى بلغ الشغف بالعلم والظمأ إليه ينم عن مدى ما وصل إليه التطلع إلى التعليم والنهل من مناهل الثقافة والمعرفة من رقي وبهاء.

ويمكن لتلك المجالس المومأ إليها أن يحضرها العلماء والفقهاء والأدباء، لكن الظاهر أن الصيغة الأدبية غلبت عليها في بعض الأحيان، وقد اشرنا إلى فترة الأربعينيات وفطاحلة الأدب والسياسة الذين أثروا الحياة الأدبية ودهاليزها في كسلا خلال تلك الفترة... إلى أن وصلت قمة مجدها في الوقت المعاصر بقيام الجمعيات الأدبية مثل جمعية أونوس الأدبية وجمعية اتحاد الأدباء (التي سيجيء تفصيلها في هذا السياق).

لقد كان الأدب والشعر والغناء سمة بارزة للمجتمع في كسلا، وقد مرت المنطقة بوجه عام بمراحل تاريخية وثقافية مختلفة ومتعددة ومتنوعة ساعدت على تشكيل ثقافتها وحضارتها. فقد تبادلت السيادة والنفوذ دول وحضارات تختلف في عاداتها وتقاليدها وثقافتها ولكنها شكلت الواقع الحضاري والثقافي الذي ازدهر بظهور الثقافة العربية والإسلامية. فشهدت المنطقة منذ فجر تاريخها حضارة وثقافة كوش، ثم تمتعت بثقافة مملكة مروي التي قامت على أسس سودانية وأفريقية خالصة، فهي أقدم حضارة أفريقية قامت في جنوب الصحراء وذلك عندما أدى تغيير البيئة الطبيعية وانقطاعها عن مصر إلى أن تتطور على أسس أفريقية سودانية فكانت لها فنونها المعمارية من معابد وأهرامات ولغتها وثقافتها ومؤسساتها الدينية والسياسية، وكانت أرض البجا ضمن المناطق التي خضعت لمملكة مروي وثقافتها إلى أن قضت على مروي مملكة اكسوم الحبشية في زمن ملكها عيزانا الذي غزا مروي العام 350م، وأصبحت بلاد البجا تخضع لسيادة اكسوم الحبشية ذات الثقافة السامية، إذ أن قبيلة حبشت التي كونت أكسوم الحبشية قبيلة سامية وفدت من بلاد اليمن عبر باب المندب وكونت هذه المملكة التي امتدت شمالاً حتى مروي على نهر النيل. ويشار إلى أن أصمحة (أرماح) أحد ملوك اكسوم هو الذي أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم المهاجرين الأول، وهو الذي تشير إليه المصادر بأنه اعتنق الإسلام وصلى عليه

الرسولﷺ صلاة الغائب. ثم تلا ذلك ازدياد الهجرات العربية إلى بلاد البجا الممتدة من البحر الأحمر حتى جنوب كسلا مثل قبائل ربيعة وهوزان وجهينة وبني الكنز وبني مخزوم، حيث قامت في أرض البجا ممالك إسلامية عديدة أشهرها مملكة البجا الإسلامية.

ومنذ ذلك الوقت بدأت تتسرب الثقافة العربية بشكل أوسع إلى أن بلغت أقصى مدى لها في زمن مملكة الفونج الإسلامية... وهي فترة ظهور الطرق الصوفية وشيوخها الذين شجعوا على النهل من فيض الثقافة الإسلامية.

وقد حباهم الله تعالى بمواهب متعددة وثقافة واسعة، ودرجة عالية من العلم والأدب والفصاحة، فتمتعوا بمكانة سامية وما عرف عنهم من كرم واسع فاهتم مشايخ الطريقة الختمية بالعلم والتعليم، فطرقوا مجال العلوم الدينية والعربية وبرزت الزوايا التي مثلت دور العلم في تلك المرحلة كما سبقت الإشارة.. بما أضفى عليها من المظهر العربي الأصيل، وتم السعي لتناقل العلوم ودراسة المؤلفات والكتب والأوراد والمناقب والتوسل والمدائح النبوية الشريفة. ورفدت مكة المكرمة والمدينة المنورة مدن شرق السودان بجملة من العلماء، حط رحالهم في سواكن وسنكات وكسلا ومناطق الشرق الأخرى، فعم نشاط هؤلاء العلماء والأدباء في المساجد والمدارس والزوايا والحلقات مشتركين في تنشيط الحركة الثقافية.

على هذا النحو اتخذ الطابع العام للثقافة خلال تلك الفترة الشكل الإسلامي العربي الخالص في العقيدة واللغة والصياغة والأسلوب، وبرزت جذوره في علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والأدب والنحو والشعر، وانبرى فريق من الزهاد والعلماء إلى الزوايا يفرغون حمولتهم العلمية، واشتهر الكثير منهم بإتقان فنون من العلوم تجمع بين علم الفقه والتفسير والحديث وعلوم القرآن الكريم والفرائض والنحو وعلم الكلام، إلا أنها كانت تلقى في علم واحد غير مصنفة أو مبوبة. لقد كانت هذه الثقافة التي سادت في المنطقة منذ ذلك الوقت البعيد، فأصبحت مكانة الحركة الصوفية قوية جداً في كسلا وبلاد الشرق بصفة عامة، ووجد شيوخ وعلماء الصوفية مكانة مرموقة وأصبحت الصوفية تشغل قلوب الناس وعواطفهم بحب الله تعالى وحب رسوله الكريمﷺ، وأسهمت الصوفية ايضاً في تقديم الدعم والعون للفقراء في الأعطيات، وعلم التصوف الناس سلوك طريق الإيمان للوصول إلى محبة الرحمن، عبر

المكاشـفة والمجاهـدة بالقضـاء عـلى شـهوات النفـس وتصفيـة القلـب مـن الاكـدار. فـكان هـؤلاء هـم شـيوخ هـذه الطـرق وخلفاؤهـا وفقهاؤهـا عـلى مـر الأزمـان، وكانـوا عنوانـاً بـارزاً ومثـالاً يحتـذى لتلـك الثقافـة الدينيـة والفكريـة.

كان شـغف أولاد كسـلا بـالأدب والشـعر والعلـم كبـيراً، فقـد ظهـر فيهـا أدبـاء وشـعراء عـلى مـدى تطـور المراحـل التاريخيـة الحديثـة في كسـلا. وكسـلا - كـما أوضـح الأسـتاذ عبدالغنـي جوهـر - ليسـت هـي كذلـك التـي وصفهـا الشـاعر أحمـد عبدالمعطـي حجـازي بأنهـا مدينـة بـلا قلـب، وإنمـا هـي تلـك المدينـة ذات القلـب الكبـير، مدينـة الشـعر والشـعراء والمشـاعر، ومـا مـن شـاعر عـاش بـين رباهـا إلا وهـام بهـا وتغنـى، وقـد أطلـق عليهـا شـاعرنا العمـلاق (توفيـق صالـح جبريـل) (جنـة العشـاق) وهـو القائـل في مدحهـا:

كسلا أشرقت بها شمس وجدي

فهي في الحق جنة الإشراق

تمثلـت النهضـة الأدبيـة في كسـلا منـذ بداياتهـا بحفـظ الشـعر العـربي في العصريـن الجاهـلي والإسـلامي، وكانـوا يحفظـون المعلقـات السـبع عـن ظهـر قلـب: يحفظـون لامـرؤ القيـس وعنـترة والنابغـة الذبيـاني وطرفـة بـن العبـد وزهـير بـن أبي سـلمى، وحسـان بـن ثابـت وكعـب بـن زهـير والأخطـل وجريـر والفـرزدق والخنسـاء وأبي تمـام والبحـتري والمتنبـي وأبوالعـلاء المعـري، وكان نصيبهـم وافـراً مـن الشـعر الحديـث المعـاصر، فحفظـوا لأحمـد شـوقي وحافـظ إبراهيـم والشـابي والتيجـاني يوسـف بشـير وإيليـا أبـو مـاضي إلى زمـن أحمـد محمـد صالـح وصـلاح أحمـد إبراهيـم ومحمـد المهـدي المجذوب..الـخ كـما اطلعـوا عـلى كتـب الأدب العـربي وتعرفـوا عـلى مصـادر التاريـخ الإسـلامي، فمكنهـم هـذا مـن الحصـول عـلى ثـروة لغويـة هائلـة باللسـان العـربي، فأصبـح لديهـم تراثهـم الأصيـل في الشـعر والأدب ظهـرت ملامحـه في الغنـاء والدوبيـت ولمـا ظهـرت أغنيـة الحقيبـة في الثلاثينيـات، وتغنى أهل كسـلا لكرومـة وسرور وإبراهيـم عبدالجليـل وزنقـار ورددوا روائـع خليـل فـرح عـزة وغيرهـا، كانـت الأغنيـة تتمتـع بقـوة المضمـون والبلاغـة ودقـة التعبـير، وبـرع أبنـاء كسـلا وأجـادوا في غنـاء الحقيبـة وقامـوا بإحيـاء ليـالي كسـلا العامـرة بالأفـراح والمناسـبات السـعيدة، وقـام سـليمان عبداللـه ومـن بعـده عبدالمحمـود الأمـين وبابكـر سـعد النـور (القطـر) ويوسـف بحـر بهـذه المهمـة خـير قيـام، وكان سـليمان عبداللـه متفـرداً في غنائـه وأدائـه لأغنيـات كرومـة وسرور وزنقـار وغيرهـم، كـما كان يجيـد العـزف عـلى الـرق الـذي ظـل محتفظـاً بـه

في منزلـه، يحـكي تاريـخ تلـك الفـترة الزاهـرة حتـى وفاتـه في العـام 1975م أثنـاء فيضـان القـاش الشـهير الـذي قـضى عـلى جـل حـي الختميـة. ومـن أحـب أغـاني الحقيبـة التـي كان يرددهـا في كل المناسـبات أغنيـة (التـاكا مـا في مثيـلا) وهـو كان مـن أكـبر مؤسـسي ومشـجعي نـادي التـاكا العريـق.

وكـما ظهـر أيضـاً خـلال فـترة الأربعينيـات والخمسـينيات فنـان كسـلاوي مبـدع وهـو الفنـان الغنـائي (يوسـف بحـر) الـذي كانـت كسـلا كلهـا تغنـي معـه تلـك الأغنيـة الشـهيرة:

هي في رياض النيل من خمر الصبابة تشرب

تلهو كما شاء العفاف ويرتضيه المذهب

وبـين كلـمات هـذه الأغنيـة كان يـردد (لمـا تملكنـي الحنـين غـدوت أسـأل أيـن مـي.. أين مـي؟؟!!.

بـدأ الشـعر في التطـور والازدهـار، وظهـرت كوكبـة مـن الشـباب تهتـم بـالأدب والشـعر وتكتـب وتنظـم فيـه، منهـم مـن شـق طريـق المدرسـة الكلاسـيكية أو التقليديـة، ومنهـم مـن نهـج منحـى المدرسـة الحديثـة في الشـعر والنظـم فيـه. وكان شـعراء البطانـة قـد ظهـروا قبـل ذلـك مـن أمثـال آل أبـو سـن والحردلـو والبنـا وآل أبوعاقلـة أبـو سـن ومنهـم أحمـد أبوعاقلـة وشـقيقه حسـان الـذي أبـدع في مجـالي الشـعر والبحـث الـذي ضمنـه في كتابـه الـذي جـاء بعنـوان: (قصائـد مـن الـشرق) فحسـان أبوعاقلـة شـاعر وباحـث مبـدع وعبقـري، يعتـبر بحـق متمـماً ومكمـلاً لمـا بـدأه شـعراء المرحلـة التـي سـبقته في كسـلا مـن أمثـال القـدال وبشـير عبدالرحمـن ومحمـد أحمـد محجـوب، وخلـف اللـه بابكـر ومحمـود أبوبكـر صاحـب الكنـار وتوفيـق صالـح جبريـل.

وسـجلت الروايـات أسـماء الكثـير مـن الأدبـاء والشـعراء الذيـن كانـت قصائدهـم وكتاباتهـم تحـث عـلى النضـال والكفـاح، وتعـرض المسرحيـات عـلى مسـارح الأنديـة المختلفـة لتعكـس الظلـم والطغيـان والاسـتبداد الـذي يمارسـه المسـتعمر البغيـض. وهنـاك الكثـير مـن هـؤلاء الأدبـاء أو الشـعراء ممـن ظهـر بعـد ذلـك وأثـرى الحيـاة الأدبيـة والثقافيـة بفنـه وشـعره، ودونـوا عـن كسـلا غـير قليـل، وأذكـر مـن هـؤلاء عـلى سـبيل المثـال محمـد خـير البـدوي وكتابـه المشـهور (مواقـف وبطـولات سـودانية في الحرب العالميـة الثانيـة)، ومحجـوب بريـر محمـد نـور وكتابـه (تـراث وقبـس مـن الفكـر والتاريـخ) كـما كتـب الدكتـور النـاصر عبداللـه أبوكـروق رسـالة ماجسـتير عـن تاريـخ مدينـة كسـلا في زمـن احتـلال إيطاليـا لكسـلا

العـام 1896م الاحتـلال الأول لكسـلا، وحـوت الرسـالة فصـلاً عـن الـصراع بـين الختميـة والأنصـار في كسـلا.

وقـد أشرنـا أيضـاً إلى رسـالة البروفيسـور البريـر عثـمان محمـد عـن نهـر القـاش والأحوال الاجتماعيـة عـلى ضفافـه، ويبـذل الأخ الأديـب أحمـد طـه جهـوداً لنـشر المزيـد مـن إنتاجـه العلمـي والأدبي عـن كسـلا وأحوالهـا الاجتماعيـة والثقافيـة. كـما كان للشـيخ محمـد الأمـين شريـف إنتـاج علمـي وثقـافي غزيـر لا يسـتطيع أن يسـتغني عنـه باحـث في تاريـخ الـشرق وأحوالـه الاجتماعيـة.

ولابـد مـن الإشـارة إلى عـدد آخـر مـن هـؤلاء الشـعراء والأدبـاء مـن أمثـال الدكتـور محمـد عثـمان جرتـلي و د.عمـران العاقـب والقـدال سـعيد القـدال وعـلي صالـح داؤد ومحمـد عثـمان كجـراي ومحمـود عبدالخـير وأبـو آمنـة حامـد وأبـو عـلي أكلاب وإبراهيـم عـوض بشـير وكـمال عبدالحليـم.

وظهـرت أديبـات كان لهـن دور في النهضـة الأدبيـة التـي ازدهـرت في كسـلا مـن أمثـال الأسـتاذة نفيسـة الشرقـاوي (أم أحمـد) وخديجـة محمـد حسـن، وغيرهـما مـن المبدعـات في كتابـة القصـة. وظفـرت مدينـة كسـلا ذات القلـب الكبـير والمشـاعر الـثرة باهتـمام الكثيريـن مـن الباحثـين في مجـالي الثقافـة والأدب، فـإلى جانـب مـا قـد وقـع بـين أيدينـا مـن المؤلفـات، فـإن هنـاك العديـد مـن أوجـه الإبـداع الكسـلاوي ولعـل مـن أشـهرها تلـك التـي أبدعهـا يـراع الشـاعر الغنـائي عزمـي أحمـد خليـل، التـي تقـول كلماتهـا:

لي زمان أنا يا أميرة من عيون القاش وفصلو

لا حضرت معاد وصولو ولا الخضار باركت شتلو

وهنـاك عـدد آخـر مـن الشـعراء المبدعـين الذيـن أثـروا السـاحة الغنائيـة مـن أمثـال عبدالوهـاب بابكـر هـلاوي وعمـر الشـاعر وإسـحق الحلنقـي وهـؤلاء مـن أوفى أبنـاء مدينتنـا الخـضراء كسـلا ذات القلـب الكبـير والمشـاعر العامـرة، ونـردد مـع عبدالوهـاب هـلاوي بيتـاً مـن قصيدتـه الغنائيـة الخالـدة التـي يتغنـى بهـا الفنـان الكبـير زيـدان إبراهيـم:

مين علمك يا فراش تعبد عيون القاش.

أمـا زميـل الصبـا والشـباب (إسـحق الحلنقـي)، فـلا أبالـغ إذا قلـت إننـي كنـت معـاصراً لـكل قصائـده التـي بـدأ في نظمهـا وصياغتهـا منذ بدايـة الخمسـينيات إلى مرحلة السـتينيات، فـكان بالإضافـة إلى صلـة الرحـم صديـق الطفولـة وزميـل الدراسـة، وكان منـذ صبـاه رقيـق

القلـب مرهـف الحـس، يسـتطيع بحسـه وشـفافيته أن ينفـذ إلى أعـماق القلـب بكلماتـه الرقيقـة وأدبـه الجـم.. وعـاصرت حياتـه الأدبيـة والشـعرية الأولى ولـدي إلمـام تـام بـكل المناسـبات التـي صـاغ يراعـه فيهـا تلـك الأبيـات ومسـيرته الأدبيـة الحافلـة والعامـرة بالحـب والوفـاء.. ومـا زلـت أذكـر أول إنتاجـه الـذي بـدأ بـه حياتـه الشـعرية، التـي تعكـس تعلقـه دومـاً بـكل مـا هـو جميـل وأصيـل.. فأذكـر مـن ذلـك بيتـاً واحـداً مـن قصيـدة عصـماء نظمهـا في مطلـع صبـاه:

تشهد سنيت أنا في هواك جنيت

ثـم توالـت روائعـه بعـد ذلـك في الأبيـض ضمـيرك، وحبيـت عشـانك كسـلا، ومشّي أمـرك يـا قـدر، وفي سـاعة الغـروب مشـيت أسـأل عليكـم، وغيرهـا مـن الروائـع التـي تغنـى بهـا كبـار الفنانـين أمثـال وردي، صـلاح مصطفـى، محمـد الأمـين، البلابـل، إبراهيـم حسـين، التـاج مـكي، صالـح الـضي، وعـلى إبراهيـم اللحـو وغيرهـم بعـد ذلـك كثـير.

ويعتـبر قـرض الشـعر بوجـهٍ عـامٍ مظهـراً مـن مظاهـر الاعتـزاز بالنفـس ووسـيلة مـن وسـائل الدعايـة العامـة، اتخذهـا الشـعراء في مـدح أو ذم مـن يقصـدون بابـه. وقـد أدى الشـعر في معظـم الأحيـان الرسـالة التـي كان يسـعى وراءهـا رواد الحركـة الوطنيـة في كسـلا وغيرهـا في اسـتغلال الشـعر للجهـاد والكفـاح ضـد المسـتعمرين والغـزاة سـواء أكانـوا إنجليـزاً أو طليانـاً، كـما كان الشـعر يبحـث في الأحـداث السياسـية والاجتماعيـة.. ويمكـن أن نعتـبر الشـعر وثيقـة اجتماعيـة أو سياسـية أو تاريخيـة، إنـه رؤيـة للأحـداث، يمكـن للـدارس أن يسـتخلص منهـا المعلومـات القيمـة. وقـد تطـرق الشـعر إلى أغـراض عديـدة معروفـة مـن ذم ومـدح ورثـاء ووصـف، وقـد نلحـظ ذلـك في قصائـد المحجـوب وتوفيـق صالـح جبريـل وحسـان أبوعاقلـة وعبدالوهـاب هـلاوي وإسـحق الحلنقـي وكجـراي وأبوآمنـة حامـد، وكان المـدح أو الـذم في كثـيرٍ مـن الأحيـان للترويـح عـن النفـس ولم يقصـد الـذم أو الإسـاءة في حـد ذاتهـا، بـل كان بمثابـة دعابـة، لا يحمـل الطـرف الآخـر أي حقـد أو ضغينـة، بـل عـلى العكـس يضحـك لهـا الجميـع وتمـر كأنـه سـحابة صيـف عابـر، وكان في كسـلا المـدح أو الـذم كثـير في ذلـك الوقـت، فقـد يحـدث أن يمـدح شـباب مـن حـي معـين أبنـاء مـن قريـة أخـرى أو يـذم أبنـاء القـوازة أبنـاء (تسـعة جـي) والعكـس، وتكـثر هـذه الحـالات في ايـام الأفـراح بوجـهٍ خـاصٍ، وهـي بمثابـة مباريـات أدبيـة أو مبـارزات شـعرية ومناظـرات في الفكـر، وأبـرز مثـال قصيـدة راجـت في فـترة الأربعينيـات أو مطلـع الخمسـينيات، اختلـف أهـل كسـلا في اسـم

المـرأة التـي نظمتهـا هـل هـي اللقيـا أم مجـودة شـاعرة المراغنـة، وأصـل الموضـوع أن هـذه المـرأة كانـت قـد طلبـت طلبـاً مـن أحـد أبنـاء حـي القـوازة في الختميـة أن يسـاعدها في إنـزال متاعهـا إلى الأرض أو إلى داخـل البـص، ورأى آخـر يقـول إنهـا طلبـت منـه أن يحملهـا معـه بسـيارته وهـو في طريقـه إلى قريـة الختميـة، إلا أنـه رفـض مسـاعدتها وانشـغل عنهـا بأمـر آخـر، فاسـتجاب لطلـب هـذه المـرأة رجـل مـن أبنـاء كسـلا، البعـض يقـول إنـه متـولي أبوالنجـا، والبعـض الآخـر يقـول أنـه شـقيقه عبدالعزيـز أبوالنجـا.. والمهـم في الأمـر أن المـرأة كانـت شـاعرة متمكنـة في فـن الـذم، فنظمـت في الحـال الأبيـات التاليـة:

الفيتريتة ما بتبقى رغيف

والقوازي ما بيبقى ظريف

يا سماحة الثوب النظيف

فلان القده الصريف

ورأي آخر يورد تعديلاً في هذه القصيدة ويقوم بالتصحيح الطفيف ويقول:

الفيتريتة ما بتبقى رغيف **** والقوازي ما بيبقى ظريف**

ود أبوالنجا كدي فوقو **** الفات الجميع بي ظرافتو وذوقو**

إلا أن الأمر الغالب في شعر أبناء كسلا وأدبهم هو التغني لكسلا وجمالها وألقها:

سقى الله ما تحوي كسلا وحياها   فما أطيب اللذات فيها وأهناها

نزلنا بها فاستوقتنا محاسن يحن إليها كل قلب يهواها

ويحـاول شـعراء كسـلا إحاطـة شـعرهم بالرقـة والسـهولة، فـكان يحـاول كل واحـد منهـم أن يكـون مطبوعـاً بسـلامة قلبـه وقـوة لبـه، وحـلاوة فكاهتـه:

سلام لنشر الروض يسري به الصبا   فتعيق من أنفاسه وتطيب

على ما يراه القلب من بعد داره قريباً فيدعو أوده فيجيب

وكأني بآخر يقول:

رأيت عذابي في محبتكم عذباً   وبعد دياري من دياركم قرباً

وتمثل بأبيات أخرى في هذا المعنى:

رأيت لحمامكم ستة يظل بها الطلق منها عبوساً

هواء تجمد منه الرؤوس وماء يذيب الكلا والنفوس

وذلك المحلق ينشد في تاجوج:

جعلت هوى تاجوج لي عبادة وتاجوج تلهو في نعيم وتلعب

وفي أبيات أخرى يقول:

تشكيت من قطع المهامة في الدجى ونالك من سير النهار لغوب

متى تشربي من ماء تاجوج ترتوي وكم نهلت من قبل شربك نيب

وطاب لها من أرضها كل نابت وتاجوج هيفاء القوام لعوب

سلام عليها من بعيد لعلها ترد حنايانا ونحن قريب

لا يفوتنا أن نذكر عدداً آخر من الأدباء الشعراء أفاضوا في وصفهم لكسلا ومنهم أدباء وشعراء من كسلا ذاتها ولكنهم أثروا الساحة الأدبية والفنية بوجه عام ومن هؤلاء مبارك حسن أزرق (لغز تاجوج)، ومحمد صالح هارون والعوض أحمد الحسين صاحب قصيدة يا نسيم أرجوك، ومحاضرة عن تاجوج، وقد حوى كتاب (عبقرية الزمان) تراجم لعدد من الأدباء والشعراء، كما أن قطار الزحف المقدس، لأحمد طه أيضاً يعتبر إضافة أدبية مهمة.. بالإضافة إلى ميرغني ديشاب وكمال عبدالحليم وبابكر محمود النور وجابر حسين والبدري حسين وعبدالغني خلف الله..الخ.

محمد خير التهامي:

لابد أن نشير إلى الشاعر الكبير محمد خير محجوب التهامي من أبناء كسلا (حي الختمية) الذي أثرى الساحة الثقافية والاجتماعية بروائعه من شعر ونثر ومسرحيات عديدة إذ كان ضمن أول فرق مسرحية تأسست بكسلا العام 1981م وكانت تعرف باسم (جماعة النشاط المسرحي) التي كان من اعضائها إبراهيم بيلو والأستاذ داؤد والأستاذ عوض والأستاذ أب كرنكي، وقد تلقى أفراد هذه الفرقة تدريباً عالياً في التمثيل والإخراج على يد ودالملك، وقد مُنح أعضاؤها شهادات في التمثيل والإخراج، سيما وقد قدمت هذه الجماعة عدداً من المسرحيات منها البشارة ومطر الليل. وكان التهامي محرراً لجريدة (الجلنار) التي كانت تصدر أسبوعياً بنادي توتيل، وينتمي التهامي أيضاً إلى جماعة أولوس الأدبية وقدم لديوانه الشاعر المصري الأستاذ نعمان عبدالسميع الحلو (أوراق خضراء)، وله مساجلات عديدة مع بعض الشعراء بدول المهجر، وقد خصه الشاعر الكبير حسان أبوعاقلة بترجمة لشخصه في ديوانه (قصائد من الشرق) كما له بحوث عديدة في مجال الآثار منها بحث بعنوان: (معالم سياحية وأثرية بولاية كسلا).

كانت كسلا وما زالت تعشق الطرب والغناء، فهناك الغناء بأنواعه، وكان أكثر ما يميز كسلا في ذلك الغناء رقصات البجا المعروفة.

الشيخ الأمين شريف:

يعتبر الشيخ محمد الأمين شريف - وقد أشرنا إليه في حلقة التعليم وأوائل المعلمين ودورهم في نشر الثقافة الإسلامية والتعليم في المنطقة - من المؤرخين والأدباء والشعراء وعلماء الاجتماع، تعلق قلبه بالشرق بصفة عامة، وكسلا على وجه الخصوص. أثرى الحياة الثقافية والعلمية بعلمه وأدبه وندواته ومحاضراته عن تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامي في الشرق، طاف أقاليم الشرق ومدنه المختلفة كلها، ودرس أحوالها الاجتماعية، حيث زار سواحل بحر القلزم وعقيق وعيذاب وسواكن وطوكر وكسلا، وتلمس مشكلاتها، وكتب عن أحوالها العامة وتاريخ دخول الإسلام فيها، وكثيراً ما نطلب منه إقامة ندوات ومحاضرات عن تاريخ الإسلام في شرق السودان يقيمها في كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية وكان (يرحمه الله) لا يرد لي طلباً، ويمتع الحاضرين بأسلوبه السلس وعرضه القيم ومعلوماته الوفيرة. لذلك يعتبر الشيخ محمد الأمين شريف من رواد حركة الأدب والثقافة، ومن علماء علم الاجتماع والتاريخ والأدب في البلاد بأسرها. وقدم هذا العالم الجليل - عليه رحمة الله - شرحاً وافياً في دروسه ومحاضراته عما كان عليه تطور الثقافة الإسلامية في المنطقة بصفة عامة. ولمن أراد أن يقف على موضوع (تاريخ الثقافة في كسلا) فعليه الرجوع إلى مصدر مهم لهذا الشيخ الجليل (تاريخ مدينة كسلا) الذي حوى معلومات قيمة ومفيدة عن تاريخ الثقافة في كسلا منذ نشأتها كمديرية في زمن الأتراك، الذي نقحه ورتبه وحققه ووضع حواشيه البروفيسور حسن أبو عائشة حامد. وكلنا أمل بالله تعالى ورغبة أن نسير على هدى هذا الجيل الذي قدم للمنطقة المنهج العلمي والثقافة والمعرفة، مما يجعل من شبابها كوكبة نور وضياء وأمل.

أدى عامل القرب الجغرافي والتنوع العرقي والثقافي في كسلا إلى انتشار الغناء الأثيوبي في هذه المدينة منذ زمن بعيد، وكان أهل كسلا بحكم القرب الجغرافي والروابط المختلفة يعشقون الأغنية والموسيقى الأثيوبية، وكان الفنانون السودانيون يرددون الأغنية الأثيوبية، كما كان الأثيوبيون يعشقون الأغنية السوداني ويتفننون في تلحينها وترديدها.. فكانوا يتغنون بأغاني أحمد المصطفى وسيد خليفة ووردي ويرددون

أغنية خليل فرح الخالدة (عزة في هواك). كما كان هناك ولا يزال تبادل ثقافي وغنائي واسع في هذا الجانب، ويذكر السودانيون كثيراً الفنانين منليك ورابح ويرددون أغانيهم باستمرار، وما زالت الأغنية الأثيوبية تنتشر على نطاق واسع في البلاد كافة.

وأدى المسرح والسينما دوراً مهماً في نقل الثقافة ونشرها في كسلا، وتطورت الفنون الشعبية، وازدهرت الموسيقى، واكتسبت الرقصات المحلية والغناء الشعبي شهرة عظيمة في البلاد كلها، وكانت سينما كسلا منذ الأربعينيات تعرض أفلام ظهور الإسلام من روائع طه حسين الخالدة (الوعد الحق) وصلاح الدين الأيوبي وجهاده وانتصاراته على الصليبيين في موقعة حطين واستعادة بيت المقدس، ومن تلك الأفلام روايات الأدب العربي المشهورة مثل عنتر وعبلة ودعاء الكروان وقيس وليلى، ومجنون ليلى (قيس بن الملوح) والبؤساء (لفتكور هيجو) وصوت الموسيقى وتاجوج والتحفة الهندية الرائعة (من أجل أبنائي). كما قامت سينما كسلا الوطنية التي ظهرت في أواخر الخمسينيات بدور مماثل. وكان أبناء كسلا يهتمون كثيراً بأحداث التاريخ الإسلامي ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبطولات الصحابة الخارقة (علي بن أبي طالب) وحمزة (سيد الشهداء)، كما كانوا يقرأون عن أبي زيد الهلالي والمحلق وتاجوج والزير سالم (حرب البسوس).

ونخلص إلى القول إن مجمل هذه الفترات التي مر بها تاريخ الإسلام في كسلا الثقافي والأدبي والفني هي فترة ازدهار وتطور مستمر. ومما يثير الانتباه أن النهضة الأدبية والثقافية في كسلا وصلت قمة مجدها في مطلع الأربعينيات أثناء الاحتلال الإيطالي الثاني لكسلا وظروف الحرب العالمية الثانية، والاحتلال البريطاني للبلاد، ورغم وطأة الاحتلالين الإيطالي والبريطاني واشتعال نيران الحرب العالمية الثانية، رغم ذلك ازدهرت الحياة الأدبية والثقافي، وانتظمت ليالي الشعر والأدب والخطابة.. إذ أنه ليس من الضروري أن يستتبع الاضطراب السياسي والفوضى وظروف الاحتلال في بلدٍ ما ضعفاً في الحركة الأدبية والفكرية والعلميةوقدتسوء الحالة السياسية ولكن تزدهر إلى جوارها الحياة الأدبية والعلمية، لذلك نرى صدى هذه النهضة الأدبية والفكرية والشعرية في كسلا منذ مطلع الأربعينيات حيث تتمثل في دهاليز توفيق صالح جبريل وجلسات الأدب والفكر التي ينظمها الدرديري محمد عثمان وليالي الشعر والأدب التي ينظمها محمد أحمد محجوب ومبارك زروق والدرديري أحمد وخلف الله بابكر، فوصلوا بالثقافة والشعر والأدب إلى قمة المجد والشموخ.

وفي هـذا المقـام لابـد أن نشـير إلى عـدد مـن رواد الصحافـة والكلمـة النـيرة مـن أبنـاء كسـلا الذيـن تابعـوا أخبـار كسـلا في شـتى النواحـي السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة، وربطـوا كسـلا عـن طريـق الكلمـة بمـدن البـلاد الأخـرى، فاسـتطاع هـؤلاء أن ينقلـوا أدق الأخبـار عـن كسـلا وأوجـه النشـاط فيهـا في شـتى المجـالات المشـار إليهـا، وبـكل دقـة وأمانـة وموضوعيـة. ويعتـبر الأسـتاذ محمـد خليفـة طـه الريفـي، وهـو مـن أبنـاء القضـارف مـن أول رواد الصحافـة مـن أبنـاء منطقـة الـشرق، فهـو الشـاعر والصحفـي الكبـير والعصامـي، وهـو الـذي قـال عـن نفسـه (واللـه لم يظللنـي سـقف سـنة ثالثـة كتـاب)، وهذا يعنـي أن الريفـي تـرك المدرسـة الأوليـة بعـد سـنتين فقـط، ومـع ذلـك فهـو القائـل شـعراً:

صحوت فلا صنوي ولا أنت في يدي *** ولا أنت في يومي الحزين ولاغدي

لذلـك يعتـبر الريفـي فريـد زمانـه في الشـغف بالعلـم والتـزود بـه فأصبـح صحفيـاً لامعـاً وذا كلمـة رصينـة، عمـل في عـدد مـن الصحـف اليوميـة منـذ الأربعينيـات، وكان رئيسـاً لتحريـر عـدد مـن الصحـف أذكـر مـن بينهـا (صـوت السـودان)، وقـد تتلمـذ عـلى يديـه الكثـير ممـن أصبـح بارعـاً في هـذا المجـال أذكـر منهـم عـلى سـبيل المثـال: عبدالغنـي عبدالعزيـز جوهـر (الـذي اشـتهر باسـم عبدالغنـي جوهـر)، وهـو مـن أبنـاء كسـلا، وأحـب الـشرق بصفـة عامـة، وكتـب مقـالات أدبيـة كثـيرة تمجـد الـشرق وكسـلا بصفـة خاصـة، وبذل مجهـوداً كبـيراً مـن أجـل رفعـة صحيفـة (صـوت الـشرق) ثـم صحيـف (الـشرق)، وكلاهـما مـن إصـدارات مديريـة كسـلا، فعمـل عبدالغنـي جوهـر محـرراً بهـذه الصحيفـة التـي تعتـبر ثـاني صحيفـة إقليميـة بعـد صحيفـة (كردفـان) لصاحبهـا ومؤسسـها (الفاتـح النـور).

ويقـوم ابـو عـلي أكلاب بـدور المـؤرخ والباحـث الصحفـي الـذي يبحـث وينقب ويسـطر عـبر الصحـف والمنتديـات عـن تاريـخ البجـا والـشرق بوجـه عام.

ولابـد مـن الإشـار إلى عـدد آخـر مـن هـؤلاء الـرواد الذيـن يبحثـون ويسـطرون عـبر الصحـف وأعمدتهـا المختلفـة وتحقيقاتهـا وأخبـار كسـلا وأحوالهـا العامـة بـكل موضوعيـة وأمانـة، يكتبـون عـن الأدب والفـن والثقافـة والرياضـة، وقـد أفـردت صحيفـة (الثـورة) الناطقـة باسـم حكومـة الفريـق إبراهيـم عبـود (1958-1964م) صفحـة كاملـة لكسـلا وأخبارهـا الاقتصاديـة والثقافيـة والرياضيـة وأحوالهـا العامـة المختلفـة، وكان يـشرف عليهـا الأسـتاذ الكبـير ورجـل المجتمـع العظيـم محمـد خليـل إبراهيـم، وهـي صفحـة تصـدر في هـذه الجريـدة مرتـين في الأسـبوع. وكانـت هـذه الصفحـة تمثـل مـرآة صادقـة لأحـوال كسـلا

الفنيـة والثقافيـة، ويسـتعين الأسـتاذ محمـد خليـل إبراهيـم بنخـب مـن مثقفـي كسـلا وأدبائهـا وشـعرائها في كتابـة موضوعـات مهمـة تعكـس مـا يجـري ويـدور في كسـلا مـن تطـور في مجـال الرياضـة والفنـون المختلفـة.

وأذكـر مـن هـؤلاء ايضـاً أبوزيـد سـمري الصحفـي النشـط والمراسـل الـذي ينقـل أخبـار كسـلا وأرومـا ووقـر في جريـدة (الثـورة) المشـار إليهـا. ومنهـم بابكـر العراقـي وتحقيقاتـه التـي ينشرهـا في جريـدة (الصحافـة) عـن القـاش وفيضاناتـه ويمنـح القـاش لقبـاً آخـر وهـو (النهـر العربيـد)، وكان لـلأخ محجـوب عـروة دور بـارز في الاهتـمام بكسـلا وتطويـر مرافقهـا المختلفـة في مجـال الاقتصـاد والنهضـة بالتعليـم.

أمـا الصحفـي والمراسـل اللامـع حسـن أحمـد فـكي آدم فـما زال عطـاؤه ثـراً ومتواصـلاً، ويتمتـع باهتـمام بالـغ بنقـل أخبـار كسـلا خاصـة الرياضيـة، فهـو قـد تمـرس وتـدرب عـلى هـذا العمـل منـذ كان ضابطـاً بالقـوات المسـلحة (نقيـب بالمعـاش) وقـد أهلتـه خبرتـه كفنـي لاسـلكي ومبرقـة للعمـل بعـدد مـن القيـادات والحاميـات العسـكرية والالتحـاق بـدورات في مجـال الأجهـزة اللاسـلكية والمبرقـة والعمـل في مجـال الإدارة الرياضيـة، حيـث عمـل سـكرتيراً لنـادي توتيـل الريـاضي ثـم عضـواً بنـادي الميرغنـي الريـاضي، ووظـف خبرتـه في مجـال العمـل الصحفـي، ويعمـل مراسـلاً لعـدد مـن الصحـف اليوميـة، وهـو حاليـاً يعمـل مراسـلاً لصحيفة (الـراي العـام)، خاصـة أخبـار الرياضـة في كسـلا. ويمكـن أن نقـول أن رواد الصحافـة بذلـوا جهـداً مقـدراً في دعـم مسـيرة وتطـور النهضـة الثقافيـة في كسـلا، وأبـرزوا وجههـا المـشرق.

تطور الفن والموسيقى في الوقت الحالي:

اشـتهرت أغـاني الهدنـدوة والبنـي والعامـر والبجـا بصفـة خاصـة.. كـما راجـت في المنطقـة أغـاني الشـايقية والنوبـة والمحـس وأهـل الشـمال بصفـة عامـة، وكانـت الربابـة قـد ظهـرت في المنطقـة منـذ وقـت مبكـر مـن تاريخهـا، ثـم ظهـر الطنبـور، وأصبحـت هاتـان الآلتـان مـن أدوات الموسـيقى المميـزة في الـشرق، ثـم ظهـر الـرق والعـود والكـمان مـن بعـد ذلـك، مـع الدلوكـة والطبـل. وكان تنـوع الثقافـة والتعـدد قـد سـاعد عـلى ظهـور تـراث مميـز وفريـد يدعـو إلى الفخـر والاعتـزاز:

حليل موسى يا حليل موسى حليل موسى للرجال خوسة

لابيشرب الخمر يسكر ولا بياكل الملاح أخضر

لقـد كان الفنانـون يعشـقون كسـلا ويخطبـون ودهـا دائمـاً، فكثـيراً مـا كان يبـدأ

الفنانـون في الخرطـوم مشـوارهم الفنـي بمدينـة كسـلا، وقـد عرفـت كسـلا منـذ وقـت بعيـد الفنـان العمـلاق محمـد أحمـد سرور، الـذي عـاش في كسـلا وتـزوج منهـا وأنجـب فيهـا عـدد مـن أبنائـه منهـم ابنـه وابـن كسـلا ورجـل المجتمـع اللامـع دريـد محمـد أحمـد سرور، وكان أهـل كسـلا وأنـا منهـم - نحسـب أن الحـاج سرور مـن أبنـاء كسـلا، ولكننـا عرفنـا هـذه الحقيقـة أخـيراً وهـي أنـه مـن أبنـاء ودمـدني، ولكنـه قـضى وقتـاً طويـلاً مـن حياتـه في كسـلا التـي أحبهـا وتعلـق بهـا، وكانـت لـه في كسـلا مصالـح اقتصاديـة وأعـمال تجاريـة كثـيرة وفي خـارج كسـلا عـبر الحـدود، وعشـق سرور كسـلا في منتصـف الثلاثينيـات عندمـا أحيـا حفـل زواج لصديقـه سـائق لـوري (الفيـات) عـلي الرباطـابي عليـه الرحمـة، ففتحـت تلـك الحفلـة الطريـق لـسرور ليعمـل بالتجـارة مـا بـين كسـلا والخرطـوم... في اثنـاء رحلتـه ووجـوده بكسـلا تـزوج منهـا وأنجـب إبنيـه (عايـده ودريـد). تعـرف عـلى السـيد محمـد الحسـن الميرغنـي والعمـدة أحمـد جعفـر في أمسـية قمريـة جمعـت ثلاثتهـم ببعـض مـن أقطـاب مدينـة كسـلا للتشـاور ورفعهـا لتكـون مثـل رصيفاتهـا الخرطـوم وودمدني...الـخ تمخـض مـن ذلـك الاجتـماع أن يؤسـس نـادي ثقـافي ريـاضي يحمـل اسـم كسـلا، بعـد التشـاور والمـداولات المسـتفيضة خـرج اسـم نـادي الميرغنـي الريـاضي الثقـافي العـام 1928م وهـو أول نـادٍ يحمـل اسـم شـخصية قوميـة في تاريـخ كـرة القـدم في السـودان.

رحـلات سرور بـين الخرطـوم وكسـلا: أهـدى سرور لمدينـة كسـلا عشريـن رتينـة (بتروماكـس) لإنـارة نـادي الميرغنـي العتيـق وعـشر أخـرى أهداهـا للعمـدة أحمـد جعفـر لتوزيعهـا عـلى المستشـفى والسـوق.

ومنـذ الأربعينيـات وكسـلا يـتردّد عليهـا كبـار الفنانـين مـن أمثـال إبراهيـم الكاشـف وحسـن عطيـة وأحمـد المصطفـى والتـاج مصطفـى وسـيد خليفـة وعبدالعزيـز محمـد داؤد وعثـمان الشـفيع وعائشـة الفلاتيـة، ومـن بعـد ذلـك عبدالكريـم الكابـلي وإبراهيـم عـوض والنعـام آدم، ومحمـد وردي.

وقـد ذكـر الأسـتاذ محمـد وردي أن أول مدينـة أحيـا فيهـا حفـلاً غنائيـاً بعـد أن أجيـز صوتـه للغنـاء كانـت مدينـة كسـلا في العـام 1957م.

وكان عـدد كبـير مـن الفنانـين يلبـي دعـوة الأنديـة والهيئـات الخيريـة والأفـراد لإحيـاء حفـلات غنائيـة في كسـلا، ويكـون لهـا نجـاح منقطـع النظـير، وأذكـر الفنـان النعـام آدم ومحمـد وردي وسـيد خليفـة وعبدالعزيـز محمـد داؤد زاروا كسـلا خـلال السـتينيات وأحيـوا

عـدداً مـن الحفـلات الغنائيـة عـلى مـسرح سـينما كسـلا الوطنيـة، وأذكـر أيضـاً أن الفنـان الطـروب الطيـب عبداللـه قـد لبـى دعـوة نـادي توتيـل في العـام 1962م تقريبـاً وأحيـا حفـلاً غنائيـاً ناجحـاً في سـينما كسـلا الوطنيـة.

أمـا أبنـاء كسـلا مـن الفنانـين أو أولئـك الذيـن ارتبـط وجدانهـم بكسـلا وتغنـوا لهـا فـلا بـد أن نذكـر منهـم بـكل معـاني الوفـاء عبدالعظيـم عبداللـه يوسـف (حركـة) عليـه رحمـة اللـه أرض الحبايـب... أرض المحنة...كسـلا كسـلا...

وإبراهيـم حسـين وأنـس العاقـب وجرتـلي وهـو يعتـبر مـن طبقـة الشـعراء والفنانـين، ومنهـم أيضـاً بابكـر سـعد النـور (القطـر) فنـان الحقيبـة، والتـاج مـكي وصالـح الـضي وكـمال كيـلا وكـمال ترباـس، وعـلي إبراهيـم، وزيـدان والملحـن عمـر الشـاعر، والبعيـو ومحمـد مطـر، وإبراهيـم عـوض (مـن أبنـاء كسـلا) وعبدالـرضي سـعد النـور، وعـوض أحمـد عمـر، ومرتـضى عبدالرحيـم صباحـي، ووالـده عبدالرحيـم صباحـي قـاضي محكمـة كسـلا الـذي سـبقت الإشـارة إليـه. وأذكـر مـن أبنـاء كسـلا العازفـين محمديـة عـازف الكـمان المشـهور في الخـارج والداخـل، وصاحـب الطبـل البـارع الزبـير والفاتـح الهـادي (عـازف الأوكورديـون)، والعـازف عـوض كسـلاوي وبشـير صالـح، ولا يمكـن أن ننـسى الفنـان البجـاوي الـذي تغنـى للبجاويـة وهـو الفنـان إبراهيـم شريـف.

روّاد النهضة الأدبية:

وضـع الأخ أحمـد طـه تصنيفـاً لـرواد النهضـة الأدبيـة في كسـلا، حيـث قـام بتقسـيمها إلى مجموعتـين:

المجموعة الأولى:

مجموعـة اتحـاد الأدبـاء، وتضـم حسـان أبوعاقلـة وعمـر العاقـب وعـلي صالـح داؤد ومحمـد صالـح هـارون وأبوالقاسـم كتـير.

المجموعة الثانية:

وهـي مجموعـة أونـوس الأدبيـة ومـن روادهـا محمـد عثـمان كجـراي وجابـر حسـين وحسـون كبـاشي ومبـارك حسـن أزرق وبابكـر محمـود النـور وأحمـد طـه، ومحمـد الحسـن وميرغنـي محمـد ديشـاب وكـمال عبدالحليـم (في الروايـة الشـعرية)، واللـواء شرطـة (م) عبدالغنـي خلـف اللـه ومحمـد خـير التهامـي، وهـؤلاء قامـوا بإنجـاز كبـير في المنطقـة وهـو (مهرجـان الثقافـة في القضـارف العـام 1979م) وشـاركت فيـه جماعـة مـن أونـوس الأدبيـة

ومنهـم كجـراي وأحمـد طـه وبابكـر عمـر النـور والدكتـور جرتـلي، والشـيخ الكبـير أحمـد عـوض الكريـم أبوسـن، وشـاعر البطانـة العمـلاق الصـادق حمـد الحـلال (ود آمنـة) وحسـان أبوعاقلـة، والأسـتاذ خليـل عجـب الـدور. (وأوضـح هـذا المهرجـان كـرم أهـل القضـارف المعهـود وولعهـم الشـديد بـالأدب والثقافـة).

أمـا مهرجـان الثقافـة الثـاني فقـد قـام في كسـلا، وكان أوسـع مـن المهرجـان الأول، إذ انتظمـت في هـذا المهرجـان نـدوات ومحـاضرات في الأدب والشـعر والثقافـة، حيـث قـدم الشـيخ محمـد الأمـين شريـف ندوتـين.

الندوة الأولى: بعنوان (الصوفية في شرق السودان).

الندوة الثانية: كان موضوعها الشاعر أبو الطيب المتنبي.

كـما قـدم الشـاعر ميرغنـي ديشـاب نـدوة عـن الشـعر في منطقـة النوبـة الوسـطى، ثـم تكونـت عـلى إثـر ذلـك لجنـة عـلى مسـتوى رفيـع لجمـع الـتراث، وكان مـن أبـرز أعضائهـا الطاهـر عبدالكريـم وميرغنـي ديشـاب. وقـد نجـح أعضـاء هـذه اللجنـة في جمـع الكثـير عـن شـعر المنطقـة خاصـةً شـعر قبيلـة الشـكرية، وكانـت لأبنـاء كسـلا إسـهامات في مجـال قصـص الأطفـال، وكان المرحـوم محمـد رضـا حسـين قـد قـدم نمـاذج مـن مـسرح الطفـل، كـما أقيمـت ليلـة سرور في مـسرح تاجـوج، شـارك فيهـا الفنانـون حسـن عطيـة وأحمـد المصطفـى وعبدالعزيـز محمـد داؤد.

ونختـم موضوعنـا عـن الثقافـة بوجـه عـام - بالقـول بـأن الثقافـة التـي سـادت في المنطقـة، وأصبحـت السياسـة الثابتـة في كسـلا هـي ثقافـة المحبـة والوئام والتسـامح والسـلام في المنطقـة بأسرهـا.. بـين شـيوخ القبائـل وأفرادهـا، ولم نسـمع في تاريـخ كسـلا القريـب والبعيـد أن حربـاً نشـبت بـين قبيلـة وأخـرى بسـبب الأرض أو المـاء أو الـكلأ، ودعـم مـن هـذه الـروح أن شـيوخ الطـرق الصوفيـة - وخاصـةً الطريقـة الختميـة في المنطقـة بأسرهـا قـد ثبتـوا دعائـم المحبـة والسـلام.... لأن التصـوف الـذي هـو نهـج الطريقـة الختميـة والـذي انتـشر في كسـلا وشـكل تلـك الثقافـة الدينيـة في منطقـة الـشرق بوجـه عـام منـذ وقـت مبكـر هـو تجـرد القلـب للـه تعـالى والتوجـه لـه وحـده، ويفـترض في الصـوفي تـلاوة القـرآن الكريـم وتفهـم معانيـه... وتطهـر القلـب مـن الوهـم والخيـال. وأطـل التصـوف عـلى النـاس منـذ أواخـر القـرن الثـاني الهجـري وأوائـل القـرن الثالـث لمـا جنـح النـاس إلى مخالفـة الدنيـا، فاختـص المقبلـون عـلى العبـادة باسـم المتصوفـة.

ثانياً: الرياضة في كسلا - نشأتها وتطورها:

اشتهرت كرة القدم في كسلا بمهارة لاعبيها ومواهبهم المتعددة التي تجاوزت حدود الإقليم إلى خارجه، بل تعدت شُهرة بعض لاعبي أبنائها حدود البلاد.. فلا يمكن الحديث عن الرياضة في كسلا دون الإشارة إلى عمالقة العصر الذهبي منذ الأربعينيات إلى منتصف الستينيات، وهي المرحلة التي بلغت فيها كرة القدم في كسلا قمة العصر الذهبي في الأداء الجميل، والفن الراقي، حيث وصل أبناؤها بكرة القدم قمة الروعة والإبداع والفنون الرفيعة فيها. ولا يمكن الحديث عن تلك الفترة دون أن يذكر أهل كسلا وغيرها من بلاد دور السيد محمد عثمان الميرغني في تأسيس فريق الميرغني الرياضي العام 1928م كأول فريق يظهر في كسلا، ثم دور اللواء طلعت فريد في تأسيس فريق الشباب الرياضي مع غيره وفرق أخرى انبثقت عن نادي الميرغني من أجل تطوير الرياضة والوصول بها إلى مرحلة متقدمة. ولا يمكن أن ينسى عاشقو الرياضة في كسلا وهم يبحثون في فنونها وعمالقتها وأفذاذها دون أن يذكروا أسرة آل شاويش وعلى رأسها العبقري علي شاويش الذي أمتع جمهور الكرة بفنونه ومواهبه المتعددة وقذائفه القوية التي دوخ بها مرمى الخصم. كما لا يمكن أن ينسى أبناء كسلا أسرة سيد بيه وأبناءها أحمد وعبدالرحمن، ومدني محمد طاهر شريف وعبدالقادر كيلة (من الشباب) وهدف كيلة المشهور في مرمى الموردة العاصمي وهي في قمة مجدها وحارسها العملاق صفيحة. وكان فريق الموردة قد زار كسلا في العام 1960م (تقريباً) بقيادة عمالقة الكرة في البلاد: عمر عثمان ومحمود الزبير وعمر التوم والمحينة وعلى سيد أحمد وبكري عثمان. ولا ينسى أهل كسلا عمالقة التاكا من أمثال حمد النيل ضيف الله وعطشان عبدالواحد مصطفى والسمع وكشيب وحميدة عبدالرازق وأهدافهم المشهورة وما قدموا من فنون رفيعة. وكان مشجعو كل فريق ينتظرون بفارغ الصبر انتصار فريقهم سواء أكان التاكا أو الميرغني أو الشباب أو توتيل أو النيل ليقيموا ليالي الفرح والاحتفالات هنا وهناك، ثم يتبارى الأدباء والشعراء في تمجيد ذلك الانتصار الكبير الذي حققه فريقه على منافسه الكبير. وتحضرني في هذه المناسبة زواج حميدة عبدالرازق في مطلع الستينيات وحفلاته التي استمرت لأكثر من شهرين تقريباً، ذلك أن فريق التاكا في ذلك الوقت كان كثير الانتصار، فكان عقب كل انتصار يحققه فريق التاكا يتوجه مشجعو الفريق إلى منزل حميدة بحي الختمية لإحياء

حفلـة أخـرى، فأصبـح النـاس عـلى اختـلاف ميولهـم يتمنـون انتصـار التـاكا حتـى تسـتمر حفـلات الـزواج لفـترة أطـول.

وكان اللاعبـون في كسـلا عـلى إلمـام تـام بمـا يجـري مـن تطـور وتقـدم في فنـون كـرة القـدم، وكانـوا يتأثـرون بسرعـة فائقـة بذلـك التطـور، ويحاولـون تطبيـق مـا وقعـت عليـه عيونهـم مـن فنـون يقدمهـا صديـق منـزول أو دريسـة أو حسـن عطيـة وغيرهـم. وكانـوا يشـاهدون وحـدة أفـلام السـودان في الأحيـاء ودور السـينما وهـي تعـرض جوانـب مـن مباريـات كأس العـالم في السـويد (1958م) وفي شـيلي (1962م)، والتـي حصلـت فيهـا البرازيـل عـلى كأس العـالم عـلى التـوالي. وشـاهد النـاس فنـون الكـرة الرفيعـة التـي قدمتهـا فـرق البرازيـل والأرجنتـين وإنجلـترا وغيرهـا، وشـاهدوا الجوهـرة السـوداء بيليـه وجارنيشـيا وديـدي وأماريلـدو، وتاثـر أبنـاء كسـلا كغيرهـم بهـذه الروائـع كثيراً. ولمـا زار فريـق المـوردة العاصمـي كسـلا وهـو في قمـة عـصره الذهبـي قـدم أفـراده لمحـات فنيـة رائعـة وهـي فنـون ظـل يقدمهـا فريـق المـوردة ردحـاً مـن الزمنواشـتهرت في السـودان باسـم (عـشرة مـوردة) وهـي اللعبـة البرازيليـة للكـرة مـن لمسـة واحـدة. وقـد حـذق لاعبـو كسـلا وأشـبالها هـذا الفـن الرفيـع. كـما ألم اللاعبـون في كسـلا منـذ الخمسـينيات ومهـروا في الفنـون التـي كان يبـدع فيهـا الأمـير صديـق منـزول والقانـون برعـي أحمـد البشـير مثـل اللعبـات الحلزونيـة والاسـكرو والهيلاهـوب. وكان البروفيسـور عبدالعزيـز بطـران ماهـراً ولاعبـاً فنانـاً – لعـب في فريـق الميرغنـي – وكان يمتـع جمهـور كسـلا ويقـدم أحـلى هـذه الفنـون وأروعهـا، وكان عبدالعزيـز بطـران يجيـد اللعـب بيسراه مثـل صديـق منـزول، لذلـك سـاعدته هـذه الميـزة أن يقـدم هـذا الفـن وخاصـةً لعبـة الهيلاهـوب. وأذكـر مباراةقويـة بـين التـاكا والميرغنـي لعـب فيهـا بطـران الهيلاهـوب وقـدم نمـاذج رائعـة مـن فنـون كـرة القـدم وانتـصر الميرغنـي في تلـك المبـاراة. وكنـا في كسـلا ننتظـر حضـور حسـين السـمحوني وعبدالعزيـز بطـران لكسـلا في الإجـازة مـن الجامعـة ليطربـا مسـامعنا ويتحفانـا بمـا يشـاهداه مـن فنـون يبـدع فيهـا منـزول ودريسـة وحسـن عطيـة، ويحكيـان لنـا انتصـارات الهـلال عـلى المريـخ.

كانـت الفـرق الكبـيرة تزور كسـلا باسـتمرار، فقد زار الهلال كسـلا في بداية الخمسـينيات وكذلـك المريـخ والمـوردة، كـما كانـت فـرق بورتسـودان ومـدني تـزور كسـلا للعـب في كأس السـودان، والعكـس أيضـاً كانـت فـرق التـاكا والميرغنـي تـزور مـدني وبورتسـودان والأبيـض لنفـس الغـرض. وكانـت فـرق الأشـبال قـد ظهـرت فكرتهـا في الخمسـينيات، حيـث أصبـح

لـكل نـادٍ فريـق للأشـبال، وأذكـر مـن فـرق الأشـبال التـي ظهـرت في تلـك الفـترة: أشـبال التـاكا وأشـبال الميرغنـي وأشـبال توتيـل وأشـبال الأهـلي. وكانـت هـذه الفـرق رغـم صغـر السـن تتأثـر بمـا يظهـر مـن فنـون في كـرة القـدم، وقـد سـاعدت فـرق الأشـبال فـرق المقدمـة وأمدتهـا بخـبرة اللاعبـين وأميزهـم، وأسـهمت كثـيراً في تطويـر كـرة القـدم بكسـلا في ذلـك الوقـت، وليـت يلتفـت الحادبـون عـلى أمـر الرياضـة لإحيـاء فكـرة الأشـبال وهـو مـا يُعـرف باسـم المراحـل السـنية، ففـي ذلـك فائـدة عظيمـة مـن أجـل تطويـر كـرة القـدم في البـلاد بصفـة عامـة، وأتمنـى أن نعـود للاهتـمام بالأشـبال..

وقـد زارت كسـلا فـرق أثيوبيـة كثـيرة، أذكـر منهـا فريـق الحماسـين الـذي زار كسـلا في مطلـع الخمسـينيات وكان مـن الفـرق الكبـيرة في اثيوبيـا.. وكان أبنـاء كسـلا يتسـابقون للذهـاب إلى الخرطـوم كلـما علمـوا أن هنـاك فريقـاً مـن الفـرق العالميـة الشـهيرة سـيزور الخرطـوم، وأذكـر أنهـم كانـوا يسـتأجرون السـيارات للذهـاب إلى الخرطـوم لمشـاهدة هـذه الفـرق مثـل فريـق الهونفيـد المجـري الـذي وصـل البـلاد في منتصـف الخمسـينيات ولعـب مـع فريقـي الهـلال والمريـخ.

وكان فريـق الهونفيـد المجـري يضـم مشـاهير كـرة القـدم في العـالم في ذلـك الحـين أمثـال بوشـكاس وبوجيـك ودي سـتيفانو. وكذلـك اندفـع أبنـاء كسـلا بالعـشرات في طريقهـم للخرطـوم لمشـاهدة فريـق فاسـكوداجا وفريـق سـانتوس البرازيـلي الـذي وصـل للخرطـوم بقيـادة اللاعـب بيليـه بدعـوة مـن فريـق الهـلال في مطلـع السـبعينيات. وقطعـاً أن ذلـك يحقـق نتائـج وفوائـد عظيمـة في سـبيل تطويـر كـرة القـدم ودفعهـا إلى الأمـام.

قصـدت تقديـم هـذا الموجـز ليكـون عنوانـاً يـبرز اهتـمام أبنـاء كسـلا بكـرة القـدم منـذ وقـت مبكـر، وكيـف أن كسـلا أنجبـت أفـذاذاً وعمالقـة قدمـوا فنونـاً ومهـارات عاليـة في كـرة القـدم، وأصبحـت لهـم شـهرتهم في الداخـل والخـارج لدرجـة أن اهتمـت وسـائل الإعـلام المختلفـة كثـيراً بمـا كان يقدمـه هـؤلاء مـن روائـع، وأخـص بالذكـر منهـم مصطفـى شـاويش ومحمـد حسـين كسـلا.

فالراجـح أن كسـلا عرفـت كـرة القـدم في مطلـع القـرن العشريـن، مـع دخـول الجيـش الإنجليـزي لهـذه المنطقـة، فانتـشرت كـرة القـدم في أحيـاء كسـلا بعـد أن بـدأ أفـراد الجيـش الإنجليـزي في ممارسـتها، وهـم أول مـن عـرف لعـب كـرة القـدم في العـالم منـذ نهايـة القـرن الثامـن عـشر وأوائـل القـرن التاسـع عـشر، وأول مـن نقلهـا إلى العـالم بعـد ذلـك. وفي كسـلا

بـدأت الإدارة البريطانيـة في ترتيـب شـؤون الرياضـة والاهتـمام بهـا بعـد أن فرغـت مـن مهام توطيـد نفوذهـا وتدعيـم مركزهـا في البـلاد عامـة. فظهـرت مـع كـرة القـدم أنـواع أخـرى مـن الرياضـة كان يهتـم بهـا الإنجليـز مثـل القولـف والتنـس وكـرة الطاولـة (تنـس الطاولـة). والراجـح أن فـترة العشرينيـات مـن القـرن العشريـن هـي التـي شـهدت نشـاط أبنـاء كسـلا الواضـح تجـاه كـرة القـدم بصـورة أوسـع وأكـثر تنظيـماً.

وحسـب مـا جـاء في وثيقـة نـادي الميرغنـي، والتـي بعثهـا إلينـا بعـض أعضائـه مشـكورين، فـإن نـادي الميرغنـي الريـاضي يعتـبر أول الأنديـة التـي قامـت في كسـلا منـذ العـام 1928م ثـم تـلا ذلـك ظهـور الأنديـة الأخـرى في فـترة الثلاثينيـات كفـرق الأمـل والشـباب ثـم التـاكا وتوتيـل.. وبـدأت الفـرق في وضـع لوائحهـا المنظمـة وتكويـن جمعياتهـا العموميـة وانتخـاب لجانهـا التنفيذيـة، ومـن ثـم ظهـر النشـاط الريـاضي في كسـلا بصـورة أوسـع تنظيـماً. إلا أن هـذا النشـاط توقـف بسـبب انـدلاع الحـرب العالميـة الثانيـة، ثـم اسـتؤنف مـرة أخـرى بعـد العـام 1945م. وكانـت الإدارة البريطانيـة قـد عهـدت لأحـد مفتشـيها الاهتـمام بشـؤون الرياضـة وترتيـب أحوالهـا في كسـلا. وقـد سـبقت الإشـارة إلى أن دار الرياضـة في كسـلا قـد تأسسـت في عهـد المسـتر تشـارتون مفتـش المركـز بصفتـه راعيـاً للنشـاط الريـاضي، وكان يسـاعده عـدد مـن الأعضـاء الوطنيـين منهـم والأجانـب، وأذكـر أن عثـمان الحسـن كان مـن بـين هـؤلاء الأعضـاء بحكـم وظيفتـه الماليـة في المديريـة. ثـم تكويـن اتحـاد كـرة القـدم المحـلي في كسـلا الـذي أصبـح تشـارتون أول رئيـس لـه، ثـم بـدأ الـشروع في إقامـة دار الرياضـة الحاليـة أو في المـكان الـذي قامـت فيـه الرياضـة الحاليـة. وكانـت الفـرق تمتلـك ميادين خاصـة بهـا، فـكان للميرغنـي ميدانـه الـذي يقـع جـوار سـينما كسـلا الحاليـة، كـما كان ميـدان التـاكا يقـع في شـمالي المعهـد العلمـي أو في مكانـه الحـالي، ويذكـر أن نـادي التـاكا كان مـن أول الفـرق التـي سـجلت هـذه المنطقـة رسـمياً في سـجلات الأراضي منـذ زمـن الإنجليـز. أمـا الشـباب فقـد اتخـذ ملعبـه في حـي الـكاره أو حـي الباشـكاتب، حيـث لا يبعـد كثـيراً عـن موقـع ناديـه. أمـا توتيـل فمنحـت لـه قطعـة أرض للنـادي وأخـرى لممارسـة نشـاطه الريـاضي فيـه، وذلـك بحـي الختميـة.

اكتمـل بنـاء دار الرياضـة في العـام 1947م، حيـث أقيمـت المهرجانـات والاحتفـالات إحتفـاءً بهـذه المناسـبة الكبـيرة وأقيمـت منافسـة كبـيرة اشـتركت فيهـا فـرق الميرغنـي والتـاكا والشـباب وتوتيـل، واشـترك فريـق الجيـش الإنجليـزي مـع هـذه الفـرق احتفـالاً

بهـذه المناسـبة. واسـتمرت هـذه الفـرق بعـد ذلـك تتنافـس في منافسـات محليـة وأخـرى خارجيـة، فالمنافسـات الداخليـة كنـت تتمثـل في الـدوري المحـلي وتصفيـات كأس السـودان لتحديـد الفريـق الفائـز الـذي يلعـب مـع الفائـز مـن فـرق بورتسـودان وودمـدني والأبيـض. وهنـاك كأس المجلـس البلـدي وكأس صباحـي وكأس بنـي وكأس الاتحـاد. وظهـرت في فـترة الخمسـينيات فـرق أخـرى منهـا الهـلال والنيـل والممرضـين والأهـلي ثـم المريـخ والقـاش، ثـم أصـدر الاتحـاد قـراراً في نهايـة الخمسـينيات بتكويـن الدرجـة الثانيـة حتـى تكـون المنافسـة أقـوى وبالتـالي يمكـن أن يـؤدي ذلـك إلى تطـور الرياضـة. وفي مرحلـة السـتينيات ظهـرت فرق جديـدة هـي الفـلاح والخطـر والترعـة... وفي منطقـة القـاش (أرومـا ووقـر)، كانـت هنـاك فـرق عديـدة ومشـهورة ظهـرت في الخمسـينيات مـن أشـهرها فـرق التحريـر والإخـلاص والنهضـة في أرومـا، وفريـق الأهـلي بمدينـة وقـر.

فريق الميرغني الرياضي:

بعـث لنانـادي الميرغنـي الريـاضي - مشـكوراً - وثيقـة تاريخيـة مهمـة تسـجل تاريـخ قيـام ونشـأة النـادي والتطـور الـذي طـرأ عليـه منـذ قيامـه وتأسيسـه في العـام 1928م وحتـى يومنـا هـذا، وهـذه الوثيقـة تحـت عنـوان: (شـذرات مـن تاريـخ نـادي الميرغنـي).

والواضـح مـن الوثيقـة التـي يـؤرخ بهـا الشـيخ عثـمان إبراهيـم شـيخة - يرحمـه اللـه - لهـذا النـادي العريـق، أنهـا وثيقـة صادقـة كتبـت عـلى أيـدي مـؤرخ عـاصر نشـأة الرياضـة في كسـلا وظهـور الفـرق الرياضيـة منـذ وقـت مبكـر مـن تاريـخ القـرن العشريـن. والشـيخ عثـمان إبراهيـم شـيخة شـغل منصـب سـكرتير نـادي الميرغنـي منـذ العـام 1938م حتـى العـام 1948م، وهـذا دليـل كافٍ أن العـم شـيخة عـاصر نشـأة الرياضـة وتطورهـا وتأسـيس الفـرق الرياضيـة المختلفـة. وممـا جـاء في هـذه الوثيقـة نسـتطيع القـول إن نـادي الميرغنـي الريـاضي تأسـس العـام 1928م كأول نـادٍ يقـوم بمدينـة كسـلا، ولذلـك نعتـبره مـن المؤسسـين الأوائـل للحركـة الرياضيـة بالسـودان بصفـة عامـة ويشـير هـذا السـجل المهـم بـأن نـادي الميرغنـي الريـاضي تأسـس عـلى يـد مولانـا السـيد محمـد عثـمان بـن السـيد أحمـد الميرغنـي ومعـه نخبـة مـن المرغنـاب الأخيـار، ولم يـشر هـذا السـجل أو يعطـي اسـماً لواحـد مـن هـؤلاء الأعضـاء الأوائـل.

ولكـن هـذا السـجل يضيـف بـأن السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي كان رجـلاً رياضيـاً مطبوعـاً مـارس رياضـة كـرة القـدم بفريـق الميرغنـي بعـد أن قـام بتأسيسـه في وظيفـة

حـارس مرمـى ولعـب في وظيفـة الجنـاح أيضـاً، كـما مـارس رياضـة التنـس. وقـد تعـرف عـلى رياضـة كـرة القـدم أثنـاء دراسـته في إنجلـترا، كـما تشـير وثيقـة الشـيخ عثـمان شـيخة بذلـك. وقـد احتـل نـادي الميرغنـي منـذ ذلـك الوقـت مسـاحة كبـيرة في السـاحة الاجتماعيـة والرياضيـة، وقـام بـدور مهـم في مجـال السياسـة والثقافـة بمدينـة كسـلا وفي الحركـة الوطنيـة بوجـه عـام.

بـدأ نـادي الميرغنـي منـذ ذلـك الوقـت في التطـور والازدهـار، إلى أن تـم اعتـماده وتسـجيله بالاتحـاد السـوداني لكـرة القـدم بالخرطـوم في مايـو العـام 1938م بعـد أن أكمـل الجوانـب القانونيـة لذلـك، مـن وضـع دسـتور النـادي وانتخـاب لجنـة تنفيذيـة مـن قبـل جمعيـة عموميـة، وتسـجيل اللاعبـين في الأرانيـك التـي أعـدت لذلـك، وتشـير الوثيقـة إلى أن الريـاضي المطبـوع اللـواء محمـد طلعـت فريـد هـو وراء تسـجيل نـادي الميرغنـي الريـاضي في العـام 1938م، وذلـك حينـما نقـل إلى فرقـة القيـادة العسـكرية بكسـلا، وكان وقتئـذ برتبـة المـلازم ثـاني، ولاحـظ أن فريـق الميرغنـي وحـده في السـاحة الرياضيـة بمدينـة كسـلا، وهنـاك خمسـة فـرق أخـرى في أحيـاء المدينـة كلهـا تحمـل اسـم الميرغنـي. وعـلى الفـور اتصـل طلعـت فريـق بلجنـة نـادي الميرغنـي، وأوضـح لهـم بأنـه وكي تتطـور الرياضـة في كسـلا فإنـه لابـد مـن وجـود أكـثر مـن فريـق ريـاضي، وتحمـل هـذه الفـرق اسـماءً مختلفـة حتـى يشـتد التنافـس الـذي يـؤدي إلى تطويـر الكـرة وترقيـة مسـتواها. وفعـلاً وافقـت لجنـة النـادي عـلى الأمـر بعـد موافقـة السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي راعـي ومؤسـس النـادي... وكان أن تـم تقسـيم فريـق الميرغنـي إلى فريقـين: أحدهـما يحمـل اسـم الميرغنـي، والثـاني يحمـل اسـم الشـباب، وكان ذلـك في العـام1938م: فكانـت بذلـك تلـك البدايـة الحقيقيـة لنهضـة كـرة القـدم بكسـلا – كـما أشـارت وثيقـة نـادي الميرغنـي بذلـك.

حملـت الوثيقـة كل اسـماء رؤسـاء وسـكرتيري النـادي منـذ تأسيسـه في العـام 1928م وحتـى اليـوم تقريبـاً، كـما حـوت أيضـاً أسـماء معظـم لاعبـي الفريـق. وسـيتم نـشر هـذه الأسـماء في الملحـق بـإذن اللـه.

ومـن رؤسـاء النـادي أذكـر: السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي – الخليفـة عبدالرحمـن مصطفـى – الصـول محمـد أفنـدي أمـين – حامـد أحمـد الحـاج الرباطـابي – عطـا محمـد سـليمان (سـنجر) – عـلى تـاج السـر – الخليفـة متـولى ابـو النجـا – التهامـي مـدني – بابكـر أحمـد جعفـر – عـلى الهـداب وعـلي إبراهيـم يونـس.

وحسب ما جاء في وثيقة نادي الميرغني اشير إلى بعض أسماء السكرتيرين الذين تعاقبوا على منصب سكرتير النادي وهم: عثمان على النميري – يوسف أفندي دوكة – إبراهيم فرج ملة – طه محمد الحسن رحمة – التوم مختار الخليفة – التوم حسن – جلال عبدالمجيد – محمود عبدالحليم – عبدالباسط بحيري – محجوب محمد النميري – عبدالمنعم حسن يوسف – إبراهيم الطاهر الزبير – علي مكرب – علي محمد خور عوج وعمر عبدالحفيظ.

ومن اللاعبين أذكر نماذج أدت دورها مع آخرين ترد أسماؤهم لاحقاً – منهم:

محمود حسين صعايدي – عبدالمطلب محمود (حارس مرمى) – أوشيخ عبدالقادر محمد – موسى محجوب عيسى – سعيد آدم إسماعيل – إدريس آدم إبراهيم – أحمد عيسى بلال – علي إسماعيل شاويش – عبدالله علي بحر – إسماعيل خالد وهبة – جمعة أحمد سليم – هاشم مساعد – جارو – حمد النيل – فرح (حارس مرمى) – أبو شاخورة (حارس مرمى) – عبدالرحمن النذير – علاء الدين عامر – إدريس أحمد إدريس (حارس مرمى) برمودة – يحيى السيمت – عثمان تهامي – عثمان عيسى – أمين الباهي – عبدالعزيز بطران – حسن الذكر – حسن الماحي – عبدالعظيم عبدالله يوسف (حركة) – أبوالدهب – صلاح حسن علي – عمر بين – كمال عثمان – بشير عبدالباقي – محمد حاج عثمان – استايرو جورج – حسين إدريس – محمد طاهر محمد علي (هلي هلي) – جحجوم – محمد علي السيمت – مصطفى شاويش وفتحي محمد أحمد (الديزل).

نادي الشباب الرياضي:

تاسس هذا النادي العريق خلال عامي 1937-1938م في حي الباشكاتب أو حي الكارة، وقامت بتأسيسه عدد من الأسر المعروفة في كسلا أذكر منها: آل جبارة العوض – أولاد القاضي (حسين محمد أحمد وأخيه بابكر) – آل محمد طاهر شريف – آل عباس الفكي – آل عواض – آل دراج – آل سيد بيه – آل فرج مالك – آل كيلة – آل أبوفارس – آل حامد إدريس – آل عباس الرتالي – آل درويش – آل سليمان راتب – آل رابح – آل علام – آل سليمان قمر الأنبياء – آل خليل النصري وغيرهم كثير، ويضاف إليهم بالطبع اللواء محمد طلعت فريد الذي كان من أكبر مؤسسي هذا الفريق ومن أوائل وأشهر لاعبي هذا النادي الكبير. وأريد أن أشير إلى أشهر اللاعبين حتى

أوائل الستينيات من أمثال: حسين محمد أحمد (والد اللاعب المشهور محمد حسين كسلا) - محمد طلعت فريد - محمد نصر - أبواليمن - حسين عثمان - محمد سند - مصطفى عثمان - أحمد سيد بيه وأخيه عبدالرحمن - مدني محمد طاهر شريف - كنيسة (أشهر حارس مرمى آنذاك) - محمد شيه - محمد صومالي - الأستاذ محمد العوض - محمود كيلة - عبدالقادر كيلة - محمد طاهر - النعيم سليمان - سكوب - محمد خليل - محمود زكي وكمال كيلة.

نادي التاكا الرياضي:

كان نادي الأمل الرياضي من أوائل الفرق التي تأسست في كسلا برئاسة عثمان مختار وعضوية كل من جعفر الحلنقي وسليمان الخير وآخرين - وأصبح هذا الفريق نواةً لظهور نادٍ جديد هو نادي التاكا الرياضي - إذ أن فريق الأمل لم يستمر كثيراً، حيث تفرق أعضاؤه لأسباب غير معروفة وأصبحوا مع غيرهم من مؤسسي نادي التاكا - وترجح الروايات أن تاسيس نادي التاكا تم على الأرجح خلال عامي 1939-1940م، وكان كرار محمد أحمد هو الذي اقترح كلمة التاكا لتكون اسماً وعلماً لهذا الفريق الكبير حتى يومنا هذا - وبالإجماع وافق الأعضاء على اسم التاكا وتكونت الجمعية العمومية ووضع الدستور، وتم انتخاب أول لجنة تنفيذية لنادي التاكا، حيث أصبح عبدالرحمن مصطفى أول رئيس للنادي وعثمان الحسن محمد نور أول سكرتير له، كما انتخب محمد الحسن العراقي رئيساً للاعبين. وبذلك أصبح نادي التاكا أحد الأندية الكبيرة مع الميرغني والشباب، بل أصبحت هذه الفرق الثلاثة ذات شهرة واسعة على نطاق القطر كله. ومن مؤسسي هذا الفريق أشير إلى النفر الكريم:

كرار محمد أحمد - جعفر الحلنقي - خضر أبو سيف - عبدالرحمن مصطفى - محمد الحسن عروة - عثمان الحسن محمد نور - محمد الحسن العراقي - عبدالله الحسن الخضر - سليمان عبدالله - محمد الحسن محجوب - عبدالسلام محجوب - علي فكي الأمين - خضر محمد الأمين - حسن عبدالقادر - عيد ناصر - حسن بشارة - بني - محمود عبدالعال وحسن مساعد.

أما أشهر لاعبي فريق التاكا منذ تاسيسه العام 1940م وحتى وقت قريب أذكر الآتية أسماؤهم : عبدالله الحسن الخضر - محمد الحسن عروة (باك سندة) - عيد

نـاصر – محمـد الحسـن العراقـي – أحمـد نبلـة – آدم تيـه – عبدالعزيـز عطـا المنـان – عطشـان – عبدالحميـد ربـع – كشـيب – عمسـيب – السـمع – عبدالواحـد مصطفـى – حمـد النيـل ضيـف اللـه – الماحـي (حـارس مرمـى) الشـاذلي – عبدالعزيـز طـه (حـارس مرمـى) – الدميـج – عثـمان الطيـب – حسـن صديـق – خواجـة كوسـتا (حـارس مرمـى) – عـلي صديـق – الفريـع – كبـير – حسـن عبدالغنـي – كـمال الطويـل – قرمـاي (حـارس مرمـى) – أحمـد حـاج إبراهيـم – بشـير كشـة – إبراهيـم مـوسى – حميـدة عبدالـرازق – عبداللـه عـوض الكريـم – الطاهـر الـبر – هريـدي – عـوض تـك تـك – عمـر عطـا المنـان (بعـد عودتـه مـن بورتسـودان حيـث كان لاعبـاً بفريـق الشـبيبة) – عمـر عيـسى - حسـب الرسـول الحـاوي – الريـح رزق اللـه – نـور الديـن – النـور محمـد النـور – (سـيد البـاكات) – شـوقي – عبدالقـادر – إبراهيـم بيـلي – طـه أحمـد مصطفـى الطاهـر (حـارس مرمـى) ومحجـوب (جنـي)، يُضـاف إليهـم حـارس المرمـى والمـدرب المعـروف هشـام السـليني. وكان مـن لاعبـي الفريـق المشـهورين عبـاس شـاويش وقيـلي وجـارو بعـد انتقالهـم مـن فريـق الميرغنـي إلى فريـق التـاكا.

أمـا أشـهر إداريـي نـادي التـاكا، الذيـن شـغلوا الوظائـف الكبـيرة الثـلاث (الرئيـس والسـكرتير وأمـين المـال) فأذكـر: عبدالرحمـن مصطفـى – عثـمان الحسـن – إبراهيـم أحمـد السـيد – المـرضي عـوض الكريـم (وكيـل البوسـتة بكسـلا في الخمسـينيات) – والـد أو عـم فـوزي المـرضي – وشـقيق لاعـب النـادي الجنـاح الأيمـن عبداللـه عـوض الكريـم الـذي يسـمونه في كسـلا كشـيب الثـاني للشـبه الكبـير بينهـما – ومـن كبـار الإداريـين في المناصـب الثلاثـة أذكـر أيضـاً: أحمـد فتـح الرحمـن ومحمـد الحسـن العراقـي وعبداللـه أحمـد الشـابك ومحجـوب الحسـين وسـليمان جوهـر حتـى زمـن اللـواء كـمال جعفـر وإبراهيـم عمـر الحسـن والعقيـد عـادل جعفـر والمهنـدس عبدالحفيـظ النـور حسـن، واللـواء عابديـن الطاهـر والعميـد رمضـان نـصر اللـه وخالـد عـلي عـوض الكريـم.

نادي توتيل الرياضي:

كان معظـم أعضـاء نـادي التـاكا الريـاضي عنـد تاسيسـه العـام 1940م مـن أبنـاء الختميـة – ولكـن بعـد فـترة وجيـزة ظهـر خـلاف حـاد بـين هـؤلاء الأعضـاء عندمـا بـدأ التفكـير في إقامـة دار للفريـق – ففريـق مـن هـؤلاء الأعضـاء يقـترح ويـصر عـلى إقامـة الـدار في حـي الختميـة لأن معظـم الأعضـاء مـن أبنـاء الختميـة، بينـما يسـاند الفريـق الآخـر

فكـرة أن يكـون النـادي في مدينـة كسـلا الوسـطى، ويسـتند أصحـاب هـذا الـرأي عـلى أن عـدد أعضـاء النـادي مـن أبنـاء كسـلا بـدأ يتكاثـر، كـما أن هنـاك أصدقـاء للنـادي مـن خـارج مدينـة كسـلا خاصـة أبنـاء الخرطـوم ومـن أم درمـان بصفـة خاصـة، وهـؤلاء كانـوا يـترددون باسـتمرار عـلى كسـلا بغـرض التجـارة ومنهـا تجـارة المـوز والفواكـه بصفـة عامـة، ويجلبـون للنـادي أمهـر اللاعبـين أمثـال عطشـان والشـاذلي وهريـدي الكبـير، وفيـما بعـد كان عبدالواحـد مصطفـى وحمـد النيـل ضيـف اللـه والسـمع والدميـج والحـاوي والريـح ونـور الديـن وغيرهـم كثـير.

ولمـا أصر كل فريـق عـلى رأيـه حـدث الإنقسـام الكبـير عـام 1942م كـما يشـاع – لأن لنـادي توتيـل دوراً كبـيراً في الحركـة الوطنيـة والثقافيـة منـذ تأسيسـه في مطلـع الأربعينيـات. وقـد روى لي الأسـتاذ حسـن سر الختـم الصـافي (متعـه اللـه بالصحـة والعافيـة) الكثـير عـن تاريـخ تلـك الفـترة، كذلـك أكـد لي الشـيخ حسـن حـاج آغـا (يرحمـه اللـه) عندمـا التقيتـه في المهرجـان الكبـير الـذي أقامتـه لجنـة نـادي توتيـل برئاسـة عبداللـه حسـين العراقـي العـام 1988م – في عيـد الأضحـى – وشرفـه والي كسـلا آنـذاك العميـد طيـار محمـد عثـمان كـرار، أكـد لي الشـيخ حسـن حـاج آغـا أن نـادي توتيـل تأسـس العـام 1942م، وأنـه كان مـن أبـرز مؤسـسي هـذا الفريـق. ومـن أبـرز مؤسـسي هـذا الفريـق أيضـاً والذيـن كانـوا وراء فكـرة إقامـة النـادي بحـي الختميـة أذكـر عبدالـرضي عبدالغنـي – أحمـد أبعاقلـة أبوسـن وهاشـم خليـل وأخيـه محمـد.

ولكـن الحقيقـة التـي يجـب أن تذكـر أن نشـاط النـادي الريـاضي توقـف لفـترة مـن الزمـن في العـام 1942م إثـر هزيمـة كبـيرة لحقـت بالفريـق وبعـدد كبـير مـن الأهـداف أحرزهـا لاعبـو منافسـه وعـدوه اللـدود فريـق التـاكا.. وقـد اسـتمرت هـذه الفـترة لمـدة عـشر سـنوات تقريبـاً وكانـت دار النـادي في معظـم الفـترات مغلقـة وكنـا نسـمع بنشـاط ثقـافي محـدود وبعـض المسرحيـات التـي تُعـرض فيـه مـن وقـت لآخـر.

ولمـا ظهـرت فـرق الأشـبال في كسـلا في العـام 1959م، رأينـا ونحـن مجموعـة مـن الشـباب في حـي الختميـة أن نكـون فريقـاً ونطلـق عليـه (أشـبال توتيـل) وعرضنـا الفكـرة عـلى كبارنـا الذيـن تحمسـوا للفكـرة وسـمحوا لنـا بفتـح الـدار، وأذكـر منهـم : محمـد باتـرة وبابكـر سـعد وأحمـد أبوعاقلـة وعبدالـرضي عبدالغنـي وعمـر إدريـس تيتـه وعمـر جعفـر الحلنقـي وغيرهـم.

وبـدأ الفريـق في ممارسـة نشـاطه بإقامـة سلسـلة مـن المباريـات في كسـلا والختميـة مـع أشـبال الميرغنـي والتـاكا والأهـلي، وكان لـكل فريـق مـن الأشـبال مـشرف ومـدرب، أذكـر مـن التـاكا اللاعـب الكبـير عـلي صديـق، ومـن الأهـلي عـلي أبوقلـب، ومـن توتيـل عبدالسـيد عبداللـه بطـران الـذي بـذل جهـوداً كبـيرة في تنظيـم فريـق الأشـبال بخبرتـه وإدارتـه وقيادتـه للفريـق، وللحـق أقـول إنـه وراء تسـجيل فريـق الأشـبال في الدرجـة الثانيـة التـي سـمح الإتحـاد المحـلي لكـرة القـدم بتكويـن فرقهـا في العـام 1960م، وتـم تسـجيل فريـق توتيـل الريـاضي العـام 1960م، وكان هـذا هـو البعـث الثـاني للفريـق منـذ العـام 1960م – وأذكـر مـن الأشـبال في ذلـك الوقـت، والذيـن كانـوا وراء هـذه الفكـرة: سـعد عبدالسـخي – فـرح خريـف – بخيـت الضـو – محجـوب أحمـد أوشـيخ – عبدالغنـي خريـف – همـد حـاج عثمان – محجـوب عثمان مختـار – إسـماعيل بخيـت – وشـخصي الضعيـف، وانضـم للفريق بعـد تسـجيله العـام 1960م عيـسى عـلي الحـلال وجنـدي كلفـي وأبوبكـر محمـد إبراهيـم الـذي بـدأ نشـاطه مـع أشـبال الميرغنـي وأحمـد سـليمان الخـير وأواتيـب وعـلي الأمـين وإدريـس أوشـيخ وحسـن شـيا ومصطفـى شـاويش لبعـض الوقـت ثـم انتقـل للميرغنـي، وعبدالعزيـز هـلال ومحجـوب همبـلي وأحمـد حـاج إبراهيـم وجامـع وهاشـم أنـور وحسـين سـيد (حسـين قـلي)، وحـراس مرمـى: عبداللـه نـاصر (ود الكابـوي) وفيصـل عمـر المتعـارض وتوالـت انتصـارات الفريـق منـذ ذلـك التاريـخ، حيـث حصـل الفريـق عـلى عـدة بطـولات منهـا: كأس الاتحـاد وكأس بطولـة الـدوري التـي أدت إلى صعـود الفريـق للدرجـة الأولى في مايـو 1963م.

توالـت عـلى الفريـق عـدد مـن الإدارات المخلصـة الأمينـة منـذ ظهـور الفريـق للمـرة الثانيـة العـام 1959م، انتخـب محمـد باتـرة رئيسـاً للنـادي – وفي كل الـدورات واجتماعـات الجمعيـة العموميـة – منـذ ظهـور النـادي وحتـى قبـل وفاتـه – يرحمـه اللـه – بقليـل، وكان قـد أصبـح رئيسـاً فخريـاً للنـادي لجهـوده الكبـيرة وإخلاصـه وتفنيـة في خدمـة وتقـدم الفريـق، عمـل كل مـا في وسـعه ليتبـوأ هـذا الفريـق مكانـة عظيمـة، وكان لـه مـا اراد، حيـث صعـد الفريـق للدرجـة الأولى، وأصبـح فريـق توتيـل مـن الفـرق ذات الشـهرة التـي يشـار إليهـا بالبنـان في كسـلا. كـما أذكـر عـدد مـن السـكرتيرين مثـل عمـر إدريـس وتيتـة ومحمـد خليـل إبراهيـم في هـذا المنصـب ومنصـب نائـب الرئيـس وأذكـر أحمـد بطـران ومحجـوب أحمـد مـوسى وهاشـم الحسـن وعبدالسـيد عبداللـه بطـران كأول سـكرتير للنـادي

العـام 1959-1960م وحمـل الرايـة مـن بعـد ذلـك مجموعـة مـن الشـباب المخلصـين مـن أمثـال العميـد فيصـل العمـدة وأحمـد زروق وحمـري وعبداللـه حسـين العراقـي وحسـن عمـر الحسـن وحسـن هاشـم وحسـن أحمـد فـكي آدم إلى زمـن عصـام عمـر وفـكي عبداللـه عـلي وسـيحمل الرايـة الشـباب الواعـد إلى أن يـرث اللـه الأرض ومـن عليهـا. وظهـرت في كسـلا فـرق أخـرى عديـدة منـذ مطلـع الخمسـينيات وإلى نهايتهـا مثـل فـرق الهـلال والنيـل والمـوردة (القـاش) والمريـخ، ثـم ظهـر الفـلاح في خـلال فـترة السـتينيات. ظهـر في هـذه الفرق عـدد كبـير مـن اللاعبـين المهـرة، فـكان فريقـا الهـلال والنيـل قـد امتـازا بعـدد مـن اللاعبـين الممتازيـن مـن أمثـال حميـدة عبدالـرازق قبـل انتقالـه للتـاكا وعمـر أحمـد بـري وبابكـر الحـاج عبدالحفيـظ، وكان فريـق النيـل يضـم عـدداً كبـيراً مـن الطـلاب مـن ذوي المواهـب والمهـارات العاليـة، وأذكـر أن مؤسـس فريـق النيـل عبداللـه جلبـه رجـل الأعـمال المعـروف. أمـا فريـق المريـخ فأذكـر مـن أشـهر لاعبيـه حسـون وعبدالوهـاب، كـما ضـم فريـق المـوردة عـدداً مـن اللاعبـين الممتازيـن مـن أمثـال لونـدي وعبداللـه صديـق وابوالقاسـم أحمـد البشـير، كـما اشـتهر عـن الأهـلي وجـود عـدد مـن اللاعبـين اللامعـين مـن أمثـال عـلي أب قلـب وحسـن وكبـاشي وبالطبـع اللاعـب الفـذ (كسـلا).

وامتـازت منطقـة القـاش (أرومـا ووقـر) بعـدد مـن الفـرق المشـهورة، والوفـرة في عـدد المميزيـن في المنطقـة، ومـن أشـهر تلـك الفـرق : التحريـر والإخـلاص والنهضـة في أرومـا، والأهـلي في وقـر. ومـن أشـهر لاعبـي التحريـر أذكـر اللاعـب الفنـان سـعد عبدالسـخي (كسـار) وأحمـد آدم وحسـن بخيـت والسـنجك وبـشرى، ومـن الإخـلاص عمـر عبدالرحيـم وفتحـي مخـرز. ومـن الأهـلي وقـر بـرز عـدد مـن النجـوم منهـم محمـد عثـمان أبوزينـب وعبدالوهـاب كمبـال وعـلي أوهـاج وشـوقي وكـمال كيلـة وكيـداني (حـارس المرمـى الأثيـوبي) وحسـين شـنقراي ومـن النهضـة حـارس المرمـى زمـر.

وقـد بذلـت إدارات الاتحـاد المحـلي لكـرة القـدم منـذ تأسيسـها، ومـا زالـت تبـذل حتـى الوقـت الحـاضر جهـوداً عظيمـة في سـبيل تطويـر الرياضـة وترقيـة مرافقهـا المختلفـة، فلابـد أن يشـير المـرء بـكل معـاني الوفـاء إلى جهـود محمـد كـرار النـور وعبدالعزيـز محمـد صـادق وكامـل الحـاج وعـلى الهـداب وحسـن الماحـي وعثـمان السـمحوني وزملائهـم، ونأمـل كثـيراً أن تتطـور الرياضـة في كسـلا بصـورة أوسـع وأشـمل، وأن يـزداد عـدد فـرق كسـلا في الـدوري الممتـاز، والتـماس رجـاء لحكومـة الولايـة وهـو أن تتعهـد الرياضـة بكسـلا، وأن تدعـم الفـرق

في كل درجاتها، وأن تتبنى فكرة الأشبال والمراحل السنية، وأن تخص الشباب وتوتيل بالرعاية وهما من أندية الحركة الوطنية التي بذلوا فيها الغالي والنفيس ومن بناة النهضة الأدبية والثقافية، وقام الفريقان بدور طليعي بارز في شتى نواحي الحياة، ونتمنى لفريق التاكا التوفيق والعودة إلى مكانه الطبيعي في الدوري الممتاز.

والخلاصة هذه هي كسلا – خلاصة لتاريخ منطقة تمتد حضارتها لأكثر من ستة آلاف سنة، تاريخ طويل وأصيل لمدينة عريقة حافلة بالبذل والعطاء والوفاء، وتعكس معاني الصفاء والنقاء والتسامح والمثل والقيم والآداب الرفيعة، وتصور التمازج الفريد، وتجسد معاني الحضارة الإنساني. وكسلا معنى أصيل وعظيم يحكي عظمة البناء والإنجاز والطموح، ويمثل العزة والشموخ.

فلتنعم كسلا بالعناية والرعاية من أجل بناء اليوم والغد والمستقبل. ونأمل أن نرى – إن شاء الله – وقد ازدهر التعليم وانتشر وعم القرى والحضر – فبالتعليم نستطيع أن نحطم جدار الجهل والفقر والمرض. والواقع ينبئ بتأهيل مشروع القاش وتنفيذ خزان ستيت ومشروع أبوعلقة، وتتوافر المراعي الخضراء وتربية المواشي ويزداد الإنتاج الحيواني – في القاش وهمشكوريب وخشم القرب وحلفا الجديدة. وتكتمل البهجة ويعم السرور باكتمال شبكة الطرق الداخلي والخارجية مثل طريق القاش الزراعي – وقر – كسلا – وطريق همشكوريب- وطريق ود شريفي – قلسا وطريق حمداييت إلى أثيوبيا. وفي نهاية المطاف تزدهر الحياة بالتسامح والمحبة والوئام ويسود الأمن والسلام في كل أرجاء شرقنا الحبيب الذي يذخر بكل الخصائص الأخلاقية والإنسانية والحضارية.

وليسمح لي القارئ الكريم أن أختم موضوع (كسلا التاريخ والحضارة) ببعض أبيات من قصيدة عصماء نظمتها الأستاذة الشاعرة التشكيلية آمنة عوض برهان لبلاغتها وعذوبتها ودقة معانيها وحلاوة تعبيرها:

سنين فيك يا كسلا نضار

كأني في حلم توارى

أهيم مع النجوم على ضفاف

له ترد الأحبة والعذارى

ضفاف القاش والأيام تترى

علينا في أطياف حيارى
أليك الشوق يا كسلا سيبقى
كما بقيت على الوتر الأغاني
تعانقنا السماء ونحن نمضي
مع الأيام في حلو الأماني
فيا كسلا عشقتك من جناني
أرى فيك الحضارة استمدت
من العلم النفائس والغوالي
أطل عليك نور من جمالي
فنضر فيك أيامي الخوالي
سلام الله يا كسلا عليك
سلام القلب تاه مع الليالي

آمل ان يكون هذا البحث سجلاً حافلاً ومثيراً لنشاط الباحثين والدارسين لتتبع مظاهر الحيوية والنشاط في مدينة كسلا العظيمة. وقد ركزت قدر المستطاع على التنويه بحيوية ونشاط أبنائها في الحياة العامة عبر تاريخ المدينة الفاضلة والباسلة الحافلة بالبذل والعطاء، وذلك منذ ظهور هذه المدينة ونشأتها وتطور الحياة فيها، وازدهار نهضتها ورقيها وعلو شأنها، إلى جانب استقصاء الحقائق التاريخية التي توخيت فيها الدقة وعدم المغالاة (إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني).

قال الله تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾

وفي قوله تعالى: (وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها...) وليمجد أبناء كسلا المدينة الخالدة بالقول: (يا أيتها الشمس الغاربة لا تغربي حتى تشهدي أن حبنا لكسلا سيظل خالداً كخلودك، وأنت تغربين وحبنا لكسلا الخالدة لا يغرب).

الملاحق

ملحق رقم (1)

سلسلة نسب السيد
محمد عثمان الميرغني الختم

محمد عثمان بن السيد أبي بكر بن مولانا السيد عبدالله الميرغني المحجوب بن السيد إبراهيم بن السيد حسن بن السيد محمد أمين بن السيد علي ميرغني بن حسن بن السيد ميرخورد إبن السيد حيدر بن السيد حسن بن السيد عبدالله بن السيد علي بن السيد حسن ابن السيد حيدر بن السيد ميرخورد بن السيد حسن بن السيد أحمد بن السيد علي بن السيد إبراهيم ابن السيد يحيى بن السيد حسن بن السيد بكر بن السيد علي بن السيد محمد ابن السيد إسماعيل بن السيد ميرخورد البخاري بن السيد عمر بن السيد علي بن السيد عثمان بن السيد علي المتقي ابن السيد الحسن الخالص بن السيد علي الهادي بن السيد محمد الجواد بن السيد علي الرضا بن السيد موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق ابن السيد محمد الباقر بن السيد زين العابدين بن السيد الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن الزهراء البتول.

ملحق رقم (2)

الخليفة سيد أحمد العراقي

من خلفاء الطريقة الختمية، منذ كان في منطقة نوري – مركز مروي – بالمديرية الشمالية، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي – حيث نشأ وترعرع، وعمل مع والده الخليفة محمد عثمان في خدمة هذه الطريقة في مناطق الشمالية كلها وفي شرقي السودان بمناطق سنكات وما حولها، اعتقل الأتراك والده الخليفة محمد عثمان العراقي مع عدد كبير من رجال الدين في تلك المناطق لاعتراضهم على سياسة الأتراك التي ابتعدت عن الإسلام، وانتقدوا السياسة المالية وفرض الضرائب التي لا يقرها الشرع الإسلامي – فاستقرار النظام المالي وعدالته في دولة ما هو الركيزة الأساسية التي تساعد على استقرار الحكم في تلك الدولة.

ومعظم الثورات الإسلامية كان السبب فيها هو سوء النظام المالي وبخاصة فرض الضرائب غير العادلة التي تفرض على أساس غير إسلامي وبغير وجه حق، هذا إلى جانب تسلط الحكام وطغيانهم.

لذلك ثار هذا العدد الكبير من رجال الدين في شرق السودان وشماله على الضرائب التي يفرضها الأتراك وانتقدوها نقداً حاداً – وكانوا يرون بأن تلك الضرائب مثلها كمثل الجزية في الإسلام يجب ألا تؤخذ من المسلمين، كما يجب أن تكتفي الدولة بالزكاة فقط. فكانت هذه الثورة المالية الدينية على الحكومة التركية سبباً لنفي هذا العدد الكبير إلى مصوع ومنهم الخليفة محمد عثمان العراقي – كما أجمع مؤرخو تلك الفترة على ذلك.

لما عاد الخليفة محمد عثمان من منفاه استمر في دعوته حتى وافته المنية في مركز مروي حيث دفن في نوري – خلف الخليفة سيد أحمد العراقي والده بعد وفاته مشرفاً وخليفة للطريقة الختمية في شمال السودان ردحاً من الزمن، وكانت زوجته الأولى في نوري هي نفيسة بنت الصهيب التي أنجبت له الخليفة عثمان وأخته فاطمة، وعندما طلب منه السيد أحمد الميرغني وأخوه السيد علي الميرغني الحضور إلى كسلا وصل وهو في الطريق إلى كسلا إلى مدينة شندي لترتيب بعض الأمور المتعلقة بالطريقة الختمية، وهناك تزوج النعمة بنت محمد أحمد ابنة خال أمنا الشول زوجة السيد أحمد الميرغني ووالدة السيد محمد عثمان والسيد الحسن والشريفة السيدة

فاطمة الميرغنية، وأنجبت له زوجته النعمة آمنة وتوفيت أثناء وضوعها، لذلك عندما وصل إلى كسلا العام 1917م لينضم مع سلك الخلفاء والشيوخ خدمة للدين وإرساء قواعد الإسلام مع الآخرين في بلاد الشرق... عوّضه السيد أحمد الميرغني واحدة من بنات الأسرة وهي مدينة عثمان محمد خير الفضل وهي ابنة خال النعمة ووالدتها رقية بنت جدي شقيقة المناضل بشير عبدالرحمن التي تصل بنسبها إلى السيدة رقية بنت جلاب زوجة الأستاذ الختم ووالدة السيد الحسن الميرغني (أبوجلابية)، وأنجبت مدينة من الخليفة سيد أحمد أبناءه: محمد الحسن وحسين وخديجة ومحمد وكمال والسر وبابكر.... (وتوفي كمال وهو صغير السن قبل مولد أخيه السر ببضع سنوات ولا يعرف أهل كسلا عنه شيئاً).

وعثمان محمد خير الفضل هو ابن خالة أمنا الشول بنت المأمون زوجة السيد أحمد الميرغني ووالدة كل من السيد محمد عثمان الميرغني والشريفة فاطمة والسيد الحسن الميرغني – طيب الله ثراهم – وهي شقيقة الشيخ المأمون وأخيه محمد خير المأمون، كما أن عثمان محمد خير الفضل هو شقيق أمنا ستنا إحدى زوجات السيد الحسن الكبير (أبوجلابية)، وآباؤه من شيوخ شندي وقندتو المشهورين بنفوذهم وسلطانهم في تلك الجهات.

أما الخليفة سيد أحمد، فهو ابن الخليفة محمد عثمان الذي سبقت الإشارة إليه وجده لأبيه الخليفة محمد خير الذي كان أول خلفاء الطريقة الختمية في زمن الأستاذ الختم – كما أن جده (السابع) هو أبوالقاسم ابن عوض الكريم بن حمد الذي يلقبه الدناقلة بلقب كندمر في بلادهم ومعناها السيف القاطع – وهو أول من دخل السودان من أسرة آل العراقي قادماً من مصر – وهو صاحب ألفية ابن مالك المشهورة التي تشير الكتب لصاحبها باسم العراقي، وأبوالقاسم هو حفيد الإمام موسى الكاظم ابن الأئمة جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً (دفن في تنقسي)، وقد أشار عدد كبير من المؤرخين لهذا النسب منهم محمد عبدالرحيم وماك مايكل وصاحب كتاب ((الأشراف في السودان)) والبروفيسور عون الشريف في كتابه: ((موسوعة القبائل والأنساب في السودان)) (الجزء الرابع).

استمر الخليفة سيد أحمد، حيث أصبح أحد الخلفاء البارزين ونشط مع آخرين

في نـشر الدعـوة ابتغـاء مرضـاة اللـه وحسـن الثـواب لدرجـة أن منحـه السـيدان: السـيد أحمـد الميرغنـي والسـيد عـلي الميرغنـي لقـب خليفـة الخلفـاء وهـو أول مـن حمـل هـذا اللقـب ((خليفـة الخلفـاء)) وهـو لقـب نـادراً مـا يمنحـه المراغنـة... وقـد أجلسـه السـيد أحمـد الميرغنـي عـلى كـرسي وثـير وألبسـه العمامـة، تـوفي العـام 1946م في حـي الختميـة ودفـن بهـا.

ملحق رقم (3)

أمدنـا الأخ العزيـز عمـر أحمـد بـري بمعلومـات قيِّمـة ومفيـدة للقـارئ عـن رواد ورائـدات في مجـالات عامـة كثـيرة، وإن كان معظـم هـؤلاء وأولئـك مـن حـي الختميـة، إلا أننـي أحـاول إضافـة آخريـن مـن مدينـة كسـلا – حسـب مـا تسـعف بـه الذاكـرة، والمجـال مفتـوح للجميـع للإضافـة في طبعـات قادمـة إن شـاء اللـه – وجـزاه اللـه كل خـير – الأخ عمـر بـري – ومتعـه اللـه بالصحـة والعافيـة.. فأشـار في وثيقتـه المهمـة مـا نصـه تحـت هـذا العنـوان:

أسماء في زمان ماضي وفي مجالات مختلفة: -

أولاً:- مجال التدريس : أول معلم هو عثمان همبلي.

مجال التدريس: أول معلمة هي اسمها قدم الخير نافع.

ثانياً:- مجال الصحة : أول ممرض ووصل لمساعد طبي هو خضر محمد الأمين.

مجال الصحة: أول ممرضة هي اسمها زينب خليل (زنوبة).

ثالثاً:- أول قابلة (داية) اسمها أم البتول القوازية.

رابعـاً:- مجـال الرياضـة : أول لاعـب كـرة اسـمه عمـر الجـاك، كان مـن دائـرة الشريفـة نـور. وفي نفـس الزمـان كان كـرار محمـد أحمـد وحسـن عبدالقـادر ومحمـد الحسـن عـروة، وعبداللـه الحسـن الخـضر ومحمـد الحسـن عراقـي وعبدالعزيـز عطـا المنـان وآخـرون.. (بالطبـع هنـاك الكثـير في كسـلا منـذ العـام 1928م) انظـر ملحـق رقـم (4) (وثيقـة نـادي الميرغنـي الريـاضي)، وكتـاب نـادي التـاكا الـذي صـدر العـام 1991م – مركـز المعلومـات والدراسـات الاقتصاديـة والفنيـة (اليوبيـل الذهبـي – ديسـمبر 1991م).

خامساً:- مجـال الفـن والغنـاء: أول مـن عـزف آلـة العـود اسـمه رابـح جـاد الـرب ثـم عـلي حميـدان ومحمـد عبدالعظيـم وأول حفلـة فيهـا فنانـون وعـود وكـمان كانـت في زواج عثـمان الحسـن محمـد نـور.

سادساً:- الغناء الشعبي أول من تغنى به هو سليمان عبدالله (غناء الحقيبة) وكان الشيالون معه علي دقنة وعثمان يماني وكرار إدريس.

سابعاً:- أول أفندي من أبناء الختمية هو عثمان مختار وعثمان الحسن وسليمان فكي آدم ومختار عبدالله محمد صالح. وكان عثمان مختار يلبس طربوش أحمر. وبالطبع في كسلا كان موظفون سبقوا هؤلاء منهم آل الباشكاتب وآل المرضي جبارة، وأبورقّاس وعثمان كيلا وعباس الفكي وآل فرج مالك وغيرهم كُثر.

ثامناً:- أول مدرسة للبنات أسسها السيد محمد عثمان الميرغني وكانت في منزل رجل اسمه طيفور، (مكانها الآن الجامع الكبير بجوار مقابر الختمية)، وجلب إليها معلمات من بنات القضارف هن زينب محمد نور وعازة الأمين وعلوية وكان هذا في الأربعينيات.

تاسعاً:- أول مدرسة للأولاد هي مدرسة الختمية الأولية وهي ما زالت في مكانها الحالي، ودرس فيها كل الأجيال، وكان أبناء الختمية قبل تأسيس هذه المدرسة يدرسون المرحلة الأولية في المدرسة الأميرية الأولية بكسلا. (ربما تغيرت معالم مدرسة الختمية الأولية بعض الشيء الآن، ولكنها ما زالت في مكانها)، مدرسة عريقة ورائدة كما أشار الأخ عمر بري أنها خرجت معظم الأجيال.

عاشراً:- هناك أسماء لم يسمع بها أو يعرفها أبناء الجيل الحالي، تمتعن بسرعة البداهة وروح الفكاهة والنكتة والقفشات الرائعة والبعض الآخر تميزن بالحزم والشدة، مثل:

بنت شموم وبنت الدهب وأم جاهين والرحمليها والرهين ضلو ومن قاسوا وأم النفايل والسرف وقمر النسا وجواهر وكنز الغالي وشمس الوجود ودخري الزمان وبيت الأمان ودرب الضهبان والبفيد رايو – والأخيرة كانت شلاخة تشلخ الأولاد والبنات. وهناك أيضاً نور الشبك ودار أم زين ونعمة الزارو وأم قمرين وكوشي وتاي الله والفرج وبنت أم بكول ومجودة.

الحادي عشر:- أول سائقي عربات هم ود نوري وسليمان الخير وجعفر حلنقي وعبود البشير وجودة من القوازة.

الثاني عشر:- في المجالات الاجتماعية والسياسية كان محمد الأمين الفكي آدم رجلاً سياسياً واجتماعياً وكان صاحب شخصية قوية، وجاء من بعده في هذا المجال السياسي

والاجتماعي شقيقه أحمد الفكي آدم وعبدالرضي عبدالغني وحسن حاج آغا ومحمد الحسن عراقي ومحمد الحسن عروة، وكانوا من زعماء الحزب الوطني الاتحادي في ذلك الوقت في الختمية، وأضيف له عدداً من أبناء كسلا في الحركة الوطنية على رأسهم محمد جبارة العوض وإبراهيم أحمد السيد والطيب الدويحي وآل فقيري عبدالله وعثمان أحمد الشايقي والكثير وكثيرين.

وفي المجالات نفسها أشار الأخ عمر بري إلى عبدالرحمن مصطفى في المجال الاجتماعي خاصة، كان أول رئيس للمجلس البلدي بكسلا، وحتى الآن تحمل قاعة المجلس اسم عبدالرحمن مصطفى تخليداً لذكراه، وأضيف له من أبناء كسلا محمد الحسن فقيري، فقد تقاسما معاً هذه الأمانة والمسؤولية التاريخية.

وأرجو أن أضيف، هذه المعلومة قد تكون فاتت على الأخ عمر بري، وهي تتعلق بمصطلح ظهر في تلك الفترة المبكرة وهو ما عرف باسم (المواليد)، وهي مجموعة من النساء يتمتعن بالهيبة والمكانة والكلمة المسموعة، أذكر منهن قمر النساء وجواهر والسرف وأمونة بنت فضل السيد يضاف إليهن دخرينا ورب يجود، فكن كثيراً ما يقمن بإصلاح ذات البين ورفض الخلافات والمشاكل التي كانت تطرأ بين الأسر في جوانب معينة من وقتٍ لآخر، وكانت تأتي الإشارة من السادة المراغنة لهؤلاء الحكيمات للقيام بدورهن في هذا المجال، وكثيراً ما نجحن في حل المشاكل بكل حكمة وهدوء.

متع الله الأخ عمر بري بالصحة لاهتمامه ومتابعته الدقيقة لحلقات (كسلا التاريخ والحضارة).

ملحق رقم (4)

شذرات من تاريخ نادي الميرغني الرياضي

بداية لابد أن نشير إلى أن المرجع التاريخي في توثيق تاريخ نادي الميرغني هو العم عثمان إبراهيم شيخه رحمه الله، الذي كان سكرتيراً لنادي الميرغني الرياضي منذ العام 1938م وحتى العام 1948م، ونحمد له أنه أول من أرخ وسجل في مكتوبات مكتوبة بخط يده لتاريخ الأندي الرياضية بالسودان.

تأسيس نادي الميرغني الرياضي:

تأسس نادي الميرغني الرياضي بمدينة كسلا العام 1928م كأول نادٍ رياضي بمدينة كسلا، وبذلك يعتبر نادي الميرغني هو مؤسس وأبو الحركة الرياضية بمدينة كسلا بصفة خاصة ومن المؤسسين الأوائل للحركة الرياضية بالسودان بصفة عامة. تأسس نادي الميرغني الرياضي عل يد مولانا السيد محمد عثمان الميرغني وهو رجل رياضي مطبوع مارس كرة القدم بفريق الميرغني كحارس مرمى وجناح ومارس لعبة التنس الأرضي في زمن كانت تعتبر فيه الرياضة مجرد لهو وعبث، وقد تعرف على لعبة كرة القدم حينما كان في الدراسة بإنجلترا. وقد احتل نادي الميرغني الرياضي منذ ذلك الوقت مساحة كبيرة في الخارطة الاجتماعية والرياضية والسياسية والثقافية بمدينة كسلا.

الاعتماد والتسجيل بالاتحاد السوداني لكرة القدم بالخرطوم:

لقد تم اعتماد وتسجيل نادي الميرغني الرياضي بالاتحاد السوداني لكرة القدم بالخرطوم في مايو 1938م، بعد أن أكمل كل الجوانب القانونية لذلك من قبل جمعية عمومية وتم تسجيل اللاعبين في الأرانيك التي أعدت لذلك.

للحقيقة والتاريخ نقول إن اعتماد وتسجيل نادي الميرغني الرياضي في العام 1938م بالاتحاد السوداني لكرة القدم تم برأي وفكر ة من الرياضي المطبوع محمد طلعت فريد حينما نقل إلى فرقة القيادة العسكرية بكسلا وكان حينذاك برتبة ملازم ثاني، ووجد حينها فريق الميرغني وحده بالمدينة ومنقسم إلى خمسة فرق بأحياء المدينة وكلها تحمل اسم الميرغني. فكان أن اتصل بلجنة نادي الميرغني في ذلك الوقت، وأوضح أنه وحتى يتطور المستوى والعمل الرياضي في مجال كرة القدم بالمدينة لابد من وجود أكثر من فريق رياضي وتحمل أسماءً مختلفة حتى يشتد التنافس بينها

وبذلـك يتـم التطـور، وفعـلاً وافقـت لجنـة النـادي عـلى الأمـر بعـد موافقـة السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي راعـي ومؤسـس النـادي.

وكان أن تـم تقسـيم فريـق الميرغنـي إلى فريقـين أحدهـما حمـل اسـم الميرغنـي والثـاني حمـل اسـم الشـباب وذلـك في العـام 1938م كـما أوضحنـا مـن قبـل، وكانـت تلـك البدايـة الحقيقيـة لنهضـة كـرة القـدم بكسـلا.

رؤساء نادي الميرغني الرياضي منذ تأسيسه في العام 1928م وحتى العام 2006م:

أود أولاً أن أعتـذر مسـبقاً لبعـض الإخـوة الكـرام الذيـن لـن تسـعفني الذاكـرة بذكـر أسـمائهم، والرؤسـاء هـم:

- السيد محمد عثمان الميرغني
- الخليفة عبدالرحمن مصطفى
- الصول محمد أفندي أمين
- حامد أحمد الحاج الرباطابي
- حسن الخليفة طه
- عثمان إبراهيم شيخة
- عثمان إبراهيم شيخة
- عثمان أحمد سمهن
- التوم مختار الخليفة
- عطا محمد سليمان ((سنجر))
- علي تاج السر
- الخليفة متولي أبو النجا
- التهامي مدني
- بابكر أحمد جعفر
- علي تاج السر
- بابكر أحمد جعفر
- حيدر حسين علي
- عثمان محمد بركات
- الزين جماع

- بابكر أحمد جعفر
- السيد أحمد محمد عثمان الميرغني
- أحمد طه محمد الحسن رحمة
- عثمان عبدالله السمحوني
- علي الهداب علي
- علي إبراهيم يونس
- العميد صلاح سيد أحمد
- العميد يونس محمود

سكرتيرو نادي الميرغني الرياضي منذ بدأ تأسيسه العام 1928م وحتى العام 2006م:

أود أولاً أن أعتذر مسبقاً لبعض الإخوة الكرام الذين لن ستعفني الذاكرة بذكر أسمائهم، والسكرتيرون هم:

- عثمان علي النميري
- يوسف أفندي دوكة
- إبراهيم فرج ملة
- طه محمد الحسن رحمة
- إبراهيم فرج ملة
- إبراهيم فرج ملة
- الأستاذ التوم مختار الخليفة
- التوم الحسن
- جلال عبدالمجيد
- محمود عبدالحليم
- عبدالباسط بمبري
- محجوب محمد النميري
- عبدالمنعم حسن يوسف
- إبراهيم الطاهر الزبير
- علي مكرب
- علي محمد خور عوج

- عمر عبدالحفيظ
- علي الهداب علي
- جعفر محمد أحمد
- مدني محمد مدني
- محجوب عبدالسلام
- محمود شنقراي
- أحمد محمد حسين
- عبدالماجد عبدالسلام
- ميرغني فقيري
- عبيد عبدالرسول
- سعيد وداعة الله
- علي عمارة
- صديق حامد علي
- الفاتح بيرق
- علي عطا
- توفيق محمد علي
- حسن عبدالرحمن مصطفى

بطولات وإنجازات نادي الميرغني الرياضي:

1- بطولة الدوري المحلي بمدينة كسلا:

أحرز نادي الميرغني بطولة الدوري المحلي لمدينة كسلا منذ العام 1945م وحتى العام 1996م ثمانية وعشرين مرة تفاصيلها كالآتي:-

- الموسم 1945-1946م
- الموسم 1947- 1948م
- الموسم 1948-1949م
- الموسم 1950-1951م
- الموسم 1951-1952م
- الموسم 1952-1953م

- الموسم 1953-1954م
- الموسم 1955-1956م
- الموسم 1956-1957م
- الموسم 1957-1958م
- الموسم 1958-1959م
- الموسم 1961-1962م
- الموسم 1962-1963م
- الموسم 1963-1964م
- الموسم 1964-1965م
- الموسم 1965-1966م
- الموسم 1966-1967م
- الموسم 1969-1970م
- الموسم 1971-1972م
- الموسم 1972-1973م
- الموسم 1974-1975م
- الموسم 1980-1981م
- الموسم 1981-1982م
- الموسم 1982-1983م
- الموسم 1986-1987م
- الموسم 1987-1988م
- الموسم 1988-1989م
- الموسم 1992-1993م

من الإحصائيات أعلاه لبطولة الدوري المحلي لمدينة كسلا من الموسم 1945-1946م حتى الموسم 1995-1996م يتضح الآتي:-

- أحرز الميرغني بطولة الدوري خمس بطولات متوالية من موسم 1961-1962م حتى موسم 1965-1966م.
- أحرز ثلاث بطولات متتالية ثلاث مرات وذلك في المواسم التالية:

من موسم 1971-1972م حتى موسم 1974-1975م
من موسم 1980-1981م حتى موسم 1982-1983م
من موسم 1986-1987م حتى موسم 1988-1989م
علماً بأن الدوري المحلي ألغي في المواسم الآتية:-
الموسم 1973-1974م بقرار من عمر صالح عيسى وزير الشباب والرياضة.
(الموسم 1975-1976م/ الموسم 1976-1977م) الرياضة الجماهيرية.

الميرغني وإنجازاته بدوري السودان:-

- وصـل الـدور قبـل النهـائي لـدوري السـودان في موسـم 1968-1969م ولعـب ضمـن مجموعـة بورتسـودان وكان ترتيبـه الخامـس عـلى أنديـة السـودان.
- في موسـم 1981-1982م وصـل الـدور قبـل النهـائي لـدوري السـودان ولعـب في مجموعة مـدني وكان ضمـن المجموعـة الأهـلي مـدني والهـلال وكان ترتيبـه الثامـن عـلى أنديـة السـودان.
- في موسـم 1982-1983م وصـل الـدور قبـل النهـائي لمجموعـة كسـلا، التـي ضمـت الهـلال العاصمـي والنيـل مـدني وجـاء ترتيبـه الخامـس عـلى أندية السـودان.
- في الموسـم 1990-1991م وصـل الـدور قبـل النهـائي ضمـن مجموعـة الخرطـوم بجانبـه المريـخ العاصمـي – المـوردة العاصمـي – الأهـلي مـدني وجـاء ترتيبـه الخامـس عـلى أنديـة السـودان.
-

الميرغني والمباريات الدولية: -

كان للميرغنـي شرف تمثيـل مدينـة كسلا في العديـد مـن اللقـاءات الدوليـة وكان أولهـا بمدينـة أسـمرا عاصمـة أريتريـا العـام 1968م، حيـث تبـارى مـع فـرق القمـة هنـاك تـلي دحماسـين وأحـرز مرتبـة مشرفـة.

كـما لعـب ضـد الإكسـبرس اليوغنـدي في موسـم 1982-1983م وقـدم مبـاراة مازالـت عالقـة بالأذهـان، لعـب في نفـس الموسـم ضـد القادسـية السـعودي إبـان زيارتـه للسـودان وقـدم مبـاراة رائعـة.

كـما لعـب الميرغنـي العـام 1993م بأسـمرا في دورة الصداقـة التـي ضمـت الميرغنـي كسـلا – هـلال بورتسـودان – الأهـلي صنعـاء وعدوليـس الأريـتري.

ومـن أبـرز اللاعبـين في تاريـخ الميرغنـي منـذ تأسيسـه العـام 1928م وحتـى الآن الآتيـة أسـماؤهم:-

- محمود حسين صعايدي
- عبدالمطلب محمود (حارس مرمي)
- أوشيك عبدالقادر محمد
- موسى محجوب عيسى
- سعيد آدم إسماعيل
- إدريس آدم إبراهيم
- أحمد عيسى بلال
- علي إسماعيل شاويش
- محمد إسماعيل شاويش
- هاشم سعد
- عبدالله علي بحر
- إسماعيل خالد دهبة
- جمعة أحمد سليم
- أحمد محمد آدم (أبوعرش)
- علاء الدين عامر (شوقي)
- عبدالرحمن النذير
- إدريس أحمد إدريس (حارس مرمى)
- أحمد عثمان برمودة
- يحيى محمد السيمت
- عثمان القناص
- عثمان عيسى بلال
- أمين الباهي
- محمد طاهر حمد علي (هلي هلي)
- حسن الذكر
- عبدالعزيز عبدالله بطران

- حسن الماحي
- حسين عبدالغني (جربوع)
- علي حاج الطاهر
- أحمد إبراهيم (القاتل)
- محجوب محمد أحمد (جمجوم)
- حمد النيل محمد علي
- الأستاذ صالح (الساحر)
- محمود داموك (حارس مرمى)
- عباس إسماعيل شاويش
- محمد بشير (قيلة)
- محمد أحمد أبوالدهب
- حسين إدريس
- آدم مختار
- صلاح نورالدين (حارس مرمى)
- محمد شيخة
- أحمد محمد حسين
- أبوبكر محمد إبراهيم (كركر)
- عمر بين (الزلزال)
- استابرد جورج (الخواجة)
- فتحي محمد أحمد (الديزل)
- محمد حاج عثمان
- محمد علي السيمت (المحينة)
- مصطفى إسماعيل شاويش
- بشير عبدالباقي
- آدم حسين
- كمال عثمان أحمد
- بشرى الحاج

- عزالدين يس عباس
- فارق ياسين (رامون)
- حامد بابكر عوض البشير
- قمر شنقراي
- السر بدوي (حارس مرمى)
- إدريس فرنكة
- أحمد مصطفى الكلس
- عصام سر الختم كرار (حارس مرمى)
- النور بلال
- عباس عبدالرحمن (الأنصاري)
- عوض داؤد
- عادل بابكر أحمد جعفر (العمدة)
- عبدالله مزمل
- عمر علي أزرق
- هاشم أحمد حترة
- نزار محمد الخليفة (أركي)
- حسن عبدالله أحمد
- كمال مصطفى قسم الباري
- عبدالمنعم (الحنين)
- محمد مهدي قسم الباري (حمودة)
- إبراهيم حاج أحمد (الجياش)
- صلاح حسين (ديجانق)
- السر حاج عثمان
- مصطفى عبدالقادر
- إدريس محمود متر
- علي إبراهيم يونس
- محمد إبراهيم (أبوكرنك)

- بكري فرح
- معاوية قسم السيد
- عبدالرحمن جني
- محمد عواتيب
- حامد بابكر (الغرباوي)
- إبراهيم أحمد الشريف
- عمر عيسى (كلو)
- عبدالله عبدالله مليم (نيني)
- حسين عبدالله مروي
- يوسف عبدالله مروي
- فتحي محمد الطيب
- عبدالعظيم (الدش)
- صديق النور (العجب)
- هاشم كجر
- عماد السر
- عاطف عمر بيزنقي (الأمريكي)
- عبدالمنعم موسى رمضان (كوبالا)
- عمار مرق
- مجاهد أحمد محمد
- خالد الزومة
- مهند الطاهر
- أحمد النور (حارس مرمى)
- صالح نيالا

صعود الميرغني للدوري الممتاز:-

صعد الميرغني للدوري الممتاز في الموسم الثاني له موسم 1996-1997م وهبط منه مُباشرةً ثم صعد مرة أخرى في الموسم 1998-1999م واستمر به حتى الآن.ونرجو له دوام الاستمرارية وتمثيل ولاية كسلا خير تمثيل لأنه أصبح الممثل الوحيد للولاية بعد هبوط التاكا.

ملحوظة:

لم تـشر وثيقـة نـادي الميرغنـي الريـاضي إلى عـدد مـن أعضـاء النـادي المؤسسـين الذيـن كان لهـم دور كبـير في تطويـر وازدهـار هـذا النـادي العريـق، ضحـوا بوقتهـم وجهدهـم، أذكر مـن هـؤلاء عبدالرحمـن أبـو رجلـة (أبـو رجيلـة) كـما يحلـو لجمهـور الكـرة أن يناديـه بـه، وأيضاً حيـدر حبـان، فكلاهـما مـن الأعضـاء البارزيـن، وهـذا مـا قصـدت إليـه - يرحمهـما اللـه رحمـة واسـعة.

ملحق رقم (٥)

الطرق الصوفية

- الطريقـة القادريـة: أسسـها الشـيخ محمـد محيـى الديـن عبدالقـادر بـن أبي صالـح - اقـترن انشـارها في السـودان باسـم تـاج الديـن البهـاري البغـدادي الـذي قـدم إلى السـودان في العـام 1577م. ودخلـت هـذه الطريقـة إلى منطقـة التـاكا عـلى يـد الشـيخ عبداللـه الحلنقـي الـذي ولـد بالتـاكا. ومـن أشـهر العلـماء الذيـن أخـذوا عليـه هـذه الطريقـة الشـيخ عبداللـه أبورايـات الـذي يوجـد لـه مـزار في منطقـة مـكلي بالقـاش، إلا أن هـذه الطريقـة تضـاءل نفوذهـا عنـد قـدوم السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي الختـم إلى كسـلا ومبايعـة الشـيخ يعقـوب صاحـب الزعامـة الدينيـة لـدى الحلنقـة لـه، وأخـذ الطريقـة الختميـة عـلى يديـه.
- الطريقـة التيجانيـة: تأسسـت هـذه الطريقـة عـلى يـد الشـيخ أبـو العبـاس أحمـد بـن محمـد المختـار التجـاني، وقـام أحـد رجـال الفلاتـة في غـرب أفريقيـا ويدعـى عمـر جانبـو أو عمـر الفـوتي أو عمـر تـال - قـام بمجهـود كبـير في نـشر هـذه الطريقـة بـين بعـض قبائـل غـربي أفريقيـا مثـل الفلاتـة والهوسـا. وانحـصر وجـود هـذه الطريقـة في مدينـة كسـلا بـين سـكان غـربي أفريقيـا مـن الهوسـا والفلاتـة الذيـن اسـتقروا بالمدينـة في وقـت مبكـر.
- الطريقـة الختميـة: يرجـع الفضـل في تأسـيس الطريقـة االختميـة إلى السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي (الختـم) الـذي ينحـدر إلى الأشراف مـن آل البيـت أو البيـت النبـوي، واشـتهر المراغنـة بالعلـم والتدريـس والإفتـاء بالحـرم المـكي، وغلـب عليهـا التصـوف وكان السـيد محمـد عثـمان الختـم (المحجـوب) الجـد المبـاشر للسـيد محمـد عثـمان الختـم

عالماً وصوفياً، لـه العديـد مـن المؤلفـات منهـا فرائـض الديـن وواجبـات الإسـلام لعامـة المؤمنـين (كنـوز الحقائـق)، كـما أسـس طريقتـه الميرغنيـة التـي اسـتمد منهـا حفيـده طريقتـه. كـما كان عمـه السـيد محمـد يـس (ياسـين الميرغنـي) عالمـاً وفقيهـاً، حيث درس بالمسـجد الحـرام الحديـث والفقـه، وكان أخـوه السـيد عبداللـه الميرغنـي مفتيـاً في مكـة.

ففـي هـذا المحيـط المشـبع بالعلـم والتصـوف ولـد السـيد محمـد عثـمان الختـم بمكـة في العـام 1208هـ (1793م)، فأجـاد في وقـت مبكـر علـوم العربيـة والفقـه والحديـث والتوحيـد ومصطلـح الحديـث، ومـن ثـم غلـب عليـه النهـج الصـوفي فتطلـع إلى معرفـة أسرار التصـوف فأخـذ الطريقـة النقشـبندية والقادريـة والشـاذلية والجنيديـة والمرغنيـة، وانتهـى بـه الأمـر إلى السـيد أحمـد بـن إدريـس بـن محمـد صاحـب الطريقـة الإدريسـية الشـاذلية بمكـة ولازمـه وأصبـح مـن أخلـص تلاميـذه.

ونسـبةً لأن السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي الختـم كان ألمـع تلاميـذ السـيد أحمـد بـن إدريس[1]وأقواهـم منطقـاً وأكثرهـم قبـولاً انتدبـه لنـشر الطريقـة الإدريسـية، فتوجـه إلى الحبشـة إلى منطقـة يقـال لهـا (بلغـاء) فاتصـل بأهلهـا الجبرتـة فتبعـه عـدد كبـير وأخـذوا عليـه الطريقـة الإدريسـية. ثـم توجـه الختـم إلى السـودان فوصـل إلى بـلاد المحـس ثـم إلى دنقـلا ومنهـا إلى بـلاد الشـايقية (الخليفـة محمـد خـير العراقـي) التـي وجـد بهـا قبـولاً كبـيراً، ومنهـا توجـه صـوب كردفـان في قافلـة كبـيرة مـن أتباعـه. ووصلـت قافلتـه إلى كردفـان في سـبتمبر 1816م ومكـث هنـاك ثـلاث سـنوات، وتـزوج في بـارا بنـت الشـيخ محمـود جـلاب (وهـي السـيدة رقيـة (أو رقيـة) التـي أنجبـت لـه ابنـه السـيد محمـد الحسـن الميرغنـي العـام 1819م (السـيد الحسـن أبوجلابيـة). ثـم توجـه الأسـتاذ الختـم إلى سـنار عاصمـة دولـة الفونـج ومنهـا إلى المتمـة ثـم شـندي ثـم إلى الدامـر، وكان ينـوي الذهـاب إلى بربـر، ولكنـه علـم بحملـة الغـزو الـتركي التـي أرسـلها محمدعـلي باشـا لفتـح السـودان، فعـدل مسـار رحلتـه فتوجـه إلى التـاكا عـبر نهـر عطـبرة فنـزل ببلـدة أم ضبيـع ثـم بلـدة قـوز رجـب. وفي طريقـه كان يدعـو النـاس ويأخـذون عليـه الطريقـة، ثـم انتهـى إلى التـاكا (كسـلا) حيـث التقـى الشـيخ يعقـوب الزعيـم الروحـي لقبيلـة الحلنقـة، فأخـذ عليـه الطريقـة، ثـم أسـس طريقتـه السـنية التـي أخـذت اسـم الختميـة فيـما بعـد، وأصبحـت مركـز الطريقـة الختميـة التـي تقاطـر عليهـا أتباعـه مـن كل أنحـاء السـودان. وكان قـد تـرك خلفـاء ينوبـون عنـه

---

(1) يحيى محمد إبراهيم: مدرسة أحمد بن إدريس وأثرها على السودان.

في كل المناطـق منهـم أول خلفائـه في الشـمالية الخليفـة محمـد خـير بـن الشـيخ محمـد صالـح العراقـي (شـيخ الطريقـة القادريـة هنـاك)، فأصبـح الخليفـة محمـد خـير أول خلفـاء الطريقـة الختميـة، وكان ذلـك عندمـا كان الختـم في رحلتـه الأولى في طريقـه إلى كردفـان العـام 1816م. وكان الأسـتاذ الختـم والخليفـة محمـد خـير العراقـي قـد التقيـا كثـيراً في مكـة قبـل ذلـك. وفي كردفـان كان أول خلفـاء الطريقـة الخليفـة بـادي ود جـلاب (خـال ابنـه السـيد الحسـن أبوجلابيـة – وشـقيق زوجتـه السـيدة رقيـة بنـت جـلاب). وفي كسـلا أصبـح الشـيخ يعقـوب خليفـة للطريقـة في التـاكا (كسـلا).

وبعـد هـذا التنظيـم للطريقـة، قفـل السـيد محمـد عثـمان الختـم راجعـاً إلى مكـة بعـد أن وضـع النـواة الأولى للطريقـة الختميـة بالسـودان. ثـم عـاد الختـم مـرة أخـرى إلى كسـلا عـن طريـق مصـوع وبرفقتـه زوجتـه السـيدة رقيـة وابنـه السـيد الحسـن الميرغنـي، وذلـك لتثبيـت دعائـم الطريقـة، ثـم رجـع إلى الحجـاز ثـم عـاد إلى السـودان في رحلتـه الثانيـة عـن طريـق سـواكن التـي أنشـأ بهـا ثلاثـة مسـاجد ومعهـداً لتعليـم النسـاء كان الأول في السـودان. وكان قـد سـبق أن أنشـأ عـدداً مـن المسـاجد في السـودان في رحلتـه الأولى والثانيـة. ثـم رجـع إلى مكـة وكان ملازمـاً لشـيخه أحمـد بـن إدريـس، ثـم انتقـل معـه إلى (صبيـا) بأطـراف اليمـن (المملكـة العربيـة السـعودية حاليـاً)، حتـى وفـاة شـيخه في العـام 1253هـ (1837م)، ومـن ثـم دبّ الخـلاف بـين كبـار تلاميـذه عـلى زعامـة المدرسـة الإدريسـية وهـم السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي (الختـم) والشـيخ محمـد عـلي السـنوسي وإبراهيـم الرشـيد، إضافـة إلى أبنـاء السـيد أحمـد بـن إدريـس، مـما أدى إلى تأسـيس تلاميـذه طـرق خاصـة بهـم. فأسـس السـيد محمـد عثـما ن الميرغنـي بمكـة الطريقـة الختميـة، وأقـام عـدد مـن الزوايـا في مكـة والمدينـة وجـدة والطائـف، كـما أرسـل أبنـاءه للدعـوة لطريقتـه الجديـدة في عـددٍ مـن المناطـق، فأرسـل ابنـه الأكـبر السـيد محمـد سر الختـم إلى اليمـن وحضرمـوت، وعـين ابنـه السـيد الحسـن ممثـلاً لـه في السـودان، وقـد أثـار نجاحـه في مكـة حسـد العلـماء عليـه فانتقـل إلى الطائـف ومكـث بهـا إلى أن تـوفي في 22 شـوال 1268هـ (2 مايـو1852م).

ونجـد مـن أهـم الأسـباب التـي قـادت السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي إلى النجـاح في شـمال السـودان ضعـف الطـرق الصوفيـة وتفككهـا في تلـك الآونـة، فالطريقـة القادريـة تعـاني مـن انعـدام القيـادة المركزيـة والطريقـة السـمانية مزقتهـا الخلافـات والانقسـامات....إلخ... كـما أن الطريقـة الختميـة قامـت عـلى أسـس مـن أهمهـا اتبـاع الكتـاب والسـنة مـع رفـض

الاهتداء بأي مصادر أخرى – العناية بتفسير القرآن الكريم ودراسة الحديث والفقه – التركيز على ترسيخ المبادئ الفاضلة ومحاسبة النفس – الدعوة بالوسائل السلمية ونشر الدعوة بين غير المسلمين – البعد عن العصبية والمذهبية... الخ.

اتسمت الطريقة الختمية بخصائص جعلتها تجد القبول بين كثير من السودانيين، وأهم هذه الخصائص تكوين الأستاذ الختم للطريقة الختمية من خمس طرق هي النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والميرغنية الشيء الذي جعل قبولها سهلاً لأصحاب الطرق الصوفية بالسودان. ومن الخصائص أيضاً اتخاذ واختيار السيد الختم والمراغنة من بعده لخلفاء مسؤولين عن عمل الطريقة ويمتازون بالورع والتقوى والتفقه في الدين ونشر الدعوة ابتغاء مرضاة الله، وكانوا من قبائل مختلفة كثيرة من قبائل السودان، لذلك ابتعدت الطريقة الختمية عن العصبية والجهوية والعنصرية منذ تاسيسها وحتى اليوم. وكان التركيز على تعليم الأتباع وحل مشاكلهم، كما اتسمت الطريقة الختمية بعدم معارضتها للتغيير والتجديد إلتزاماً بمنهج الكتاب والسنة الصالح لكل زمان ومكان، كما حث الختم أتباعه الجمع بين الطاعات والعلوم الشرعية، والأخذ بالأسباب الدنيوية كالزراعة والتجارة حتى لا يصبحوا عالة على غيرهم. وتقوم الطريقة الختمية على مجموعة من الأذكار والأوراد يلتزم بها أتباعها، وقد تميزت بالبساطة والسلاسة لتتناسب مع العامة، وقد تم تقسيمها إلى قسمين، القسم الأول تتم قراءته على انفراد، والآخر يقرأ في جماعة. وأشهر كتب الذكر عند الختمية كتاب (الأنوار المتراكمة) أو راتب الميرغني، ويقرأ عقب صلاتي الفجر والمغرب، وبعد الراتب تتم قراءة (التوسلين) أحدهما هو التوسل المسمى بحبل الوصال بأسماء الله الحسنى، والثاني التوسل بأسماء الرجال، ثم يعقبها قراءة دعاء معلوم ومن بعده سورة يس يتبعها بسورة الإخلاص ثلاث مرات ومن ثم المبايعة أو المصافحة بنية الإخاء في الله. والتوسل بعد صلاة العصر، وهناك الليلية مساء الأحد على صباح الإثنين ومساء الخميس صباح الجمعة، وهناك الحولية (كل عام). كما سمح الأستاذ الختم لأتباعه بقراءة بعض الأذكار التي لم يقم بتصنيفها مثل قراءة المشيشية ودلائل الخيرات، وأحزاب السيد أبي الحسن الشاذلي، وحزب السيف وحزب البحر وحزب النصر للسيد محيي الدين بن عربي، كما ألف الأستاذ الختم رسالة تتناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر صفاته الخلقية وقد صاغها في نظم شعري وسماها (النور البراق

في مـدح النبـي المصـداق)، كـما كان الأسـتاذ الختـم يحـث أتباعـه عـلى الحضـور لمجالـس الذكـر والحضـور عنـده في أول الثلـث الأخـير مـن الليـل لأداء أذكار السـحر بشـكل جماعـي، ويعـين أفـراداً لتنظيـم صفـوف الصـلاة وإيقـاظ الأتبـاع، كـما كان يأمـر أتباعـه بلبـس الثيـاب الجميلـة الحسـنة والعمائـم الطويلـة، ويدعوهـم لتحسـين هيئتهـم.

كـما سبق القـول بـأن الأسـتاذ الختم أرسـل ابنـه السـيد الحسـن أبوجلابية إلى السـودان، والـذي اتخـذ مـن قريـة السـنية (الختميـة) التـي أسسـها والـده مركـزاً لانطـلاق دعوتـه في السـودان وأريتريـا، فاسـتطاع أن يثبـت جـذور الطريقـة، كـما أوجـد لهـا العديـد مـن الامتـدادات والـولاءات بفضـل العلاقـات الجيـدة التـي أقامهـا السـيد الحسـن مـع العائـلات الدينيـة، كـما كان في غايـة المرونـة والتسـامح مـع أهـل الطـرق الأخـرى، كـما اتصـل بتلاميـذ أبيـه فوجـد منهـم تجاوبـاً كبـيراً، كـما قـام برحـلات إلى مناطـق السـودان المختلفـة، ودخـل عـلى يديـه كثـير مـن الأتبـاع في الطريقـة الختميـة. وكان المسـؤولون بـالإدارة التركيـة يجلـون ويحترمـون السـيد الحسـن ويقدرونـه ويعتقـدون بصلاحـه واسـتقامته عـلى الحـق. (وقـدم لهـم السـيد الحسـن العـون المخلـص في كثـير مـن المواقـف أهمهـا ثـورة الجهاديـة السـود التـي سـبقت الإشـارة إليهـا في أحـد فصـول هـذا الكتـاب، وهـي الثـورة التـي نشـبت في كسـلا العـام 1865م). وقـد اسـتطاع بحنكتـه وكراهيتـه للفـتن وإراقـة الدمـاء وقـف النـزاع بـين الطرفـين وإعـادة الهـدوء إلى المنطقـة.

وكان للسـيد الحسـن مـن الأبنـاء: السـيد أحمـد الـذي تـوفي في الثلاثـين مـن عمـره، والسـيد محمـد عثـمان (الأقـرب) والسـيدة فاطمـة التـي تزوجهـا ابـن عمهـا السـيد بكـري والسـيد جعفـر، والسـيدة نفيسـة التـي تزوجهـا ابـن عمهـا السـيد عبداللـه المحجـوب. تـوفي السـيد الحسـن أبوجلابيـة في 23 نوفمـبر 1869م. وخلفـه في قيـادة الطريقـة الختميـة ابنـه السـيد محمـد عثـمان الأقـرب الـذي ولـد في 4 مـارس 1848م، وأمـه إحـدى حفيـدات الشـيخ خوجـلي عبدالرحمـن المسـماة عليـه حلـة خوجـلي وفيهـا ضريحـه. وقـد وقـع عـلى السـيد محمـد عثـمان الأقـرب عـبء إدارة الـصراع بـين طائفـة الختميـة وأنصـار المهـدي، وعاونـه في ذلـك ابـن عمـه السـيد بكـري بـن السـيد جعفـر (وهـو الـصراع الـذي قـاده في شرقـي السـودان قائـد المهديـة عثـمان دقنـة الـذي هـدم منـازل عائلـة الميرغنـي وحطـم مسـجد السـيد محمـد عثـمان وقبـة السـيد الحسـن. وقبـل سـقوط مدينـة كسـلا في يـد الأنصـار خـرج السـيد محمـد عثـمان الأقـرب قاصـداً مـصر عـن طريـق مصـوع، وقـد أقـام بمـصر

بضعـة أيـام ثـم تـوفي يـوم السـبت 10 ربيـع الثـاني 1302هــ/ 17 ينايـر 1885م، وتـولى زعامة الختميـة مـن بعـده ابـن عمـه السـيد البكـري حتـى سـقوط مدينـة كسـلا في يـد الأنصـار في 18 رجـب 1302هــ/ 5 مايـو 1885م، حيـث غـادر إلى مصـوع ثـم سـواكن ومنهـا إلى مكـة التـي مـات فيهـا العـام 1304هــ/1887م.

مـن أبنـاء السـيد محمـد عثـمان الأقـرب السـيد أحمـد الميرغنـي والسـيد عـلي الميرغنـي وأختيهـما السـيدة نـور والسـيدة عيشـة. ومـن أبنـاء السـيد أحمـد الميرغنـي السـيد محمـد عثـمان (شـمبات) والسـيد الحسـن الميرغنـي والسـيدة فاطمـة الميرغنيـة. ومـن أبنـاء السـيد عـلي الميرغنـي السـيد محمـد عثـمان الميرغنـي والسـيد أحمـد الميرغنـي والسـيدة نفيسـة الميرغنيـة.

كان السـيد أحمـد الميرغنـي بـن السـيد محمـد عثـمان (الأقـرب) ومعـه أبنـاء السـيد البكـري قـد ظلـوا موجوديـن في أم درمـان، بينـما كان السـيد عـلي في طوكـر ثـم سـواكن، لأن المهديـة حاولـت الحـد مـن نفوذهـم وتشريـد قياداتهـم، وظـل الحـال كذلـك حتـى سـقوط طوكـر عـلى يـد الإنجليـز العـام 1891م، فتركهـا السـيد عـلي إلى سـواكن، وعنـد سـقوط الخرطـوم العـام 1898م في يـد الجيـش الإنجليـزي - المـصري الغـازي ارتحـل السـيد أحمـد بـن السـيد محمـد عثـمان الأقـرب وأبنـاء السـيد البكـري إلى كسـلا. أمـا السـيد عـلي الميرغنـي فقـد انتقـل إلى الخرطـوم العـام 1901م. وهـذا يؤكـد بـأن السـيد عـلي الميرغنـي دخـل السـودان مـع جيـوش الاحتـلال.

وبعـد ذلـك اسـتطاع المراغنـة بنـاء الطريقـة الختميـة مـن جديـد مـما أصابهـا في حكـم المهديـة، وأعـادوا بنـاء قبـة السـيد الحسـن التـي هدمهـا الأنصـار، وبنـاء الجـزء الأكـبر، والجـزء المتبقـي وهـو السـقف الـذي لم يكتمـل حتـى الآن. آل البيـت هـم مسـتودع العلـم الشرعـي، ويـرى الختميـة أن الأئمـة مـن بيـت النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم لا يضلـون إذا ضـل النـاس وسـيبقون عـلى الحـق إلى يـوم القيامـة إن شـاء اللـه.

المساجد

قام عدد من المساجد بمدينة كسلا منذ نشأتها وحتى نهاية فترة العهد الثنائي، إلا أنها تعتبر قليلة جداً مقارنةً بمساجد مدن السودان الأخرى، ويعزى ذلك لبناء المساجد على نفقة الأهالي، بمساعدات ضيئلة من الإدارات التي تعاقبت على كسلا في هذه الفترة. ومن أهم المساجد نذكر:-

مسجد الختمية:-

أنشأه السيد محمد عثمان بن السيد محمد الحسن الميرغني في العام 1881م بالقرب من منازل المراغنة الحالية بقرية الختمية، ويعتبر من أشهر مساجد السودان في ذلك الوقت. وافتتح المسجد في العام 1883م في احتفال عظيم. وكان المسجد عامراً بالصلاة حتى قام بهدمه عثمان دقنة في العام 1885م، كما أجريت عدة محاولات أخرى لإعادة بنائه.

كما يوجد بالختمية، بجانب ذلك المسجد مسجد آخر هو الجامع العتيق الذي شيده السيد الأستاذ محمد عثمان الختم عند مقدمه إلى كسلا، بجانب زاوية الختمية التي تم بناؤها في العام 1947م على أرض تبرع بها أحد الخلفاء وهو الخليفة متولي عثمان.

مسجد الحلنقة:-

تم تشييده في العام 1945م من القش، إلا أن احتياجه الدائم للترميم والصيانة جعل الحلنقة يتقدمون بطلب للمسؤولين في العام 1927م لمساعدتهم في بناء المسجد من الطين، كما اقترحوا أن تخصم لهم (5) مليمات من كل أردب عيش وقنطار قطن وتخصص للبناء، إلا أن المسؤولين رفضوا ذلك، وتبرعوا لهم بمبلغ مائة جنيه على أن يدبر الحلنقة بقية المبلغ، وبعد هذا التبرع قرر الأهالي بناء مسجدهم من الطوب الأحمر، وتم جمع التبرعات من الأهالي. وبحلول العام 1930م اكتمل بناء المسجد عدا الأبواب والنوافذ، فتقدموا بطلب آخر للمسؤولين لمساعدتهم في إكمال البناء، فتم منحهم أربع محلات تجارية بسوق مدينة كسلا توقف للمسجد لتكملة البناء، ويسمى هذا المسجد بالجامع العتيق.

المسجد العام (الجامع الكبير):-

ينسب المسجد الكبير للملك فاروق بن فؤاد ملك مصر، ولكن أشارت مصادر

عديـدة إلى أن التبرعـات التـي انهالـت مـن الأهـالي والمواطنـين سـاعدت كثـيراً في بنـاء هـذا المسـجد الكبـير الـذي أقيـم في وسـط المدينـة، ورغـم أن كسـلا تعتـبر عاصمـة المديريـة، إلا أنـه لم يكـن بهـا مسـجد عـام، لذلـك تقـدم أهـالي كسـلا للسـلطات لمسـاعدتهم في بنـاء مسـجد عـام للمدينـة، فتبرعـت لهـم بمبلـغ عشريـن جنيهـاً، وزاد الأهـالي عـلى هـذا المبلـغ وأنـشيء صنـدوق خـيري لنفـس الغـرض أطلـق عليـه (الصنـدوق التعـاوني الخـيري لإحيـاء شـعائر الديـن)، ومـن ثـم بـدأ العمـل في المسـجد في العـام 1948م.

مسجد الأنصار: -

قـام الأنصـار بحـي البرنـو جنـوب القـاش بتشـييد مسـجد مـن القـش في العـام 1922م إلا أنـه تعـرض للتلـف، فأعيـد تشـييده مـن اللـبن العـام 1931م.

مسجد السكة الحديد: -

تقـدم سـكان منطقـة السـكة الحديـد للمسـؤولين لمنحهـم قطعـة أرض ليقيمـوا عليهـا زاويـة لأداء شـعائرهم الدينيـة، عـلى أن تلحـق بهـا خلـوة لتدريـس القـرآن الكريـم، فوافـق مديـر كسـلا عـلى طلبهـم وتـم منحهـم قطعـة أرض شرق منـازل عـمال السـكة الحديـد، وقـد اكتمـل البنـاء العـام 1939م، إلا أنـه تـم تحويـل هـذه الزاويـة إلى مسـجد عـلى نفقـة الطريقـة الختميـة.

زاوية التيجانية : -

تـم التصديـق لأفـراد الطريقـة التيجانيـة بحـي غـرب القـاش في العـام 1924م لإقامـة زاويـة عـلى أرض مـن السـواقي الشـمالية تـبرع بهـا أحـد أفـراد الطريقـة التيجانيـة بلغـت مسـاحتها حـوالي (900) مـتر مربـع.

الخلاوي في كسلا

- خلـوة الختميـة:- أسسـها السـادة المراغنيـة في العـام 1944م، وبـدأت بحـوالي أربـع وخمسـين دارسـاً منهـم عـشر فتيـات، وقـام بالتدريـس فيهـا الفـكي الخليفـة سر الختـم الصـافي.
- خلـوة الحلنقـة:- تعتـبر مـن الخـلاوي القديمـة بمدينـة كسـلا، وتـم اعانتهـا مـن السـلطات في العـام 1925م، إذ كان بهـا خمسـة وسـبعون دارسـاً، وكانـت لتحفيـظ وتدريـس وتـلاوة القـرآن الكريـم فقـط، وقـام بالتدريـس فيهـا في ذلـك الوقـت الفـكي إبراهيـم عبداللـه، ساعده في التدريـس شـيخ آخـر هـو الفـكي محمـد نـور إمـام مسـجد الحلنقـة.
- خلـوة السـوق:- تعتـبر مـن الخـلاوي الرائـدة في مدينـة كسـلا لوقوعهـا في وسـط المدينـة، أعانـت السـلطات عـلى قيامهـا في العـام 1926م، وبلـغ عـدد الدارسـين فيهـا نحـو ثمانـين دارسـاً، وقـام بالتدريـس فيهـا قـاضٍ يدعـى الفـكي عبدالـرازق حامـد الـذ تلقـى دراسـته بخلـوة الخـواض بكبـوش، وتعتـبر خلـوة السـوق مـن أحسـن المـدارس بمدينـة كسـلا، لـذا كان التلاميـذ الذيـن يسـتوعبون في المـدارس النظاميـة بالمدينـة مـن طـلاب هـذه الخلـوة – وقـد كان الفـكي عبدالـرازق يتلقـى خميسـية مـن الدارسـين بجانـب إعانتـه الشـهرية.
- خلـوة غـرب القـاش:- تعتـبر مـن الخـلاوي القديمـة في كسـلا، وكان معظـم الدارسـين فيهـا مـن أبنـاء البرنـو والفلاتـة والهوسـا، قدمـت لهـا السـلطات إعانـة في 1927م، والمسـؤول عـن التدريـس فيهـا هـو الفـكي آدم محمـد.
- خلـوة الـكارة:- مـن الخـلاوي الحديثـة في كسـلا، أسسـها الفـكي عثـمان إبراهيـم، وتعتـبر هـذه الخلـوة مـن الخـلاوي المتطـورة، ومعظـم طلابهـا مـن أبنـاء التجـار والموظفين.

انتـشرت في كسـلا خـلاوي عديـدة خاصـة في منطقـة الحلنقـة مثـل خلـوة مالـك أبوبكـر وخلـوة الشـيخ إسـماعيل عبدالشـكور، وخلـوة الشـيخ محمـد الأمـين داش، وخلـوة الشـيخ عمـر الخليفـة، وخلـوة الشـيخ الصـافي محمـد نـور، وخلـوة الشـيخ إبراهيـم عبداللـه الحـاج.

مؤسسات اجتماعية وثقافية

نادي كسلا: -

نادي الحركة الوطنية في كسلا، بدأ نشاط اجتماعي وثقافي، ولكنه أصبح جذوة النضال والكفاح ضد الاستعمار، تم تأسيسه في العام 1927م، وهو نادٍ للموظفين، وكان يُعرف أيضاً بنادي الموظفين - يقوم بنفس الدور الذي قام به فيما بعد نادي الخريجين بأم درمان... وهو يعتبر كذلك كأول نادٍ رياضي بالمدينة بتشجيع من بعض المسؤولين، إذ تبرع له مدير كسلا مستر بيلي (1926-1932م) ببعض المعدات الرياضية، كما تبرع تاجر إغريقي يدعى (يني ترستي) بمجموعة من الكراسي، ويبدو أنه صاحب الكأس الذي كانت تتنافس عليه الفرق الكبرى في فترة الأربعينيات (توتيل والميرغني والتاكا والشباب) واشتهر هذا الكأس في كسلا باسم (كأس يني).

وفي العام 1930م سار النادي خطوات إلى الأمام بوضع قوانين ولوائح تنظم العمل به، وأهم هذه اللوائح تحديد قيمة اشتراك الأعضاء بلغت جنيهاً واحداً في العام، وتحديد انعقاد الجمعية العمومية للنادي بعد انقضاء ستة أشهر من الإختيار للجنة التنفيذية. وقد كان مدير كسلا أول رئيس للنادي بحكم منصبه، ومأمور المركز نائباً له. ومن ثم ازدادت عضوية النادي، إذ بلغت خمسين عضواً في العام 1932م، كما حصل النادي على بعض الإعانات من مدير كسلا مستر يونج (1932-1934) (Young) الذي خلف مستر بيل والمستر ثيوبولدTheoblodمفتش تعليم المديرية. كما تبرعت السيدة والدة المستركوتسCotsمفتش الزراعة السابق بالمدينةبمبلغ مائة وعشرين جنيهاً استرلينياً تخليداً لذكرى ابنها الذي توفي بالسودان.

وقد عملت أسرة النادي على تنظيم بعض الأنشطة التي يمكن أن تعود عليها ببعض المال، فقدمت مسرحية (تحت ظل المشنقة) و (المرابي).

كما أنشئت مكتبة بالنادي تفتح أبوابها للقراء يومياً من الساعة التاسعة صباحاً حتى الثانية ظهراً، ثم الساعة الخامسة مساءً وحتى العاشرة ليلاً، كما لم تسمح المكتبة باستعارة الكتب. وأصبح نادي الموظفين بكسلا يقدم الكثير من الأنشطة مثل كرة القدم والتنس والشطرنج بالإضافة إلى النشاط الأدبي والثقافي. وفي العام 1934م أصبح النادي مقراً لاتحاد كرة القدم بكسلا. كما أصبح سكرتير نادي موظفي كسلا سكرتيراً لاتحاد كرة القدم بكسلا. وقد مثل نادي موظفي كسلا الجذوة الأولى التي انطلقت

منها الحركة الاجتماعية بكسلا، إذ أخذت حذوه فئات المجتمع الأخرى في تكوين فرق رياضية وجميعات خيرية بالأحياء السكنية.

وفي الآونة الأخيرة نشطت جمعيات ومؤسسات خيرية : اجتماعية ودينية وثقافية بإنشاء المساجد والمراكز الدينية، وقد وعدني الإخوان والأبناء بإرسال تفاصيل عن هذا النشاط، ولكن للأسف لم يصلني منهم شيء، آمل أن تزداد أعمال الخير في مجالات كثيرة تفيد في الدعوة إلى الله وتخدم الشباب، بالتثقيف والتوعية لإعداد الشباب إعداداً صالحاً، وأن تتعدد وتتمدد مراكز تنمية المجتمع والموارد البشرية بالجامعات خاصة، وقد أشرت إلى ذلك في فصول سابقة من حلقة (كسلا التاريخ والحضارة) التي نشرت بجريدة (السوداني) 2006م.

ملحق رقم (6)

كسلا في عهد الحكم الثنائي

أولا: الحكم المركزي:-

تنفيذاً للإتفاق بين الحكومة البريطانية والإيطالية بتسليم مدينة كسلا للحكومة المصرية زحف بارسونز باشا وفي معيته قوة مصرية من سواكن واستلم مدينة كسلا في 20 ديسمبر 1897م رافعاً العلم المصري على سرايا المديرية، ومن ثم زارها سردار الجيش المصري كتشنر باشا. وبعد إتفاقية 19 يناير 1899م، رفرف على سرايا المدينة العلمان المصري والبريطاني إيذاناً ببداية حكم جديد تتقاسم سلطته الدولتان.

وسارت إدارة الحكم الثنائي على النمط التركي بتقسيم السودان إلى مديريات بلغ عددها ست في مطلع العام 1899م، من ضمنها مديرية كسلا، التي كانت تضم القضارف ونهر القاش وبادية البحر الأحمر بجانب منطقةكسلا. وبإنشاء ميناء بورتسودانالعام 1910م أصبحت سواكن وبورتسودان محافظة واحدة، ثم أدمجت مديرية كسلا لتصبح كسلا عاصمة للمديرية الوليدة، إلا أن وجود بورتسودان كميناء فرض وضعاً جديداً للمديرية، إذ أصبح (70%) من المكاتبات الإدارية خاص بمدينة بورتسودان وحدها مما حدا بالمسؤولين بجعل بوتسودان وسواكن في معتمدية واحدة. كما اتضح أن اثنين وثلاثين مسؤولاً يقيمون ببورتسودان من جملة مسؤولي المديرية البالغ عددهم تسعة

وثلاثـين مسـؤولاً. مـما يؤكـد أهميـة بورتسـودان. ولكـن رغـم ذلـك الوضـع ظلـت مدينـة كسـلا عاصمـة للمديريـة الـشيء الـذي سـيوفر لهـا مزيـداً مـن الخدمـات حتـى تلحـق بدائرة التطـور. وحـلاً لهـذا الإشـكال وافـق الحاكـم العـام جـون مفـي Maffey(1925-1933) عـلى نقـل مركـز المديريـة إلى سـنكات كعاصمـة صيفيـة تمتـد مـن أول أبريـل وحتـى نهايـة يونيـو، وتـم النقـل العـام 1927م، كـما كانـت الفـترة تمتـد بسـنكات أحيانـاً إلى نهايـة شـهر أكتوبـر، وظـل هـذا الوضـع حتـى العـام 1939م، ومـن ثـم توقـف بسـبب الحـرب الإيطاليـة وعـاد مجـدداً في العـام 1941م.

وطبقـاً للنظـام المركـزي المبـاشر كان مديـر المديريـة عـلى قمـة الهـرم الإداري يسـاعده مفتشـان وهـؤلاء كانـوا مـن البريطانيـين ثـم المأمـور ومعـه معاونـان وهـؤلاء مـن المصريـين. ومـن بعدهـم تـأتي سـلطة شـيوخ وزعـماء القبائـل الذيـن نظـرت لهـم الإدارة في بـادئ الأمـر كمتعاونـين وليـس عاملـين لديهـا. أمـا المفتـش الأول مفتـش رئاسـة المديريـة، والثـاني مفتـش مركـز المدينـة، ونجـد أن مفتـش رئاسـة المديريـة قـد جمـع في يـده سـلطات عديـدة، بجانـب سـلطاته الإداريـة، إذ كان مسـؤولاً عـن الأمـن والتعليـم، فلـذا عمـل معـه مسـاعدان، تـولى أحدهـما مهـام قمنـدان الشرطـة والآخـر مفتـش التعليـم. كـما أدى تمركـز معظـم رئاسـات مصالـح المديريـة ببورتسـودان إلى إضافـة أعبـاء جديـدة للإداريـين بكسـلا كتعريفهـم للشـؤون الزراعيـة والقضائيـة بالإضافـة إلى الأمـور الفنيـة كتعبيـد الطـرق وشـق القنـوات وإنشـاء المبـاني.

ثانياً: الإدارة الأهلية: -

أعـد اللـورد ملـز تقريـراً العـام 1920م عـن نـوع الحكـم اللامركـزي أسـلوباً للحكـم، وصـدر في عـام 1922م قانـون سـلطات الشـيوخ الـذي في مجملـه تنظيـم للسـلطات القضائية التـي كانـت بيـد زعـماء القبائـل، كـما لم يمنحهـم القانـون سـلطات إداريـة، كـما لم يشـمل القانـون المناطـق الحضريـة. وعـلى إثـر هـذا القانـون تكونـت المحاكـم الأهليـة، ومنحـت السـلطات في مديريـة كسـلا لناظـر الشـكرية والهدنـدوة.

لم يطبـق الإداريـون البريطانيـون نظـام الإدارة الأهليـة بقـوة ووضـوح إلا بعـد ثـورة العـام 1924م التـي تعـاون فيهـا المتعلمـون والمثقفـون مـع العسـكريين لمناهضـة الحكـم الإسـتعماري، مـما حـدا بالإنجليـز الاتجـاه صـوب الإدارة الأهليةكبديـل لاسـتخدام السـودانيين في دواويـن الحكومـة. واسـتعان الحاكـم العـام جـون مـا في J. Maffey بسـكرتيره الإداري

وساعده الأيمن هارولد ماكمايكل لتطوير الإدارة الأهلية، فأصبحت الإدارة الأهلية تتبع للقضاء المدني الذي أسس العام 1900م على غرار النظام الهندي. وقامت محاكم أهلية في مناطق البطانة وأبودليق ومنطقة الحلنقة العام 1928م أدت إلى تخفيف الضغط على محاكم كسلا، وتحولت للمحاكم الأهلية بكسلا بعض القضايا الشرعية، إلا أن هذه المحاكم الشرعية قد واجهت بعض الصعاب التي تمثلت في عدم وجود كوادر ملمة بشؤون الشريعة الإسلامية، فلذا تم تعيين نواب قضاة من بين الأهالي ممن عرفوا بالتقوى والمكانة الدينية بين قبائلهم.

وفي العام 1928م أوكل لزعماء القبائل تقدير الضرائب، كما أصبح من مهام الشيوخ والعمد والنظار تحديد وجمع العشور، وأصبح زعماء الإدارة الأهلية من التنفيذيين في السلطة وقيامهم ببعض الخدمات لمناطقهم كصيانة الطرق ونظافتها وإضاءتها وتوفير خدمات المياه، إلا أن الإدارة منعت عنهم الإشراف على الخدمات الرئيسية كالتعليم والصحة، كما قامت بالإشراف التام على مالية الإدارة الأهلية.

ولتمكين الإدارة الأهلية في كسلا تم إنشاء مجلس ريفي أو (قروي) لإدارة المدينة، وتولى عمدة مدينة كسلا رئاسة هذا المجلس بحكم منصبه. وفي عضوية هذا المجلس ضابطان متقاعدان، وأحد تجار كسلا وشيخ قبيلة الهوسا، وشيخ مدينة كسلا. وكان مدير مديرية كسلا الجديد المستر Bailyقد أشاد وهو يتسلم مهام منصبه كمدير للمديرية بالعمدة أحمد جعفر واعتبره أكثر الأشخاص كفاءةً لتولي رئاسة المجلس، كما منحه هو وبقية الأعضاء عشرة قروش عن كل جلسة تعقد بالمجلس. وكان منصب العمدة في كسلا قد تأسس العام 1920م، وانحصرت العمودية في أسرة آل أحمد جعفر منذ ذلك التاريخ (1920م) إلى يومنا هذا عندما خلف العميد (م) فيصل (معتصم) – أطال الله في عمره – أباه العمدة بابكر أحمد جعفر (يرحمه الله) في هذا المنصب.

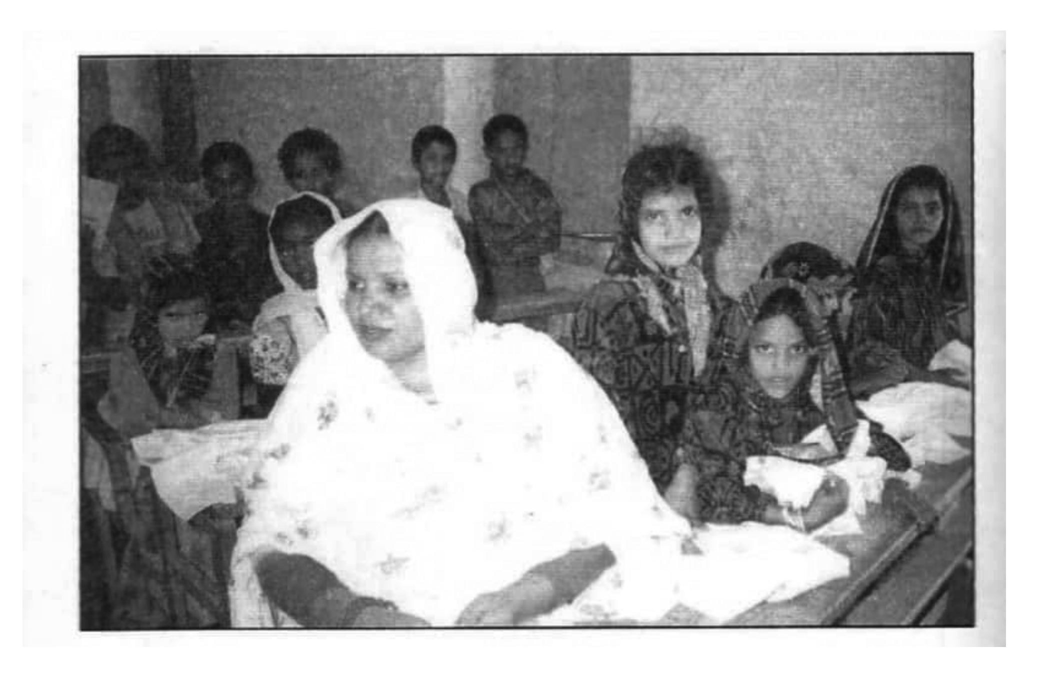
ثالثاً: تنظيمات سياسية ومهنية في كسلا:-

- لما قام مؤتمر الخريجين العام 1938م تكونت لجنة فرعية للمؤتمر في كسلا في العام 1924م برئاسة السيد خلف الله بابكر، وكانت تعقد اجتماعاتها في نادي الموظفين بكسلا، وقامت بدور كبير في إنشاء المدارس الأهلية – وتكونت لجنة فرعية للجبهة الوطنية بكسلا برئاسة الأستاذ محمد جبارة العوض. كما قامت فروع للأحزاب السياسية: حزب الأشقاء ثم الحزب الوطني الإتحادي – حزب الأمة، بجانب تنظيم الختمية وشبابها (الشباب).

- أول تنظيـم مهنـي قـام في كسـلا هـو تنظيـم نقابـة الممرضـين الـذي تكـون في العـام 1929م.
- قامـت محاولـة لإنشـاء نـادٍ للعـمال في العـام 1948م وكان عـلى رأسـها أحمـد اسـكندر، إلا أن محاولـة وتدخـل حـزب الأمـة لجـذب النـادي للدخـول في دائـرة نفـوذه وأد الفكـرة [2].

وبعـد فـإن كنـت وفقـت إلى مـا قصدتـه مـن إبـراز بعـض الجوانـب في تاريـخ كسـلا المبـارك فالفضـل والمنـة للـه وحـده، وإن كانـت الأخـرى فمـن نفـسي نرجـو العفـو والمغفـرة، فللـه الحمـد في الأولى والآخـرة والصـلاة والسـلام عـلى خاتـم أنبيائـه ورسـله.

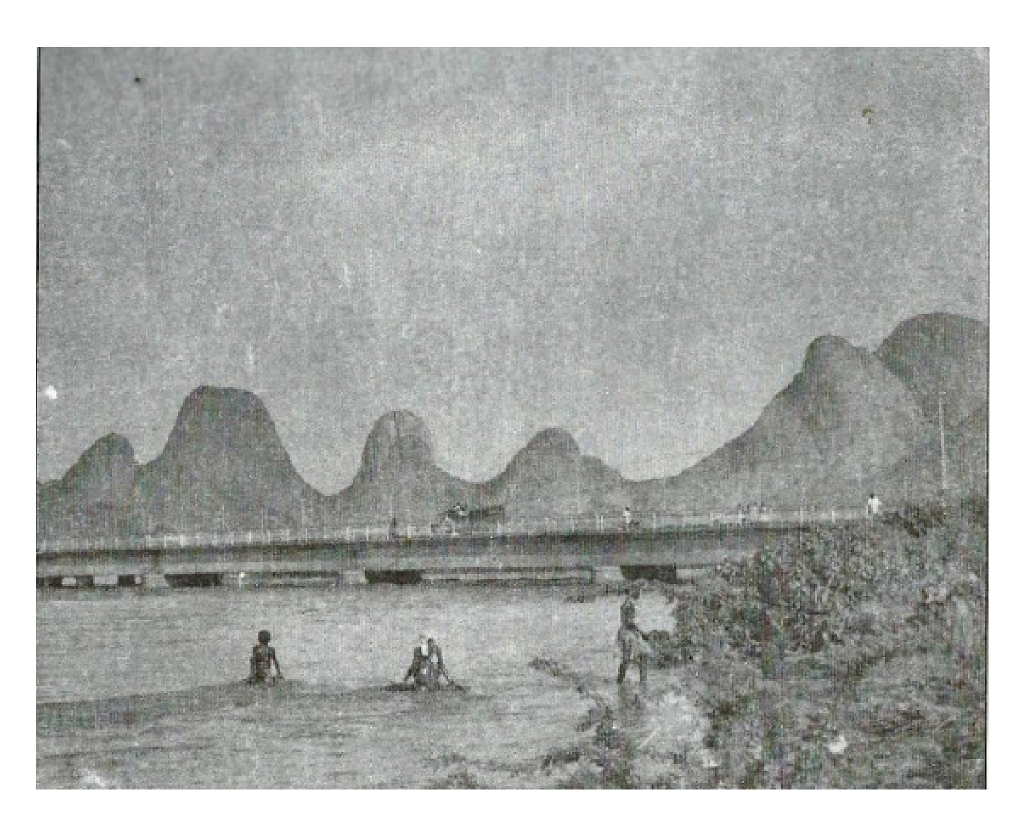
(1) للمزيد من التفاصيل: ضقيل، تاريخ مدينة كسلا (1840-1956).



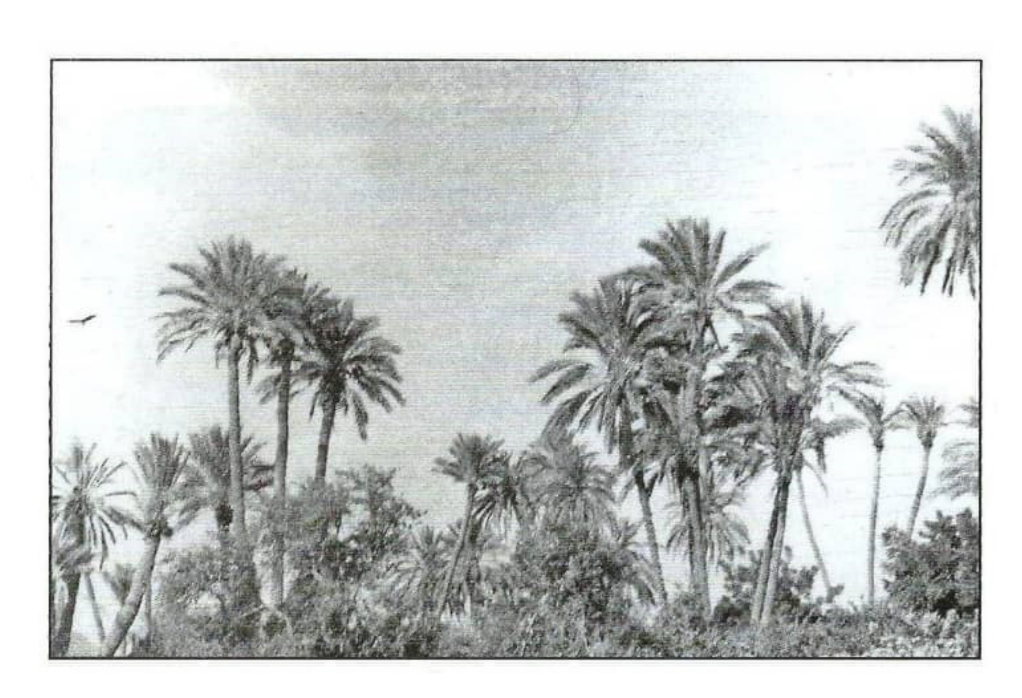
تعليم الرحل



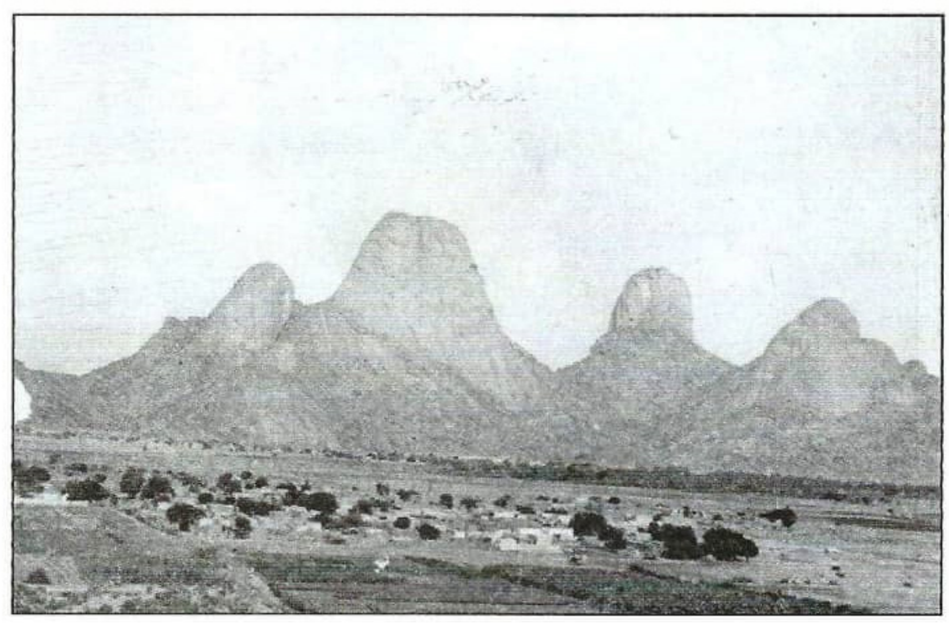
إذاعة كسلا



كسلا في الخريف



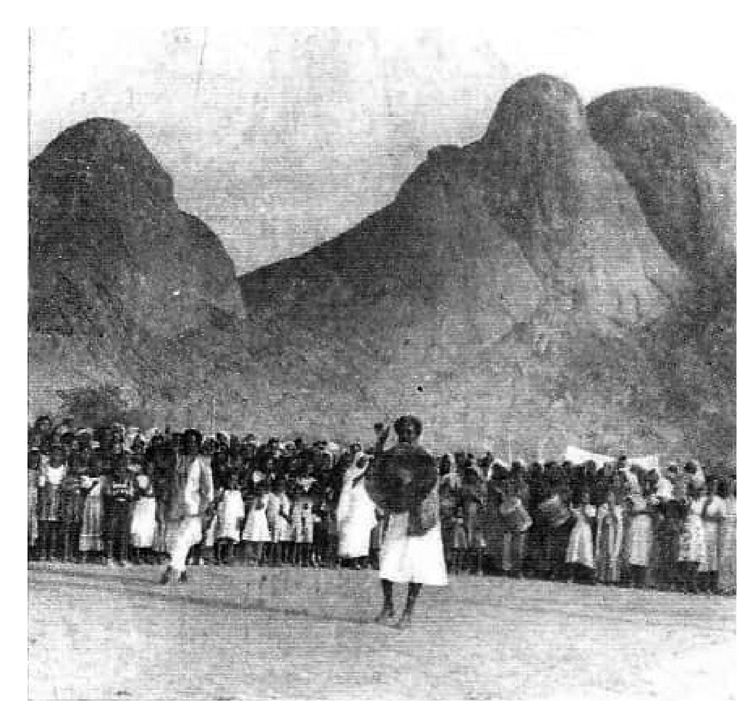
منظر يرمز إلى الزراعة وزراعة النخيل الناجحة في كسلا



جبال التاكا الشامخة



رقصة تراتية (رقصة السيف)

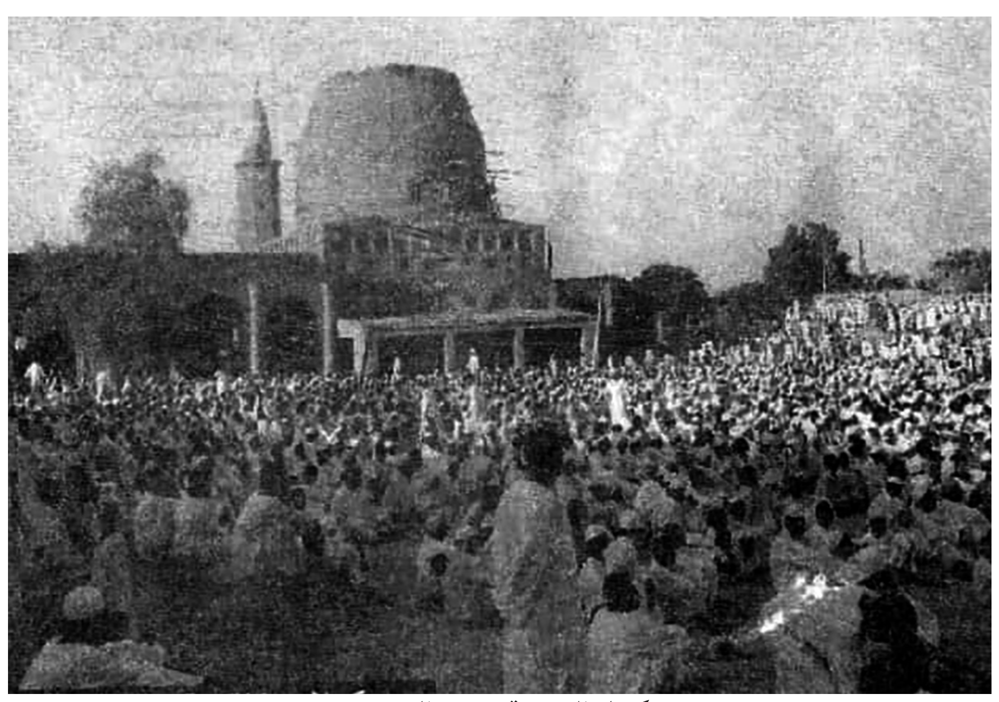


لقطة احتفالية



لحظة تأمل


رمز الخير والنماء (نهر القاش)


كسلا الختمية - يوم العيد



إنسان الشرق



فرسان الشرق